شخصيات وقضايا

فى

العلم والتعلُّم والتربية

الدكتور/ السيد محمد الديب

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

توزيع المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة

٩ - درب الأتراك - خلف الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علي المبعوث رحمة للعالمين، وبعد.

فقد جاءت مكونات هذا الكتاب (شخصيات وقـضايا فـي العلـم والـتعلُّم والتربية) امتداداً لموضوعات كتاب لي بعنوان (قضايا ثقافية) تم طبعه ونشره في مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف.

أما هذا الكتاب الذي بين يديك – عزيزي القارئ – فقد عرضـتُ في فصوله الأربعة لعدد من الشخصيات والقضايا، التي تعطـي دلالات مـضيئة لموضوعات متعانقة، تحت ظلال العلم والتعلم والتربية في مئات السنين هـي – بكل تأكيد– جزء من رحلة الإسلام علي الأرض، وما في ذلك من إنارة وتثقيـف حضاري، تجلت مظاهرة وآثاره شرقاً وغرباً، ومعظم ذلك بالنسبة لـى، حـصاد مؤتمرات علمية بداخل مصر وخارجها، أو تعبيرٌ عن واقع ملموس، تم رصـده وإعداده ونشره في مجلة أو إذاعة أو صحيفة، أو غير ذلك مما بذلنا فيـه جُهـداً نحتسبه عند الله تعالي.

وقد جاء الفصل الأول وعنوانه (شخصيات علمية وتعليمية):

للحديث عن أربعة من الأعلام مختلفي الزمن والهوية، وإن اتحد الهـدف الأسمي والأشمل لكل ما في هذا الكتاب، وتحقق ذلك مع السباحة أو السياحة في العوالم الرحبة الفسيحة لأبي حامد الغزالي وابن خلدون وعلي مبارك والـدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) رحمهم الله جميعاً.

أما الفصل الثاني – وعنوانه (قضايا تعليمية):

فقد تمت الدراسة فيه لأربعة موضوعات تَجْمَع –في مكوناتهـا– بـين القديم والحديث، وهي التعليم الأزهري بين الماضـي والحاضـر، وجامعـة

القاهرة – المئوية وقضايا أخرى، وجمع المخطوطات وتحقيقها، وآثار ذلك في إحياء التراث العربي، والوعي الديني لدي طلاب المرحلة الابتدائية.

وقد تيسر لي أن أقدم موضوع المخطوطات في رحاب جامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومي بجاكرتا- أندونيسيا في مؤتمر بعنوان «اللغة العربية في زمن العولمة بين الأمل واليأس» في وقت تئن فيه اللغة العربية، من همومها الثقال.

وجاء الفصل الثالث وعنوانه (قضايا متنوعة) عن أربع وهي:

التعريب والترجمة مشكلات وحلول، وواقعية البحث العلمي، وسرقات المتقدمين من المتأخرين، وضوابط الحوار الإسلامي، وهي حصاداً لعدد من المؤتمرات المتنوعة، بداخل مصر وخارجها.

أما الفصل الرابع والأخير:

فكان الدافع إليه إبراز بعض النشاطات الخاصة التي شاركت فيها، وعبرت عنها في جامعتي جرش بالأردن وشعيب الدكالي بالمغرب، أو نهضت بها في كلية اللغة العربية جامعة الأزهر بالزقازيق، أو عشت معها علي الطبيعة داخل محافظة جنوب سيناء، لرصد ظواهر التعليم الأزهري وما تنتابه من معوقات بهذه المحافظة، التي تحتاج إلي همة علمية وتعليمية، لتنطلق بالعلم والتعليم إلي مجالات أرحب في هذه المنطقة الإستراتيجية من أرض مصر، التي تشرّفت بما جاء عنها في القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلي الله عليه وسلم، والله الموفق والهادي إلي سواء السبيل.

تحريراً **١٢ من رمضان عام ١٤٣٣هـ**
٣١ من يوليو عام ٢٠١٢م

الأستاذ الدكتور/ السيد محمد الديب
وكيل كلية اللغة العربية بالزقازيق
Sayed.Addeeb@hotmail.com

الفصل الأول

شخصيات علمية وتعليمية من القديم والحديث

١- أبو حامد الغزالى.
٢- ابن خلدون.
٣- على مبارك.
٤- بنت الشاطئ.

١- أبو حامد الغزالى
وآراؤه فى الأدب والتربية والعلم والتعلم[١]

أولا: مدخل:

عاش أبو حامد الغزالى فى مرحلة حرجة من حياة الأمة الإسلامية، ذلك الزمن الذى كثرت فيه أطماع الغرب والشرق فيما عند العرب والمسلمين، والرجل بفقهه وعلمه يعد علامة فارقة فى مسيرة الفكر الإنسانى، فقد عاش مدة غير طويلة بالمعيار المتقارب للبشر، ووهب من الرغبة والقدرة والإرادة والمعرفة الكثير، الذى استطاع به أن يحول تلك المواهب والقدرات إلى مجموعة من المذاهب، والنظريات فى الأدب والتربية والتعلم، والتصوف الإسلامى المعتدل.

لقد كانت حياة الغزالى مليئة بالمشاق والمصاعب، التى قهرها وتغلب عليها، وخرج منها مسلحا باليقين والإرادة، وتمكن من تأليف عدد من الكتب والرسائل الموجهة إلى تلاميذه ومريديه.

ويعد (إحياء علوم الدين) أهم ما أفرزته قريحة الشيخ، إذ جعل منه دستورا إسلاميا وإنسانيا، موجها إلى إضاءة الأنوار فى طريق الإيمان الصحيح، واليقين الخالد، كما ألف كتبا أخرى أسهمت– بدرجات مختلفة– فى بيان الخصائص المميزة لتصوفه وفلسفته وزهده، مثل (تهافت الفلاسفة) ، وقدم مجموعة من الرسائل منها واحدة بعنوان (أيها الولد)، وأخرى عن (رسالة الأدب فى الدين).

---

(١) بحث مقدم إلي المؤتمر الدولي الرابع في كلية دار العلوم جامعة المنيا، والذي انعقد في المدة من ٩-١١ مارس ٢٠٠٨م، وموضوع المؤتمر (الثقافة العربية الإسلامية ... الوحدة والتنوع)– المحور الثالث عن الدراسات الأدبية والنقدية – قراءة التراث، وتأصيل الهوية.

ولد أبو حامد (زين العابدين) محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسى المشهور (بالغزّالى) فى (طوس)، وهى إحدى مدن خراسان من بلاد فارس عام ٤٥٠ هـ . ونشأ فى أسرة فقيرة، لم توفر له وضعا اجتماعيا متميزا، إذ كان والده يعمل فى مهنة غزل الصوف، التى نسبه بعض الناس إليها[١]، ولذلك كانوا ينطقون لقبه بتشديد حرف الزاى وفتحه أى (الغزّالى) نسبة إلى مهنة أبيه.

وحرص الوالد على أن ييسر لولديه محمد (أبوحامد) ، وأخية (أحمد) ، كل وسائل التربية الكريمة، لكن الرجل لم يمهله أجله؛ حتى يهنأ بتحقيق أمنيته، فأوصى أحد أصدقائه من المتصوفة بابنيه، وأعطاه مبلغا من المال، لا يكفى لتحقيق ما يتمناه، بشأن مستقبل الولدين[٢].

وقد تحدث اثنان من المهتمين بحياة الغزالى عن نشأته وتكوينه، فقالا :

" لما حضرت والد الغزالى الوفاة أوصى به، وبأخيه أحمد إلى صديق له متصوف من أهل الخير، وقال له :" إن لى لتأسفا عظيما على تعلم الخط، وأشتهى استدراك ما فاتنى فى ولدى هذين ". فأقام بهما، وعلمهما الخط، وأدبهما إلى أن فنى ذلك النذر اليسير، الذى كان خلفه لهما أبوهما، وتعذر على الصوفى القيام بقوتهما، فقال لهما : " اعلما أنى قد أنفقت عليكما ما كان لكما، وأنا رجل من أهل التجريد بحيث لا مال لى فأواسيكما به . وأصلح ما أرى لكما أن تلجآ إلى مدرسة، فإنكما من طلبة العلم، فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما، ففعلا ذلك، وكان هو السبب فى سعادتهما، وعلو درجتهما. وكان الغزالى يحكى هذا ويقول : " طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله"[٣] "

---

(١) أو أن لقب (الغزالى) الذى اشتهر به، جاء بانتسابه إلى بلدة (غزالة) التى قيل إنه ولد فيها .
(٢) انظر مشاهير الفكر التربوى عبر التاريخ لصالح باقارش، عبدالله الآنسى ص ١٧٤–طبع دار الحارثى بالطائف ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦م.
(٣) السابق – ١٧٤ نقلا عن كتاب (شخصيات تربوية) لمحمد المعتصم مجذوب .

لقد تلقى أبو حامد علومه على أيدى مجموعه كبيرة من مشاهير العلماء، وتأثر بإمام الحرمين (أبى المعالى الجوينى) بنيسابور، وعمل بالتدريس، وكثر طلابه ومريدوه، وسار حجة ومرجعا للكثيرين، ثم اتجه إلى التأليف، وإرشاد الصوفية، فكان ذلك مؤشرا قويا لتأكيد عزوفه عن الدنيا، واشتغاله بمتطلبات الآخرة[1].

لقد جلّى الغزالى أراءه فى تربية الأطفال وتعليمهم، وتهذيب سلوك المتعلمين، وإرشاد المعلمين، ولذا يعد بما كتبه فى هذه القضايا من المجددين فى الفكر الإنسانى، والتصوف الإسلامى، ومن أئمة المربيين فى علوم الفلسفة والزهد، والتصوف، فكان رائدا فى بحوثه، ومتميزا عن أقرانه، مما جعله جديرا بالبحث والعناية من القدماء والمحدثين .

وقدم مجموعة من التوجيهات العلمية والتربوية، التى تخص الصبيان والمريدين، والراغبين فى العلم والزهد والتصوف، وذلك فى موسوعته الضخمة (إحياء علوم الدين)، كما قدم أراء علمية وتعليمية فى سائر كتبه الأخرى، لكن جل عنايته بأكثر هذه القضايا قد ورد مجمعا فى رسائله المشهورة ومنها اثنتان الأولى : بعنوان (أيها الولد) ، وخرجت محققة ومطبوعة فى أكثر من طبعة ، والثانية : وهى التى اتسع مجال البحث فيها فى أمور متعددة وعنوانها (رسالة الأدب فى الدين) .

وتوفى حجة الإسلام أبو حامد – عليه رضوان الله – عام ٥٠٥هـ – (١١١١م)، ودفن بظاهر قصبة (طابران)، بحضور أخيه أحمد، وبالقرب من قبر

---

(١) أنظر السابق – ص ١٧٤ .

(الفردوسى)[1]، ومن المؤسف أننا لم نصل إلى الأبعاد المعرفية ومكونات السيرة الذاتية الكاملة لأحمد بن محمد شقيق محمد الغزالى.

ثانيا: رسالة (أيها الولد)

كتب الغزالى – رحمه الله – رسالة (أيها الولد) لأحد أبنائه الطلاب، الذى أرسل إلى الشيخ ، طالبا منه النصيحة ، ذلك أن المريد أو التلميذ ، قد لازم خدمة شيخه، واشتغل معه بتحصيل العلم وقراءته، حتى جمع الكثير من دقائق العلوم، واستقبل من فضائل النفوس ما شكل عنده زادا فكريا، وثروة علمية، تكفى حاجته وحاجة أمثاله من طلاب العلم .

وقد ذكر مؤلفو كتاب (أبو حامد الغزالى حجة الإسلام) [2] **فيما يتصل بطالب النصيحة من الغزالى، الذى قال :**

"إنى قرأت أنواعا من العلوم، وصرفت ريعان عمرى على تعلمها وجمعها، فالآن ينبغى أن أعلم أى نوعها ينفعنى غدا، ويؤنسنى فى قبرى، وأيها لا ينفعنى حتى أتركه، فقد قال رسول الله (ﷺ) : **﴿اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع﴾**.

فاستمرت له هذه الفكرة، حتى كتب إلى حضرة الشيخ حجة الإسلام استفتاء وسأله مسائل، والتمس منه نصيحة ودعاء، وقال " وإن كانت مصنفات الشيخ كالإحياء وغيره تشتمل على جواب مسائلى، لكن مقصودى أن يكتب الشيخ حاجتى فى ورقات تكون معى مدة حياتى، وأعمل بها مدة عمرى – إن شاء الله تعالى – فكتب له الشيخ هذه الرسالة"[3] .

---

(١) انظر السابق ص ١٧٥ .
(٢) هم : الدكتور / حمزة النشرتى وآخران .
(٣) أبو حامد الغزالى – ص ٢٤٥ .

١. أهمية النصيحة :

ابتدأ حجة الإسلام رسالته بالحديث عن النصيحة وأهميتها، وبيان منابعها، إلى غير ذلك من الأمور التى نعجز عن تلخيصها بالصورة التى تكشف للقارئ أبعاد الرؤية الخاصة بالغزالى، فابتدأ هذه الرسالة بقوله :

" إعلم أيها الولد والمحب العزيز – أطال الله بقاءك بطاعته، وسلك بك سبيل أحبائه – أن نشور النصيحة يكتب من معدن الرسالة[١]، إن كان قد بلغك منه نصيحة، فأى حاجة لك فى نصيحتى، وإن لم يبلغك فقل لى : ماذا حصلت فى هذه السنين الماضية[٢]".

أى أنه يقول لتلميذه: إن النصيحة تنبع من الكتاب والسنة، فإذا كنت قد حصلت منها شيئا، فلا حاجة بك إلى هذه النصيحة التى تطلبها منى، وإذا لم تظفر من هذا المعدن النفيس (أى الكتاب والسنة) بشيئ، فماذا استفدت منى طوال ملازمتك لى؟ وكأنه يقول له : لا ينبغى لك أن تطلب هذه النصيحة، لكنك ما دمت قد طلبتها فلابد أن تستقى من كتاب الله وسنة رسوله(ﷺ).

وقد كان الغزالى حريصا على تنبيه تلميذه، وحضه على الخير، ودفعه إلى تحصيل العلم، والاجتهاد فى العبادة، وتجلى بعض ذلك فى بدء كل فقرة من هذه الرسالة المفيدة بالقول : (أيها الولد)، ثم استهل الشيخ نصائحه بقوله :(أيها الولد من جملة ما نصح به رسول الله أمته قوله ﷺ: **﴿علامة إعراض الله تعالى عن العبد اشتغاله بما لا يعنيه، وإن امرؤ ذهبت ساعة من عمره فى غير ما خلق له من العبادة، لجدير أن تطول عليه حسرته، ومن جاوز الأربعين، ولم يغلب خيره على شره، فليتجهز إلى النار﴾** وفى هذه النصيحة كفاية لأهل العلم.

(١) معدن الرسالة : أى أصلها، ويعنى به القرآن والسنة .

(٢) اعتمدنا على نص هذه الرسالة، كما وردت بتعليق وتبويب الدكتور / أحمد فريد الرفاعى، والمنشورة ضمن كتاب (أبو حامد الغزالى حجة الإسلام) السابق ذكره .

وفى هذا البيان تأكيد أهمية النصيحة، ووجوب الإخلاص فيها إلى أهل العلم خاصة، ولغيرهم من أئمة المسلمين وعامتهم، مصداقا لقول الرسول (ﷺ) فيما رواه مسلم عن النبى (ﷺ) قال " الدين النصيحة " قلنا : لمن؟ قال :﴿لله ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم﴾[1].

ويشترط الصدق والأمانة بين الناصح وطالب النصيحة؛ لأن هذا الذى يطلبها، ويسأل عنها مدفوع بالرغبة فى المعرفة والوصول إلى شاطئ الإيمان واليقين.

٢. حتمية العمل بما حصله الفتى من علم:

ذكر الغزالى فى بداية وصيته إلى تلميذه سهولة النصيحة، وإشكالية قبولها؛ وذلك لمرارتها عند متبعى الهوى، كما أن تحصيل العلم لن يكون كافيا للنجاة والخلاص؛ لأن الحرص على العلم، دون العمل به تكون الحجة عليه مؤكدة، كما قال رسول الله ﴿ﷺ﴾: **﴿أشد الناس عذابا يوم القيامة، عالم لا ينفعه الله بعلمه﴾**[2].

وذكر الشيخ فى معرض نصائحه لتلميذه، أهمية العمل لما علمه وحصله طالب المعرفة، قال :" وروى أن الجنيد – قدس الله سره – رؤى فى المنام بعد موته فقيل له : ما الخبر يا أبا القاسم ؟ قال : طاحت تلك العبارات[3] وفنيت تلك الإشارات[4]، وما نفعنا إلا ركيعات ركعناها فى جوف الليل"[5].

وهكذا ابتدأ أبو حامد وصيته لتلميذه، ناصحا إياه بوجوب العمل الصالح، فى ضوء ما حصله الفتى من الفكر الدينى.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) من رسالة (أيها الولد) ضمن كتاب (أبى حامد الغزالى) ص ٢٤٥ .
(٣) أى ذهبت العلوم الظاهرة .
(٤) أى العلوم الباطنة .
(٥) أى لعدم احتمال الرياء، وفى رواية : كنا نصليها والناس نيام .

وقد أكد أهمية العمل بما تكون لدى الفتى من علم، وذلك بضرب العديد من الأمثله مثل " لو كان على رجل فى برية عشرة أسياف هندية مع أسلحة أخرى، وكان الرجل شجاعا وأهل حرب، فحمل عليه أسد عظيم مهيب، فما ظنك ؟ هل تدفع الأسلحة شره عنه بلا استعمالها وضربها ؟ ومن المعلوم أنها لا تدفع إلا بالتحريك والضرب، فكذا لو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية، وتعلمها، ولم يعمل بها، لا تفيده إلا بالعمل .... ".

وقال لتلميذه أيضا: "ولو قرأت العلم مائة سنة، وجمعت ألف كتاب، لا تكون مستعدا لرحمة الله تعالى إلا بالعمل ... وهو يؤكد بذلك أن كثرة العلم لا تنفع إلا بالعمل، وأنها بدونه لا تسوى شيئا.

٣. الأجر على العمل:

بدأ أبو حامد كلامه لتلميذه عن هذا الأمر قائلا : " أيها الولد " " ما لم تعمل لم تجد الأجر " والأجر الذى يقصده هو الأجر فى الآخرة، وذكر لذلك حديث رسول الله ﴿ ﷺ ﴾: ﴿الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والأحمق من اتبع هواه وتمنى على الله الأمانى ﴾، وأثبت مقولة لعلى رضى الله عنه، وأخرى للحسن رحمه الله تعالى الذى قال : ﴿طلب الجنة بلا عمل، ذنب من الذنوب﴾.

وقال الشيخ لتلميذه فى هذه النصيحة:

" أيها الولد" كم من ليل[1] أحييتها بتكرار العلم، ومطالعة الكتب، وحرمت على نفسك النوم؟ لا أعلم ما كان الباعث فيه ؟ إن كان نيل عرض الدنيا وجذب حطامها وتحصيل مناصبها، والمباهاة على الأقران والأمثال، فويل لك ثم ويل لك، وإن كان قصدك فيه إحياء شريعة النبى ﴿ﷺ﴾، وتهذيب أخلاقك، وكسر النفس الأمارة بالسوء، فطوبى لك ثم طوبى لك ".

---

(١) مفردها ليلة .

٤. الحض على تحصيل العلم، وبيان نتائج العمل به:

ذكر الغزالى فى رسالته إلى تلميذه ما يلى :-

" أيها الولد" "عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزى به " .

وقال إنه لا قيمة لتحصيل العلوم، إذا اقترنت بمخالفة ذى العزة والجلال، وأكد أهمية الحرص على العلم، وحتمية العمل به، وأن ذلك لا يتحقق إلا بمتاعب، أو بمشقات ليست سهلة هينة .

وأن من نتائج تحصيل العلم الطاعة، والعبادة، والالتزام بالأوامر والنواهى، أو بالقول والفعل، وبحيث يكون ذلك مطابقا للشرع، وقال :

" أيها الولد" "اجعل الهمة فى الروح، والهزيمة فى النفس، والموت فى البدن؛ لأن منزلك القبر، وأهل المقابر ينتظرونك فى كل لحظة، متى تصل إليهم ؟ إياك إياك أن تصل إليهم بلا زاد".

ويقصد بذلك حتمية العمل الصالح المترتب على العلم النافع؛ لأن العلم مهما علا قدره، وارتفع شأنه، لا قيمة له، إذا لم يتمخض عنه عمل صالح، وأن ذلك قيام الليل، قال : " أيها الولد " لو كان العلم المجرد كافيا لك، ولا تحتاج إلى عمل سواه، لكان نداء: هل من سائل ؟ هل من مستغفر ؟ هل من تائب ؟ ضائعا بلا فائدة، ورُوى أن جماعة من الصحابة– رضوان الله عليهم أجمعين– ذكروا عبدالله بن عمر – ﷺ– عند رسول الله ﴿ﷺ﴾ فقال :" **نعم الرجل هو ، لو كان يصلى بالليل**".

وذكر أن الطاعة والعبادة هما متابعة الشارع فى الأوامر والنواهى، بالقول والفعل، وذلك باقتداء الشرع؛ لأن العلم والعمل إذا لم يكونا موافقين للشرع لهما ضلالة، ينبغى عدم الاغترار بهما .

وذكر أن الشبلى – رحمه الله – خدم أربعمائة أستاذ، وقرأ أربعة آلاف حديث، واختار منها حديثا واحدا، وعمل به، وترك ما سواه، إذ وجد فيه خلاصه ونجاته، واندرج تحته علم الأولين والآخرين، وهو أن رسول الله (ﷺ) قال لبعض أصحابه: ﴿ **اعمل لدنياك بقدر مقامك فيها، واعمل لآخرتك بقدر بقائك فيها، واعمل لله بقدر حاجتك إليه، واعمل للنار بقدر صبرك عليها**﴾.

وأن العلم فى هذا الحديث يغنى عن علم كثير آخر، إذ رغب الشيخ فى الانتقال بتلميذه إلى بعض الحكايات من خلال الموضوع الآتى :

٥. فوائد العلم:

ذكر أبو حامد مجموعة مهمة من فوائد العلم على لسان حاتم الأصم، فى حواره مع صاحبه شقيق البلخى، قال حاتم فى رسالة الغزالى لتلميذه :

الفائدة الأولى:"أنى نظرت إلى الخلق، فرأيت لكل منهم محبوباً ومعشوقا، يحبه ويعشقه، وبعض ذلك المحبوب يصاحبه إلى مرض الموت، وبعضه إلى شفير القبر، ثم يرجع كله ويتركه فريدا وحيدا، ولا يدخل معه فى قبره منهم أحد، فتفكرت وقلت : أفضل محبوب المرء ما يدخل فى قبره ويؤانسه فيه، فما وجدته غير الأعمال الصالحة، فأخذتها محبوبا لى؛ لتكون سراجا لى فى قبرى، وتؤانسنى فيه، ولا تتركنى فريدا".

وذكر أن **الفائدة الثانية** ؛ تتمثل فى مجاهدة النفس، ورفض الانسياق إلى هواها، والخضوع لملاذاتها؛ حتى ترضى بطاعة الله تعالى وتنقاد له .

وتتمثل **الفائدة الثالثة** ؛ فى أن التصدق على المساكين، أفضل من تجميع حطامات الدنيا.

وجعل **الفائدة الرابعة**؛ ممثلة فى اختيار التقوى ، وذكر ما يلى : " أنى رأيت بعض الخلق ظن شرفه، وعزه فى كثرة الأقوام والعشائر، فاغتر بهم،

وزعم آخرون أنه فى ثروة الأموال، وكثرة الأولاد فافتخروا بها، وحسب بعضهم الشرف والعز فى غصب أموال الناس وظلمهم وسفك دمائهم، واعتقدت طائفة أنه فى إتلاف المال وإسرافه وتبذيره، وتأملت فى قوله تعالى : (**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**)فاخترت التقوى ، واعتقدت أن القرآن حق صادق ، وظنهم وحسبانهم كلها باطل زائل ".

والفائدة الخامسة: فى الرضا بما قسمه الله تعالى لعباده من الرزق .

بينما كانت **الفائدة السادسة:** من الفوائد التى حصلها الأصم فى مصاحبته للشقيق البلخى مدة ثلاثين عاما، هى أنه لا تجوز عداوة أحد إلا الشيطان.

وأما **الفائدة السابعة:** فهى أن الرزق من الله تعالى .

والثامنة والأخيرة: هى التوكل على الله . وقال شقيق البلخى مؤكدا كلام حاتم: إن هذه الفوائد الثمانية، مستنبطة من الكتب السماوية الأربعة (التوراة – الإنجيل– الزبور – الفرقان)، فمن عمل بها كان عاملا بهذه الكتب الأربعة .

٦. احتياج طالب العلم، وسالك طريق الحق، إلى شيخ أو معلم، ومعايير العلاقة بينهما:

أ– قال الغزالى فى هذا الخصوص: " اعلم أنه ينبغى للسالك شيخ مرشد مرب؛ ليخرج الأخلاق السيئة منه بتربيته، ويجعل مكانها خلقا حسنا "

ب – شروط الشيخ أو المعلم :

ذكر أن الشيخ أو المعلم الذى يصلح لأن يكون مكلفا من الرسول، أو نائبا له، يشترط فيه أن يكون عالما، ولكن العلم وحده لا يكفى، إذ لابد أن يتصف أيضا بالإعراض عن حب الدنيا وحب الجاه، وتلقى العلم عن شخص بصير

تتواصل متابعته إلى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، وأن يروض نفسه بقلة الأكل، والقول والنوم، وكثرة الصلوات والصدقة والصوم، وأن يكون عند متابعته لشيخه ملتزما بمحاسن الأخلاق، كالصبر والصلاة والشكر والتوكل، والقناعة والتواضع، والحياء والتأني، وأمثالها، وهو في ضوء ذلك، نور من أنوار النبي، يصلح للاقتداء به، وإن كان وجود مثل هذا الشخص نادرا جدا، وعزيز المنال، وإذا ما وجد المتعلم شيخا بهذه الخلال، وقبله الشيخ، ورضي عنه، كان على الطالب أن يحترم أستاذه وشيخه، ظاهرا وباطنا، وحول هذين النوعين من الاحترام قال :

" أما احترام الظاهر فهو ألا يجادله، ولا يشتغل بالاحتجاج معه، في كل مسألة، وإن علم خطأه ...... وقال : " ويعمل ما يأمره الشيخ من العمل بقدر وسعه وطاقته، وأما احترام الباطن فهو أن كل ما يسمع ويقبل منه في الظاهر لا ينكره في الباطن، لا فعل ولا قول، لئلا يتسم بالنفاق، وإن لم يستطع يترك صحبته إلى أن يوافق باطنه ظاهره، ويحترز عن مجالسة صاحب السوء، ليقصر ولاية شياطين الجن والإنس عن صحن[١] قلبه، فيصفى من لوث[٢] الشيطنة " .

وتؤكد هذه المقولة حتمية أن يكون الحرص على طلب العلم والعمل به أكثر وأعظم، من الحرص على طلب المال، والانغماس في ملذاته .

٧. إصطلاحات ودلالات:

عرض الشيخ أبو حامد – عليه رحمة الله – في رسالة " أيها الولد " لمجموعة من الاصطلاحات أماط اللثام عنها ببعض الدلالات، التي يجدر بتلميذه أن يتعرف عليها، وأن يحسن التعامل معها، ففي حديثه عن التصوف، ذكر أن له

---

(١) أي وسطه .
(٢) أي خبث .

٧. إصطلاحات ودلالات:

عرض الشيخ أبو حامد – عليه رحمة الله – فى رسالة " أيها الولد " لمجموعة من الاصطلاحات أماط اللثام عنها ببعض الدلالات، التى يجدر بتلميذه أن يتعرف عليها، وأن يحسن التعامل معها، ففى حديثه عن التصوف، ذكر أن له خصلتين هما الاستقامة، والسكون عن الخلق، قال : " فمن استقام، وأحسن خلقه بالناس، وعاملهم بالحلم فهو صوفى " .

وتحدث عن العبودية ومبادئها، وعن التوكل ومفهومه، والإخلاص وعلامته، والرياء وخطورته، وحتمية بذل الروح فى سبيل العلم .

٨. النصائح الثمينة:

تحدث الغزالى عليه سحائب الرحمة والرضوان عن مجموعة من النصائح الثمينة وهى ثمانية، يجب الالتزام والعمل فى أربعة منها، كما يجب الترك والمجانبة لأربعة أخرى مختلفة، والأربعة التى يجب على الصبى أن يدعها هى:

١- عدم مناظرة أحد فى مسألة ما قدر الاستطاعة؛ ذلك لأن المناظرة والمجادلة فيها أفات كثيرة، فإثمها أكبر من نفعها؛ لأنها – كما يقول الشيخ – منبع كل خلق ذميم، كالرياء والحسد والكبر والحقد والعداوة والمباهاة وغيرها، لكن للإنسان أن يشارك فى المناظرة، إذا كان الدافع أو الإرادة هو إظهار الحق وعدم ضياعه، وأن لتلك الإرادة علامتين، قال الغزالى لتلميذه عنهما : " ألا تفرق بين أن ينكشف الحق على لسانك، أو على لسان غيرك ....." " وأن يكون البحث فى الخلاء أحب إليك من أن يكون فى الملأ "، وقد تطرق وهو بصدد الحديث عن المناظرة واشتراطاتها إلى بعض الأمراض (غير العضوية)

التى لا تقبل العلاج، مكتفيا بالإشارة الخاطفة إلى مـا يقبـل العـلاج، وذكر مرض الجهل محددا له أربعة أنـواع : ثلاثـة منهـا لا تقبـل العلاج، وواحد يقبله، أما أمراض الجهل التى لا تقبل العلاج فهى على ثلاثة أنواع:-

أولها: أن يكون الدافع من السؤال، أو الإعراض عن الآخر هـو الحـسد والبغض، إذ أن المناظر أو المعنى بهذه الوصية، كلما أحسن الجـواب، وأبان القول، لا يجد من الآخـر إلا الـبغض والحـسد، ولـذا يجـب الإعراض عنه، وتركه مع مرضه، كما قال الشاعر:

كـلُّ العـداوةِ قـد تُرجـى إزالتُهـا   إلا عداوةَ مَنْ عـاداَك عـن حـسـد

ثانيها: أن تكون العلة من الحماقة، وذلك أيضا لا يقبـل العـلاج – كمـا ذكرنا سلفا – مصداقا لقول عيسى عليه السلام : ﴿ إنـى مـا عجـزت عـن إحياء الموتى، وقد عجزت عن معالجة الأحمـق ﴾، ولذا ينبغى ألا يشتغل المنـاظر بجواب هذا المريض؛ لاستحالة معالجة مرضه، وهو الحماقة .

ثالثها: قصور الفهم، وعدم القدرة على إدراك الحقائق من المناظر، ولـذا ينبغى عدم الاشتغال بجوابه والرد عليه .

أما الذى يقبل العلاج من الجهل فهو يتمثل فى وجود قدرة على الفهم، واستطاعة فى التغلب على الحسد والبغض والشهوة، واجتناب التعنت والرغبة فى الفوز على الآخر، وذلك مما يجعل قضية المناظرة فى غاية الخطورة بما فيها من أحوال للجهل، وقبول بعض أنواعها للعلاج، أو فقد الكثير من الصفات التى لا تقبل العلاج، وعليه فيجب الابتعاد عن المناظرة مع تلك الحالة؛ لعدم الجدوى .

ونستكمل نصائح الغزالى الثمينة لتلميذه، التى يجب أن يدعها، وذلك من خلال النصيحة الثانية وهى:

٢- تحذير الولد أو المسترشد من أن يكون واعظا ومذكرا، وقد اشترط على الواعظ إذا اراد الفعل أن يعمل بما يقول أولا، ثم يعظ به الناس، متذكرا ما قيل لعيسى ﷺ " يابن مريم عظ نفسك، فإن اتعظت فعظ الناس، وإلا فاستح من ربك" .

وقد حذر الغزالى المبتلى بممارسة الوعظ من خصلتين :-

الأولى: التكلف فى الكلام بالعبارات والإشارات والطامات[1]، والأبيات والأشعار، لأن الله تعالى يبغض المتكلفين .

- إن هذه الأمور المذكورة فى ذاتها ليست مرفوضة على الإطلاق، ولكنها لا تقبل أن توجه فى مناظرة إلى من لا يستوعبها، ولا يحسن التعامل معها، أما الخصلة.

الثانية : فقد قال الغزالى لتلميذه عنها : " ألا تكون همتك فى وعظك أن ينفر الخلق فى مجلسك، أو يظهروا الوجد، ويشقوا الثياب، ليقال : نعم المجلس هذا؛ لأنه كله ميل للدنيا، وهو يتولد من الغفلة، بل ينبغى أن يكون عزمك وهمتك أن تدعو الناس من الدنيا إلى الآخرة، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الحرص إلى الزهد، ومن البخل إلى السخاء، ومن الغرور إلى التقوى، وتحبب إليهم الآخرة، وتبغض إليهم الدنيا، وتعلمهم علم العبادة والزهد...." . إلى غير ذلك من العزائم

---

(١) هى الإصطلاحات الصوفية المتعارفة بينهم، الخفية عن غيرهم (من هامش رسالة "أيها الولد" تعليق الدكتور / أحمد فريد الرفاعى ضمن هامش كتاب أبى حامد الغزالى، ص ٢٦٠.

والهمم التي يجب أن يلتزم بها الواعظ، وهو في لجة الوعظ الذى يموج به .

٣- وهذه النصيحة الثالثة التى يجب الابتعاد عنها، وتتمثل فى عدم مخالطةالأمراء والسلاطين وعدم رؤيتهم .

وقد قال الشيخ فى إيضاح ذلك ما يلى .. " لأن رؤيتهم ومجالستهم ومخالطتهم أفة عظيمة، ولو ابتليت بها دع عنك مدحهم وثناءهم؛ لأن الله تعالى يغضب إذا مُدح الفاسق والظالم، ومن دعا بطول بقائهم فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه .

٤- عدم قبول عطاء الأمراء وهداياهم، حتى لو كانت من الحلال؛ لأن الطمع منهم يفسد الدين، لأنه يتولد من المداهنة، ومراعاة جانبهم، والموافقة فى ظلمهم،وهذا كله فساد فى الدين، وأقل مضرته أنك إذا قبلت عطاياهم، وانتفعت من دنياهم أحببتهم، ومن أحب أحدا يحب طول عمره وبقائه بالضرورة، وفى محبته بقاء الظالم إرادة فى الظلم على عباد الله تعالى، وإرادته خراب العالم .

تلك هى النصائح الأربعة التى يجب على الإنسان أن يتجنبها، وأن يحترس منها، لكنه إذا ابتلى بها أو ببعضها، فعليه أن يلتزم بالتحذيرات التى تقدم بيانها، وأما النصائح التى ينبغى للإنسان أن يفعلها فهى - كما سبق القول - أربعة ايضا:

<u>الأولى</u> : هى : " أن تجعل معاملتك مع الله تعالى بحيث لو عامل معك بها عبدك ترضى بها منه، ولا يضيق خاطرك عليه ولا تغضب " .

- أى أن الأمر - ولله المثل الأعلى - أن تعامل الله تعالى بطريقة لو تعامل خادمك بها معك ترضى عنه ولا تغضب منه .

الثانية : أرض الله بما يحب أن ترضاه لنفسك من البشر .

الثالثة : قراءة العلم ومطالعته ينبغى أن تكون لإصلاح القلب، وتزكية النفس

الرابعة : ألا تجمع من الدنيا أكثر من كفاية سنة، وقد كان رسول الله ﴿ﷺ﴾ يدعو لذلك مع بعض نسائه، أما من كانت صاحبة يقين، فما كان يعد لها أكثر من قوت يوم ونصف – رحم الله الشيخ الغزالى حجة الإسلام رحمة واسعة، ذلك أنه قد أجاب تلميذه إلى ما رغب النصح فيه، هذا ومع قدر الشيخ ومنزلته، فإنه قد طلب من تلميذه أن يدعو له بصالح الدعاء، وقد ختم الرسالة بالدعاء الآتى إذ طلب من تلميذه أن يدعو به فى جميع الأوقات، خصوصا فى أعقاب الصلوات، وبدأه قائلا : " اللهم إنى أسألك من النعمة تمامها، ومن العصمة دوامها، ومن الرحمة شمولها، ومن العافية حصولها، ومن العيش أرغده، ومن العمر أسعده، ومن الإحسان أتمه، ومن الإنعام أعمه، ومن الفضل أعذبه، ومن اللطف أقربه، اللهم كن لنا ولا تكن علينا، اللهم اختم بالسعادة آجالنا، وحقق بالزيادة آمالنا...." إلى آخر الدعاء الذى يتجلى فيه ورع الغزالى وتقواه(١).

ثالثا: رسالة الأدب فى الدين :

ترسم هذه الرسالة الملامح العامة، لمنظومة الأدب الإسلامى، التى تجلت بصورة واضحة فى العصر الحديث، من خلال ما كتبه الغزالى عن الأدب والتوجهات العامة، حسب رؤيته الواضحة فى الدين والحياة؛ لأن هذا التوجه له أصوله وثوابته، القابعة فى أعماق السجل التاريخى للفكر الإسلامى .

(١) نهاية رسالة " أيها الولد " ص ٢٦٤ من كتاب (أبو حامد الغزالى) ص ٢٦٤ .

لقد وضع – رحمه الله – فى القرن الخامس الهجرى – بذورا مخصبة، أثمرت فى مراحل تالية، كثيرا من الإبداعات الأدبية والثقافية والفكرية، التى تمثل التوجه الدلالى لنظرية الأدب الإسلامى، ووضع أيضا قواعد راسخة للعديد من قضايا التعلم والتربية، مما يجعل رسالة الأدب فى الدين، محلا للدراسة والنقد، كما تحوى عشرات الموضوعات الأخلاقية، التى لا غنى للصغير أو الكبير عنها، وختمها بالدعاء كما فعل فى رسالة " أيها الولد " .

ومن قضايا التعلم والتربية فيها ما يلى :-

١. آداب العالم:

يُقصد بالعالم : الشخص الذى صار عالما، يعمل بعلمه، ويعلمه غيره، وكتب عن هذه الآداب فقال[١] : " لزوم العلم والعمل به، ودوام الوقار، ومنع الكبر، وترك الدعاء به، والرفق بالمتعلم، والتأنى بالمتعجرف [٢]، وإصلاح المسألة للبليد، وترك الأنفة [٣] من قول لا أدرى، وتكون همته عند السؤال خلاصه من السائل، لا خلاص السائل، وترك التكلف، واستماع الحجة والقبول له وإن كانت من الخصم ".

ومن الواضح أنه فى كلامه السابق، يتوجه بالبيان إلى طلابه ومريديه، ممن يجعلون عنايتهم منصرفة إلى درس الأدب، الملتزم بقضايا الدين والفكر والتصوف، أما الآداب المنوطة بالمعلم لسائر العلوم التى يتلقاها الطلاب والتلاميذ، فهى محل عناية أخرى، تحدث عنها فى كتابه " إحياء علوم الدين " والتى سنعرض لها بالتفصيل .

(١) العرض هنا لرسالة الأدب فى الدين، كما جاءت فى كتاب (أبو حامد الغزالى حجة الإسلام) السابق ذكره.
(٢) المتعجرف – كما فى هامش الكتاب السابق – : المتكبر الذى لا يهاب شيئا، الجافى فى الكلام .
(٣) الأنفة : الكرامة وعلو النفس .

٢. آداب المتعلم مع العالم :

تلك التى بحثها الشيخ فى رسالة (الأدب فى الدين)، وعرض لها بأسلوبه المحدد وفكره المجدد، وعبارته الموجزة المركبة، قال : " يبدؤه بالسلام [١]، ويقل بين يديه الكلام، ويقوم له إذا قام، ولا يقول له قال فلان خلاف ما قلت، ولا يسأل جليسه فى مجلسه، ولا يبتسم عند مخاطبته، ولا يشير عليه بخلاف رأيه، ولا يأخذ بثوبه إذا قام، ولا يستفهمه عن مسألة فى طريقه حتى يبلغ إلى منزله، ولايكثر عليه عند ملله " .

يبدو أن هذا الكلام الذى ذكره الغزالى فى علاقة الطالب بأستاذه قد صارت تراثا، وتاريخا، بعيدا عن الممارسات الحاضرة، التى وصلت فيها العلاقة بين المعلم والتلميذ إلى مستوى لا ينم عن تقدير الطالب لأستاذه، ولايكشف عن الملامح التى يجب أن يتحلى، بها المعلم، حتى صار الاثنان كأنهما صنوان لا يختلفان.

٣. آداب المقرئ :

يقصد بالمقرئ: الشخص الذى يجلس إليه القارئ، وينهض بتعليم المتلقى كيفية القراءة، وهو قريب الشبه بشخصية (العرِّيف) فى مكاتب تحفيظ القرآن الكريم، وقد ذكر الغزالى الواجبات التى يجب أن يتحلى المقرئ بها فقال:

" يجلس جلسة الخشية، واستماع الأمر، وإنصات الفهم، وانتظار الرحمة، والإصغاء إلى المتشابه، وإشارة الوقف، وتعريف الإبتداء، وبيان الهمزة، وتعليم العدد، وتجويد الحرف، وفائدة الخاتم، والرفق بالبادئ، والسؤال عن المتعلم إذا غاب، والحث له إذا حضر، وترك الحديث، ويبدأ بالمتلقن يلقنه ما يصلى لنفسه، أو إذا احتاج أن يؤم غيره".

---

(١) أى يبتدئ المتعلم حديثه مع أستاذه ومعلمه بالسلام .

ومن الواضح أن عناية الغزالى موجهة بهذا الكلام إلى العلوم الدينية، ويأتى القرآن فى مقدمتها، التى يجب أن يكون الشخص الذى يعلم القراءة، معنيا بأحكام التلاوة، وتعليم الصبى كيف يقرأ، وهو يصلى لنفسه، أو وهو يؤم غيره .

٤. آداب القارئ :

جاءت هذه الآداب فى رسالة " الأدب فى الدين " موجزة، ذلك شأن أمثال الرسائل التى تخضع لمنهج تربوى، حيث يعد التركيز فيه أمرا مهما، خاصة إذا وجه إلى الفتيان، إذ أن الكلام الكثير ينسى بعضه بعضا، إذ قال الشيخ فى حق آداب القارئ ما يلى :

" يجلس بين يديه جلسة التواضع، وجمع الفهم، وخفض الرأس، والاستئذان قبل القراءة، ثم الإستعاذة والتسمية، والدعاء عند الفراغ " .

وتتصل هذه الآداب بما سبقها من حيث توجيه النصائح، وبيان الآداب التى تخص المقرئ (معلم القراءة)، والقارئ التلميذ الراغب فى التعلم .

٥. آداب معلم الصبيان :

يأتى حديث الغزالى فى هذه الرسالة فيما يخص آداب معلم الصبيان، مرتبطا – بدرجة كبيرة – بما كتبه فى رسالة " أيها الولد " تحت عنوان (ضرورة الشيخ) بمعنى الشروط التى يجب أن يتحلى المعلم بها ، كما يأتى كذلك مرتبطا – أيضا – بما سوف نعرض له، فيما يخص هذا الأمر فى كتابات أخرى، وعن هذه الآداب قال:

" يبدأ بصلاح نفسه فإن أعينهم إليه ناظرة، وآذانهم إليه مصغية، فما استحسنه فهو عندهم الحسن، وما استقبحه فهو عندهم القبيح، ويلزم الصمت فى جلسته، والشزر[1] فى نظره، ويكون معظم تأديبه بالرهبة، ولا يكثر الضرب

(١) الشزر : النظر بمؤخر العين، شأن الغاضب .

والتعذيب، ولا يحادثهم فيجترئون عليه، ولا يدعهم يتحدثون فينبسطون بين يديه، ولا يمازح بين أيديهم أحدا، ويتنزه عما يعطونـه، ويتـورع عما بين يديه يطرحونه، ويمنعهم من التحريش[1]، ويكفهم من التفتيش ، ويقبح عندهم الغيبة ، ويوحش عندهم الكذب والنميمة، ولا يسألهم عن أمر بيوتهم فيتثقلوه، ولا يكثر الطلب من أهلهم فيملوه، ويعلمهم الطهارة والصلاة، ويعرفهم ما يلحقهم من النجاسة " .

٦. آداب المحدث والكاتب والواعظ:

شُغل الغزالى بقضية المعلم والمتعلم، بدرجات ذوات أبعاد مختلفة، ففيما يتصل بالمعلم ذكر – فيما سبق – آداب العالم والمقرئ ومعلم الصبيان، وهنا يتحدث عن آداب المحدث، ثم عن آداب الكاتب والواعظ، وكل ذلك حسب ما قرر فى الرسالة التى نحن بصدد الحديث عنها .

ففى آداب المحدث التى نبه إليها، ذكر الصدق والحديث بالمشهور، والرواية عن الثقات، ويترك المناكير، ويعرض عما جرى بين السلف، ويحفظ نفسه من الخطأ والمداعبة، ويُقل المشاغبة، ويشكر النعمة، ويلزم التواضع، ولايغشى أبواب الأمراء فإن ذلك يُزرى بالعلماء .

كذلك نبه إلى آداب الكاتب مثل حسن الخط، وضبط اللفظ، وحسن المظهر، والتنزه عن الحرام، وحسن العشرة، وترك سائر ما يذم الإنسان به .

كما تحدث عن آداب الواعظ، وضرورة تركه للتكبر، ودوام الحياء من الله، وإظهار الحاجة إليه، وشهوة المنفعة للمستمع، والنظر إلى سائر المنصتين إليه بعين السلامة والرضا، وحسن الظن بهم، والعطف على المبتدئ، والاعتقاد بما يقول؛ لينتفع الإنسان به .

---

(١) أى الإغراء بين الناس .

٧. آداب طالب الحديث والمستمع :

يأتي الكلام هنا مرتبطا بما جاء، فى رسالة "أيها الولد"، وبمـا جـاء فـى "إحياء علوم الدين"، الذى سنعرض له آنفا، ذلك أن طالب الحديث لابد أن يلتـزم بكثير مـن الآداب، آداب المهنـة، وآداب الـتعلم، والآداب المرتبطـة بالعـالم أوالمحدث، تلك العلاقة التى شغل حجة الإسلام بها كثيراً، فطالب الحديث ينبغـى أن يكتب المشهور، ولا يكتب الغريب (من الأحاديث والأخبار والروايـات)، ولا يكتب المناكير، ويكتب عن الثقات، ولا تغلبه شهرة الحديث على قرينه، ويتجنـب الغيبة، وينصت السماع، ويلتزم الصمت بين محدثه، وأن يكون أميناً فى النقـل، ويأخذ الحكمة من منبعها الصحيح، وإذا مـا كـان مـستمعا، فعليـه أن يظهـر الخشوع، وأن يداوم على الخضوع، وأن يحسن الظن، واعتقـاد القـول، ودوام السكوت، والابتعاد عن التهم والهموم .

٨. آداب أخرى، منفردة أو جامعة:

لم تقتصر (رسالة الأدب فى الدين) على مجرد العلاقة بين العالم وطالب العلم؛ وإنما تنوعت أغراضها، وتعددت فوائـدها، وكثـرت النمـاذج الإنـسانية الموجهة إليها، وقد عرض الشيخ لمجموعة من الآداب التى ينبغى أن يتصف بها الناسك، والصوفى، والشريف، والإمـام، والخطيـب، والمـريض، والمعـزى، والمتصدق، والسائل، والغني والفقير، والمهـدى والمهـدى إليـه، والـصيرفى والصائغ، والرجل مع الزوجة، والمرأة مع زوجها والرجل مع أهله، والولد مـع والديه، إلى غير ذلك من النماذج البشرية، التى رسم لها الغزالى ملامح صورتها التى يحسن أن تتحلى بها .

كما تحدث عن مجموعة من المناسبات والأخلاق والعبادات، التى ينبغـى أن يخضع لها كثير من المؤمنين العارفين بالله حق المعرفة، وذلـك مثـل آداب

اعتزال الناس، وآداب النوم، والتهجد، والوضوء، ودخول المسجد، والاعتكاف، والصلاة، والقراءة، والدعاء، والعيد، واصطناع المعروف، والحج .

وتحدث عن مجموعة من الآداب الجامعة[1] التي يجدر بكل مؤمن أن يحرص عليها، وأن يلتزم بها، ثم ختم هذه الرسالة الشاملة بالدعاء والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى .

رابعاً: آداب المتعلم والمعلم، ودور الأسرة في التربية والتعليم من خلال كتاب "الإحياء" :

لم يقتصر الغزالي في حديثه عن التربية والتعليم، وبيان آداب المعلم والمتعلم، على ما جاء في رسالتيه السابق التعرض لهما؛ وإنما تواصل فكره في ذات القضايا، وما يتفرع منها إلى موسوعته الضخمة (إحياء علوم الدين) بخاصة، ففي كتاب العلم، جعل الباب الخامس منه تحت عنوان "في آداب المتعلم والمعلم"، تلك الآداب التي عرض لها بالشرح والتفسير، كثير من المعاصرين[2].

وعرض في الإحياء أيضا لتنشئة الأطفال وتهذيبهم، وتحسين أخلاقهم، وذلك في قسم مهم من هذه الموسوعة، اتخذ له عنوانا وهو كتاب "رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب"، وقد تحدث فيه عن أحد عشر موضوعاً تربوياً، جاءت كلها في صورة بيانات عن القضية الرئيسية، وجعل الموضوع العاشر ضمن كتاب رياضة النفس ... "بيان الطريق في رياضة الصبيان، في أول نشوئهم، ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم" .

---

(١) انظر كتاب (أبوحامد الغزالي) ص ٢٨٢.

(٢) الاخلاق عند الغزالي – د/ زكي مبارك، كتاب (أبوحامد الغزالي) – د/ حمزة النشرتي وآخران، طب القلوب للأستاذ محمود معوض، مشاهير الفكر التربوي عبر التاريخ / صالح باقارش و عبدالله الآنسي .

١. آداب المتعلم :

في حديث الغزالي عن آداب المتعلم ذكر أنها تنتظم في عشرة آداب، أو وظائف، يجب على المتعلم أن يلتزم بها :

الوظيفة الأولى: ذكرها فقال :"تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف، إذ العلم عبادة القلب وصلاة السر، وقُربة الباطن إلى الله تعالى، وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث، فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم، إلا بعد طهارته من خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف"[١].

وقد توسع في بيان هذه الوظيفة بمنهجه العقلي وأسلوبه الفلسفي القوى، الذي اعتمد فيه على الكتاب الكريم والسنة الشريفة .

الوظيفة الثانية : أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا، ويبعد عن الأهل والوطن، فإن العلائق شاغلة وصارفة – ﴿ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللاَّئِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾[٢]، وربما لا يتيسر ذلك بسهولة لبعض المتعلمين، ولكن ينبغي أن يكون حرصهم موجها إلى الاشتغال بالعلم قبل أي شئ آخر .

الوظيفة الثالثة: أن لا يتكبر على العلم، ولا يتآمر على المعلم، بل يلقي إليه زمام أمره بالكلية في كل تفصيل، ويذعن لنصحيته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق، وينبغي أن يتواضع لمعلمه، ويطلب الثواب

(١) الإحياء – جـ ١ ص ٥٥ وما يليها حيث يستكمل الموضوع .
(٢) الأحزاب ٤ .

والشرف بخدمته، وفى الأمر كلام كثير يؤكد فى مجموعه حتمية توقير العلمـــاء والأمراء .

الوظيفة الرابعة: قال الغزالى عن هذه الوظيفة فيما يخص المـتعلم : " أن يحترز الخائض فى العلم فى مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اخـتلاف النـاس، سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا، أو من علوم الآخرة"؛ ذلـك لأن وقـوع المتعلم فى هذه الاختلافات، خاصة فى أول طريقه يأتى بنتـائج غيـر محمـودة تخص مسيرته العلمية، وتوقيره لمعلمه .

الوظيفة الخامسة: " أن لا يدع طالب العلم فناً من العلـوم المحمـودة، ولا نوعاً من أنواعه، إلا وينظر فيه نظرا يطلع به على مقصده وغايته "، ذلـك التوجه الذى تمثله منظومة الثقافة فى العصر الحديث؛ فهى :"الأخذ من كل فـن بطرف" وهذه الثقافة فى عمومها تفيد المتعلم فـى اسـتكمال تكوينـه، واتـساع إدراكه، وكثرة معارفه، ثم يلى ذلك التخصص الدقيق لطالب العلم حيث ينبغى أن يحرص عليه، وأن يبرع فيه، وأن يشغل به نفسه فى المقام الأول .

الوظيفة السادسة: حدد الغزالى حقيقة هذه الوظيفة فى كلامـه الـذى سنورده – بعد قليل– تلك الحقيقة التى عناها وهـى إحـدى الطـرق التربويـة للتدريس، التى توسعت فيها البحوث المستحدثة، حيث ذكر :"أن لا يخوض فـى فن من فنون العلم دفعة، بل يراعى الترتيب ويبتدئ بالأهم، فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً، فالحزم أن يأخذ من كل شئ أحسنه" ويقصد فى المقـام الأول أشرف العلوم وهو علم الآخرة، تلك هى توجهات الشيخ فى الزمن، الـذى عاش فيه العالم الإسلامى صراعاً مريرا بين جيوش الشرق والغرب، الراغبة فى تمزيق الكيان المتحفز النشط فى بقعتنا العربية والإسلامية، والتى تلتف وتفكر فى

عقد التوحد، والالتفاف بمنبع القوة المنبعث من وحي السماء، الذى هل بأنواره على مكة والمدينة فى زمن البعث المحمدى .

الوظيفة السابعة: تقترب هذه الوظيفة فى بعض دلالتها من الكلام السابق، وما يتصل بتمام الرؤية فيه حول المناهج وطرق التدريس الحديثة، فقد اختار الشيخ للمتعلم ضمن الآداب المنوطة به :"أن لا يخوض فى فن حتى يستوفى الفن الذى قبله، فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً، وبعضها طريق إلى بعض، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج" .

الوظيفة الثامنة: المعنى فى هذه الوظيفة أن يعرف المتعلم السبب الذى يدرك به أشرف العلوم، وأن ذلك يراد به شيئان، أحدهما شرف الثمرة، والثانى وثاقة الدليل وقوته، وهذا ما نص عليه أبو حامد، ثم أكده ببيان أن أشرف العلوم : العلم بالله عز وجل، وملائكته وكتبه ورسله، والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم.

الوظيفة التاسعة: قال فى حق هذه الخاصية التى ينبغى على طالب العلم أن يلتزم بها :"أن يكون قصد المتعلم فى الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة، وفى المآل القرب من الله سبحانه، والترقى إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين، ولايقصد به الرياسة، والمال والجاه وممارة السفهاء ومباهاة الأقران"، ولا شك فى أن هدف الغزالى هو سمو المتعلم الباحث فى علم الآخرة، لكنه لم يقصد توجيه المتعلم إلى احتكار سائر العلوم .

الوظيفة العاشرة: ذكر فى هذه الوظيفة الأخيرة بحق المتعلم : "أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد، كيما يؤثر الرفيع القريب على البعيد، والمهم على غيره"، ومع ما فى العبارة من تعبير فلسفى، لكن مؤداها يستحث المتعلم على

تقديم الأهم فالمهم، وأن الهم الأول هو شأن المتعلم فى الدنيا والآخـرة ، بمعنـى حتمية الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة.

ولا تختلف هذه الآداب فى مضمونها عما ذكره الغزالـى فـى مواضـع أخرى، وإن كان جل اهتمامه بالحديث هنا عن آداب المتعلم، كان موجهـاً إلـى العلم الدينى أو علم الآخرة، وما يتوصل به إليه من سائر العلوم الأخرى .

٢- آداب المعلم (وظائف المرشد المعلم): [١]

وتتمثل تلك الآداب فى مجموعة من الوظائف هى :

الوظيفة الأولى: الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه .

ذكر الغزالى أن حال الإنسان مع علمه لا يختلف عن حال صـاحب المـال مع ماله من نواح متعددة، وفى بيان وظائف المعلم ذكر هـذا الإنـسان مرتبطـاً بدور آخر يسبق التعلم، وهو الإرشاد الذى يـأتى ضـروريا؛ لأهميـة التوجيـه للصبيان وطلاب العلم، ذلك الدور الذى اتجه إليه، وحرصت عليه أنظمة التعلـيم فى كثير من الدول تحت منظومة الإرشاد الأكاديمى، خاصة فى أنظمـة التعلـيم بالساعات المعتمدة، والاعتبارية، وما يندرج داخل منظوماتها العامة .

وفى بيان هذه الوظيفة ذكر أن الشفقة على المتعلمـين، ينبغـى أن تكـون شبيهة بشفقة الوالد على الأبناء . **قال رسول الله ﷺ** :"إنما أنا لكم مثـل الوالـد لولده[٢]"، وذلك "بأن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة، وهو أهم من إنقـاذ الوالـدين ولدهما من نار الدنيا، ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين، فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية، والمعلم سبب الحياة الباقية .

---

(١) الإحياء جـ ١ ص ٦١ وما بعدها .

(٢) رواه أبو داود والنسائى وابن ماجة وابن حبان من حديث أبى هريرة (هامش الإحياء).

الوظيفة الثانية: "أن يقتدى (أى المعلم) بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فلا يطلب على إيفاد العلم أجرا، ولا يقصد به جزاء ولا شكراً، بل يعلم لوجه الله تعالى، وطلبا للتقرب إليه، ولا يرى لنفسه منة عليهم، وإن كانت المنة لازمة عليهم، بل يرى الفضل لهم، إذ هذبوا قلوبهم؛ لأن تتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها " .

وتبقى رؤية الغزالى حول تعفف المعلم عن طلب أجر أو جزاء أو شكر على إفادته بعلمه، ونرى أن ذلك مرهون بإمكانات المعلم وقدراته من الناحية المالية، وذلك لأن عمله فى ظل قدراته التى تعينه على استكمال مقومات الحياة تجعله فى وضع أشرف وأنسب لأداء رسالته، لكن متطلبات الحياة قد ترغم المعلم على طلب الأجر، وعند ذلك لاحرج عليه مادامت مطلوباته المادية فى حدود العرف الصحيح المبنى على الرحمة والاعتدال.

وأذكر – ونحن بصدد هذه الوظيفة- أن واعظاً قد جاء إلى قرية مجاورة لبلدنا، وخطب الناس بفصاحة وبيان، يعجز عن الإتيان بمثله الكثيرون، لكن انطباعات الحاضرين فى نهاية الخطبة، التى قالها هذا الرجل كانت سيئة للغاية، إذ أنهى كلمته بطلب عطايا، أو صدقات لنفسه؛ لأنه قادم من بلد بعيد، ولذلك سقط من أنظارهم، بعد أن أعجبوا به أيما إعجاب، ولم تسفر مقولته عن قليل أو كثير من المال، فخرج منها خالى الوفاض .

الوظيفة الثالثة: "أن لا يدع من نصح المتعلم شيئا، وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها، والتشاغل بعلم خفى قبل الفراغ من الجلى، ثم ينبهه، على أن الغرض من طلب العلوم القرب من الله تعالى، دون الرياسة والمباهاة والمنافسة" .

والمعنى فيما سبق يتجه إلى حتمية إشباع رغبة المتعلم في تحصيل المعارف وإقتطاف النصائح، والتزام المعلم المنهج الفكري المرتب في عرضه للعلوم، مع التأكيد أن الهدف من بسط العلوم والمعارف هو القرب من الله دون الحرص على المجد الشخصي المجوف، والوجاهة الاجتماعية الفارغة .

الوظيفة الرابعة: قال عنها: إنها من دقائق صناعة التعليم، وكشف اللثام عنها فقال: "أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن، ولا يصرح، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ" .

والهدف واضح في حتمية استعمال الأسلوب الأمثل مع المتعلم من ناحية الزجر دون تشهير ومجاهرة، واستعمال الرحمة في العقوبة دون حرص على توبيخه .

الوظيفة الخامسة: ومحتواها :"أن المتكفل ببعض العلوم ينبغي ألا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراءه "، وبيان ذلك أن المعلم لا ينبغي عليه أن يقلل من شأن العلوم الأخرى عند تلميذه، بل يجب عليه أن يوسع للمتعلم طريق المعرفة، مع مراعاة ترقيه من رتبة إلى أخرى .

الوظيفة السادسة: وبيانها :"أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه، فلا يُلقى إليه ما لا يبلغه عقله، فينفره، أو يخبط عليه عقله" .

والمعنى أن يتحدث المعلم المرشد بالمستوى الذي يساير حالة المتعلم من كافة النواحي، أي أن يجعل المعلم كلامه وشرحه وبيانه مطابقاً لحال طالب العلم، وذلك ما نص عليه العلماء في تعريف البلاغة فقالوا : إنها مطابقة الكلام

لمقتضى الحال، ويتضح ذلك بصورة أكبر فى قول سيد البشرﷺ "نحـــن معاشـــر الأنبياء، أمرنا أن ننزل الناس منازلهم، ونكلمهم على قدر عقولهم"[1].

الوظيفة السابعة: قال عنها الشيخ :"إن المتعلم القاصر ينبغى أن يلقى إليه الجلى اللائق به، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقاً، وهو يدخره عنه، فإن ذلك يفتر رغبته فى الجلى ويشوش عليه قلبه ....." .

ويؤكد أهمية التوجيه بالنسبة للمتعلم، فإذا كان مستواه محدوداً فلا يليق أن يخوض بالحقائق التى يصعب عليه استنباطها، كما أنه إذا ما شغل المعلم بمهنته، فلا ينبغى على المعلم أن يعطله عنها ، إذ أنها قوام الخلق ودوام العيش للخاصـــة ومن فى حكمهم .

الوظيفة الثامنة: تعد هذه الوظيفة من أخطر المهام ، التى تناط العناية بها فى مقام المعلم مع تلميذه ، إذ ينبغى على المرشد أو المدرس أن يعمل بعلمه ، وألا يكذب قوله فعله؛ لأن العلم يدرك بالبصائر ، والعمل يدرك بالأبصار ، وأرباب الأبصار أكثر ، فإذا خالف العمل العلم منع الرشد، أى الإرشاد والتوجيه ، ومصداق ذلك قول الله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [2] .

إن تلك الوظائف تمثل جزءا هاما فى علاقة الأستاذ بتلاميذه ومدى التزامه بما يجب عليه نحو طلاب العلم حيث كانت أراء الغزالى موجهـــة إلـــى علـــوم الآخرة، وكذلك علوم الدنيا التى يستفيد الناس بها، وتتوقف مصالحهم عليها .

---

(١) روى فى جزء من حديث أبى بكر بن الشخير من حديث (عمر) أخصر منه، وعند أبـــى داود من حديث عائشة "أنزلوا الناس منازلهم" .

(٢) البقرة ٤٤ .

٣. دور الأسرة فى التربية:

تحدث الغزالى عن تربية الأطفال فى السنوات الأولى من أعمارهم، وهى ذات أهمية قصوى ؛ لما يترتب عليها من آثار مهمة فى التنشئة والتكوين ، ولعل هذه التبعة المسندة فى المقام الأول للوالدين اللذين يتحملان سائر الولاية على الطفل، منذ شهوره الأولى ، وجاء ذلك ــ كما سبق القول ــ فى كتاب "رياضة النفس ، وتهذيب الأخلاق، ومعالجة أمراض القلب "، الذى عرض فيه الشيخ لأحد عشر موضوعا، كلها فى صورة بيانات تحت العنوان الرئيسى، وجعل الموضوع العاشر؛ لبيان الطريق فى رياضة الصبيان فى أول نشوهم ، ووجه تأديبهم، وتحسين أخلاقهم[١] .

وقد افتتح هذه التوجيهات المنوطة بالوالدين، وسائر أفراد الأسرة ، فيما يخص الصبى فقال :" اعلم أن الطريق فى رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها ، والصبى أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما نقش، ومائل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عود الخير، وعلمه نشأ عليه ، وسعد فى الدنيا والآخرة ، وشاركه فى ثوابه أبواه ، وكل معلم له ومؤدب ، وإن عود الشر ، واهمل إهمال البهائم شقى ، وهلك ، وكان الوزر فى رقبة القيم عليه ، والوالى له " [٢].

إن الفقرة السابقة تحدد واجبات الوالدين فى تنشئة الصبيان ، وتأديبهم ، وتربيتهم ، وتحسين أخلاقهم ، ولذلك تأتى أهمية التنشئة الصحيحة بالنسبة للأطفال فى مقدمة المهام المكلف بها الوالدان ، وتتحقق صيانة الصغير بتأديبه وتهذيبه وتعليمه محاسن الأخلاق، وحفظه من قرناء السوء، وعدم تعويده على

---

(١)إحياء علوم الدين جــ ٣ ص ٦٩.
(٢) السابق ج٣ ص ٦٩، ص٧٠ .

التنعم ولا عن تحبيب الزينة ، وأسباب الرفاهية ، فيضيع بذلك عمره فى طلبها إذ كبر فيهلك هلاك الأبد، مع حتمية المراقبة واختيار المربية أو الحاضنة أو المرضعة على أساس الصلاح والتقوى ، كما ينبغى لولى الأمر أن يحسن مراقبة الصغير، وتوجيهه إلى الحياء والاحتشام، وترك بعض الأفعال التى لا تليق ، ويستعان بما لدى الطفل من حياء على تأديبه وتمييزه، وإبعاده عن شره الطعام، وتعويده على الالتزام بآدابه، وفى ذلك تفاصيل كثيرة حرص الغزالى على إثباتها وتأكيدها، كما نبه إلى أهمية اختيار الملابس المناسبة، فإن ما يناسب الصبى يختلف بالقطع عما عليه شأن النساء والشواذ، الذين لا يبالون بالذوق أو العرف العام ، ولا بد من إبعاد الصغير عن قرناء السوء وأصحاب الألفاظ الجارحة ، مع ضرورة الحرص على تأديب الصبى وغرس حب الصالحين فى نفسه .

ويراعى مكافأة الصغير عن كل فعل إيجابى ، والمسامحة معه عند الوقوع فى الخطأ لأول مرة ، وعدم التشدد فى العتاب واللوم؛ حرصا على اعتدال سلوكه ، ويراعى عند تربية الصغير التزام التقشف (المعتدل) فى المفرش والملبس والمطعم.

ويلزم حض الصغير على التحرك الإيجابى، والسلوك الحسن؛ حتى لا يغلب عليه الخمول والكسل.

ويجب على الوالدين مراعاة الصبيان، خاصة فى الأخلاق التى تتجلى فى معاملاتهم مع الآخرين، مثل تحبيب العطاء قبل الأخذ ، والالتزام بأدب الحديث، واجتناب رفقاء السوء .

وتحدث الغزالى فى كثير من هذه الأمور التى تبدو بسيطة ، ولكنها بلا شك فى غاية الأهمية ، قال:"ويمنع أن يبتدئ بالكلام ، ويُعوَّد ألا يتكلم إلا جوابا ، وبقدر السؤال ، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ، ممن هو أكبر منه سنا ،

وأن يقوم لمن فوقه ، ويوسع له المكان ، ويجلس بين يديه ، ويمنع من لغو الكلام وفحشه ، ومن اللعن والسب ، ومن مخالطة من يجرى على لسانه شئ من ذلك ....." .

وقال: " وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء ، وينبغى إذا ضربه المعلم ، ألا يكثر الصراخ والشغب ، ولا يستشفع بأحد ، بل يصبر ، ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال ، وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان ، وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعبا جميلا، يستريح إليه من تعب المكتب . بحيث لا يتعب فى اللعب ، فإن منع الصبى من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائما يميت قلبه ويبطل ذكاءه ، وينغص عليه العيش؛ حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منه رأسا ، وينبغى أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه، وكل من هو أكبر منه سنا من قريب وأجنبى ، وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم " [1] .

والمعنى واضح فيما سبق فإن إلمام حجة الإسلام بما يجب نحو تنشئة الصغير ظاهر فيما ذكرناه ، وواضح أيضا لمن يطالع مجموع كلامه، كما أن أهمية هذه الأمور تأتى من كونها موجهة إلى الوالدين وإلى كل مسئول عن تربية الطفل ، فإن هؤلاء الأشخاص يتحملون مسئولية التنشئة للصغير فى سنواته الأولى، قبل أن يتجاوز المرحلة المبكرة من عمره، منتقلا إلى مرحلة أخرى يتحمل التبعة فيها المعلمون المكلفون بالتدريس للصبيان وإرشادهم ، وتوجيههم إلى الطريق المستقيم .

---

(١) السابق جـ٣ ص ٧١ .

خامسا: خاتمة القول:

١- لقد أسهم الغزالى فى وضع الأسس للأدب الصوفى، الذى يأتى الخطاب فيه مبنيا على الفكر والتأمل، متخذا من تعانق الرؤية والتشكيل سبيلا للارتقاء بهذا الفن وتأصيله، ونأى الشيخ بنفسه كثيرا وبعيدا عن مزالق الألسنة فى التعبير عن تعميق الرؤية، وفلسفتها وتحوير الرمز، والإغراق فى الإبهام، وسائر المكونات الأخرى، الخاصة بفريق من المتصوفين فى الشرق والغرب ممن تعمقوا فى الفلسفة الإسلامية، والفكر التأملى الخاص بأعماق النفوس، وأسرار العلاقات الغيبية بين الله وسائر المخلوقات .

٢- لم يتضح منهجه حول تربية الصبيان فى تعليمهم من خلال رسالة واحدة، أو كتاب واحد، وإنما يكتمل مذهبه ، وتتضح رؤيته من مجموع كتاباته، كرسالة (أيها الولد) ، و(إحياء علوم الدين) ، وغيرها.

٣- يعد الغزالى من أسبق المهتمين بقضايا التربية والتعليم على نطاق واسع ، وفى ظلال المشروع الإسلامى للحياة ، ولاشك فى أن الأمور التى أثارها وبحثها بإفاضة، تمثل نظريات كبرى فى التربية والتعليم، ويمكن تطبيقها، والاستفادة منها ، وتحدث عنها بين الإيجاز مرة ، والتوسع مرة أخرى، وعرض لها فى كثير من مؤلفاته، وقدم الحجج والبراهين لإثبات منهجه فى هذه القضايا ، وهو فيلسوف مفكر ، وعالم باحث ، وأديب بارع ، وصوفى لا يُشق له غبار ، ذلك أن الرجل قد عاش لدينه وآرائه ، مدافعا عن الفكر الصحيح والمنهج العلمى القويم .

٤- يتجلى معنى التربية عنده فى أنها عملية التهيئة والتنمية والزيادة عند الصبيان ، وأنه قد شبه تلك الحالة بحالة الفلاح مع زراعاته ، فذكر فى رسالة (أيها الولد) هذا الأمر فقال : " ومعني التربية يشبه فعل الفلاح الذى يقلع الشوك ، ويخرج النباتات الأجنبية ، من بين الزرع، ليحسن نباته ، ويكمل ريعه"[1] .

- **وأن الغرض من التربية:** " التقرب إلى الله عز وجل ، دون الرياسة والمباهاة ، والتفكير فى أعلى الوظائف"[2] .

- وأن هذه التربية لا بد أن تكون فى خدمة الدين والحياة ، إذ أن رحمة الله قريب من المحسنين .

٥ - تحدث الغزالي فى كتاباته عن العلم ، وبيان قيمته ، وشرف العمل به، وأهمية النتائج المترتبة على ذلك ، وسبق أن تحدثنا بعض فوائده، وذلك فى المحاوره التى كانت بين حاتم الأصم ، وصاحبه شقيق البلخى .

٦ - أوجب على طالب العلم ضرورة الاعتماد على شيخ أو معلم ؛ لأن ذلك من شأنه أن يقلل من الخطأ ؛ وتحاشيا لما يتمخض عن القراءة فى كتاب مؤلف ، أو رسالة مخطوطة ، من تصحيف أو تحريف ، وذلك مثل حفظ القرآن ، إذ لا يمكن لطالب علم أن يتمكن من جودة الحفظ لكتاب الله ، ومعرفة أحكام التلاوة، دون أن يعتمد على شيخ أو عالم يستمع منه ، ويقتدى به ، ويصلح له أخطاءه فى أحكام القراءة أو التلاوة والتجويد .

---

(١) أبو حامد الغزالى ــ رسالة (أيها الولد) ص ٢٥٥ ، ومعنى يكمل ريعه : أى يقوى ويشتد وينضج .
(٢) مشاهير الفكر التربوى عبر التاريخ ص ١٧٥ .

٧ - يرى حجة الإسلام أبو حامد أنه لا قيمة للعلم إذا لم يتم العمل به ، وقد بنى جُلّ رسالة (أيها الولد) على هذا الموضوع، والآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية فى ذلك فوق الحصر .

٨ - نبه إلى واجبات المتعلم ، والآداب التى يجب عليه أن يتحلى بها، مع أستاذه بخاصة، وعليه أن يحرص على تحصيل العلم ، والعمل به ، وتوقير أستاذه بالتواضع معه ، وحسن معاملته .

٩ - تحدث فى أكثر من موضوع من تصانيفه وأقواله بواجبات المعلم ، والآداب التى يجب أن يتحلى بها؛ حتى يصلح للاقتداء به، والأخذ عنه فهو محل نظر ومتابعة من الآخرين ، الذين ينتظرون منه الشفقة، والرحمة ، والنصح ، والإرشاد ، والأخذ بيد المتعلمين إلى طريق العلم والمعرفة، وضرورة الإعراض عن حب الدنيا وحب الجاه والمنصب ، والابتعاد عن دوائر الحكم والنفوذ .

١٠ - أعطى الغزالى أهمية خاصة لتنشئة الأطفال وتعليمهم ، ففى مقام التنشئة، توجه بنصائحه وإرشاداته إلى أولياء أمر الطفل كالوالدين ، وشرح مذهبه فى تنشئتهم ، وتربيتهم ، ومراعاة قدراتهم وحسن معاملاتهم، كما توجه بإرشاداته أيضا إلى معلميه ، وقدم العديد من الطرق التربوية المرتبطة بالمرحلة العمرية للطفل ، على النحو التالى [١]:-

(أ) البدء بالتعلم فى الصغر.

(ب) مراعاة طبيعة المتعلم، والاهتمام بصحة النفس ، التى تتحقق من اعتدال مزاج البدن، عندما يتكامل الجسم والنفس .

(١) حسب ما أورده مؤلفا (مشاهير الفكر التربوى عبر التاريخ) ص ١٧٦ .

(ج) التدرج فى التعليم ، فلا يجوز الخوض فى العلم دفعة واحدة، بل التدرج ، والابتداء بالأهم.

(د) ضرورة الترويح واللعب ، لأن منع الصبى من اللعب وإرهاقه فى التعليم يميت قلبه ، ويبطل ذكاءه ، فاللعب يساعد على ترويض الجسم وتنمية العضلات ، ويدخل السرور ويريح الأعصاب .

١١ – لقد سبق الغزالى عصره بما كتبه عن التربية والتعلم ، وما تحدث فيه عن الأدب والدين والأخلاق ، وأنه لم يقتصر على ذلك ؛ وإنما امتدت معارفه إلى فهم متميز للحياة ، ومنهجه الصوفى الذى يخلو من هرطقة كثير من معاصريه ، وأنه قد تكلم فى الأخلاق والفضائل، وتوقى الرذائل بصورة لا يستغنى عنها المسلم فى حياته المعاصره ، ومن خلال علاقاته بربه ، وبالناس جميعا ، خاصة فى مجال الحقوق والواجبات، مما يجعلنا نؤكد فى نهاية هذه الدراسة حتمية المراجعة المستمرة، والدرس المستفيد لتوجيهات الغزالى، وأفكاره فى الأدب والتربية والتعلم والفلسفة والتصوف والأخلاق، ولذلك يعد من أبرز النوابغ فى تاريخ الإسلام .

أهم المصادر والمراجع

١ - **أبو حامد الغزالى** – حجة الإسلام – د / حمزة النشرتى ، وآخران .

٢- " **إحياء علوم الدين** " للغزالى – طبعة مصطفى الحلبى .

٣- **الأخلاق عند الغزالى** – د / زكى مبارك – طبعة دار الشعب .

٤- "**رسالة الأدب فى الدين**" – للغزالى– ضمن كتاب (أبو حامد الغزالى – حجة الإسلام).

٥- **رسالة " أيها الولد**"– للغزالى، تعليق/ أحمد فريد الرفاعى من كتاب (أبو حامد الغزالى).

٦- **كتاب "رياضة النفس**، وتهذيب الأخلاق ، ومعالجة أمراض القلب ". (إحياء علوم الدين جـ ٣ ص ٦٩)

٧- **سير ذاتية عربية** – مصطفى نبيل – مكتبة الأسرة ١٩٩٩م .

٨- **شخصيات تربوية** – محمد المعتصم مجذوب .

٩- **مجموعة رسائل الإمام الغزالى** – مراجعة وتحقيق إبراهيم أمين – المكتبة التوفيقية بالقاهرة .

١٠- **مشاهير الفكر التربوى عبر التاريخ** – صالح باقارش ، عبدالله الأنسى . مطبعة دار الحارثى بالطائف .

****

٢- ابن خُلدون وآراؤه فى العلم والتعلم

أولا: نبذة عن حياه ابن خلدون ومؤلفاته

نزحت أسرة ولى الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون من الأندلس، واستقر بها المقام فى تونس، التى ولد بها فى غُرَّة رمضان عام ٧٣٢ هـ (١٣٣٢م) وكان أبوه عالماً فقيهاً، ومشتغلاً بالعلوم الدينية واللغوية، وتضم عائلته كثيراً من العلماء والشعراء والساسة والقواد، وفى ظلال هذه البيئة المثقفة ابتدأ ولى الدين حياته بتلقى العلوم العربية عن والده.

وقد أصيبت الأسرة بمُلمَّة إذ مات كثير من أفرادها جراء الإصابة بمرض الطاعون وذلك عام ٧٤٩ هـ ، لكنها لم تلبث أن تماسكت، وصار لديها من الساسة والعلماء، ومنهم أبوه وأمه وكثير من شيوخه.

وابتدأ ابن خلدون تعلم القراءة، والكتابة والنحو والأدب والفقه عن والده، ثم واصل انكبابه على المعارف الدينية والعربية، وبدأ فى تلقى العلوم على غير والده فى البيئة التونسية، وكانت مدينة القيروان حاضرة من حواضر الثقافة العربية، وهى التى أنشأها القائد المظفر عقبة بن نافع سنة خمسين من الهجرة (٦٥٠م)، وأقيم المسجد الجامع فى وسعها، وإلى جواره دار الإمارة، كما أسهمت هذا المدينة فى تواصل المعارف والثقافات بين البلدان العربية فى الشمال الإفريقى مع الدولة العربية الرائدة فى الأندلس، وتواصل العلماء فى غرناطة مع نظرائهم فى فاس بالمغرب. واتسعت معارف ابن خلدون فقد درس مؤلفات ابن سينا وفخر الدين الرازى والطوسى وغيرهم.

لقد ابتدأ صاحبنا حياته مكباً على تلقى العلم، حريصاً على دراسة اللغة العربية، وكان يحب التفرد والمخالفة فى كل شئ.

وتزوج فى تونس، واستقرت حياته الاجتماعية بها، ولم ينقطع عن مجالسة العلماء والحكام، ولم تلبث الأعاصير إلا أن أحاطت به من كل جانب،

خاصة أن طموحه في تلقى العلوم، والعمل بالسياسة لم يقف عند حـدود معينـة، ولما تجاوزت الاضطرابات فى تونس حداً مقلقاً كان التفكير بالرحيل إلـى فـاس بالمغرب، والبحث عن حياة مستقره فى ظلال طموحاته التى لم يتخل عنهـا، إلا أن القلق الذى اشتمله لم يمكنه من استكمال طموحه العلمى خاصة أن الـسنوات الثمانى فى مستقره الجديد بالمغرب قد قضى منها عامين فى سجن فـاس، وقـد شغل فى هذه المرحلة من عمره باتمام كتابه "العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر" وكـان عمـره آنذاك خمسة وأربعين عاماً، وقدم لهذا السفر الضخم ببحث موسع عن العمـران، وذلك فيما عرف بالمقدمة وقد اشتهر الكتاب والمقدمة على كتاب آخر أتـم فيـه دقائق حياته وأطلق عليه اسم: "التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً"[1].

كما اتجهت همته إلى إعداد كتاب (المبسوط فى التاريخ) ذلـك أن الـصفة التى غَلَبَتْ على توجهاته هى التاريخ، وما يتصل به من بحوث علـم الاجتمـاع، وتميز بريادته لفن السيرة الذاتيه مع أن هذا الكتاب الأخيـر أقـل شـهرة مـن المقدمة، ومن كتاب العبر أيضاً، وذكر الراصدون لمراحل حياتـه أن تـصويره لتفصيلاتها كان مبيناً على الصراحة والصدق، مستفيداً فى كل ما كتب بمؤلفـات ابن سينا، وفخر الدين الرازى، والطوسى وغيرهم.

وقد التقى فى فاس مع عالم وأديب بارز من علماء الأندلس وشعرائه هـو لسان الدين بن الخطيب؛ وصولاً إلى ثقة كل واحد منهما فى الآخر والتأريخ لـه والتواصل معه.

وذكر لسان الدين بعض الحوادث فى حياة ابن خلدون، التى لم يكتب عنها سواه، إذ قال إنه أي ابن خلدون قد تزوج بجارية أسبانية تسمى (هند) وليس لهذا

---

[1] قدم ابن خلدون رحلته إلى الشرق على رحلته إلى الغرب، مع أن الواقع عكس ذلك.

الزواج تفصيلات في مدى علمنا بالكثير من الحياة الخلدونية، أما علاقة ابن خلدون بلسان الدين فقد انتهت تقريباً بوفاة هذا الثاني في عام ٧٧٦ هـ، إذ دفع حياته ثمناً للمنازعات السياسية، التي كان ابن خلدون قريباً منها ومنغمساً في الكثير من تفصيلاتها، فكان أن عاد إلى تونس وجمع شمل أسرته، وتفرغ للقراءة والكتابة، وابتعد عن العمل مع الأمراء والسلاطين، وقضى في تونس إبان هذا التوقيت ثمان سنوات، هدأت فيها نفسه واستقر إيمانه وفكر في أداء فريضة الحج فكان الرحيل إلى مصر سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٧م) وعمره اثنتان وخمسون سنة، وقضى فيها أربعة وعشرين عاماً إلى أن توفي في السادس والعشرين من رمضان عام ٨٠٨ هـ عن ستة وسبعين عاماً بضيعته في الفيوم، واستقر على النيل، واصهر في مصر بعد وفاة زوجته وبعض أبنائه في الإسكندرية، وجلس للتدريس بالجامع الأزهر، وعين أستاذاً في المدرسة القمحية بالفسطاط، وتقلد العديد من المناصب، وكان له جاه وشأن عظيم، وتولى منصب قاضي القضاة وتعرض لمحنه، ناجمة عن علاقته بالسلطان برقوق، خلال هذه المرحلة من حياته، والتقى بالقائد المغولي تيمور لنك[1] ولم تنعم حياته بالهدوء مع السلطان برقوق، كما أثارت علاقته بتيمورلنك القيل والقال، وقد عالج هذه القضية كثير من الكتاب القدماء والمحدثين.

واشتملت حياته بمصر ثلاث رحلات، كل واحدة منها تشكل منعطفاً بارزاً في حياته.

---

(١) تيمورلنك: فاتح مغولي غزا من عاصمة سمرقند في المنطقة المعروفة حالياً باسم تركستان الروسية، واستولى على دلهي، وهزم العثمانيين عد أنقرة، وأسر سلطانهم (بايازيد) وقد افتتح حلب، وفشل جيش فرج بن برقوق في الدفاع عنها فأسقطها هذا القائد المغولي لسلطانه عند أنقرة، وقد حاول ابن خلدون استمالة تيمو لنك، واطلق عليه لقب الأسير الأعظم، وسأل ابن خلدون عن معنى الشهيد، وقد التقيا في دمشق ويقيت العلاقة بينهما غير واضحة المعالم آنذاك.

رحلاته إلى الحج وإلى فلسطين وإلى دمشق مع السلطان فرج بن السلطان برقوق؛ لمواجهة تيمور لنك ويعد تقي الدين المقريزى من معاصريه، ومعه ابن حجر العسقلانى وابن تغرى بردى وقد عكف فى مصر على تنقيح كتابه (العبر)، ودعا إلى حرية الفكر، ووضع كثيراً من القواعد المؤصلة لعلم الاجتماع، وتولى فى آخر حياته قضاء المالكية بمصر باعتبار أنه فقيه متميز وباحث مجدد وبقي فيها مرتدياً زى المغاربة، وله ضيعه فى الفيوم، وواصل بحوثه فى قضايا المجتمع وسائر أمور الحياة.

ثانياً: التعريف بالمقدمة

لقد كتب ابن خلدون هذه المقدمة فى تلمسان بالمغرب، وأتم الكتاب بعد عودته إلى تونس، وقبل الرحيل إلى القاهرة، وجعل هذه المقدمة موجهة لبيان علم التاريخ، وتحقيق مذاهبه، والإلماع بمغالط المؤرخين[١].

واحتوت المقدمة وأصل الكتاب (العبر...) ثلاثة كتب على أن تكون المقدمة هى الكتاب الأول، والتى بحث فيها العمران، وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاشر والصنائع والعلوم، وما لذلك من العلل والأسباب، وهذا هو نص كلامه كما جاء فى بَدْء المقدمة، ثم أتم هذا المشروع البحثى التأليفى فى بقية الكتاب.

وبَحَثَ موضوعاته – حسب خطته– فى كتابين الأول فى: " أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ مبدأ الخليقة إلى هذا العهد، وفيه الإلماع ببعض من عاصرهم من الأمم المشاهير ودولهم، مثل النبط والسيريانيين، والفرس، وبنى إسرائيل، والقبط، واليونان والروم والترك والإفرنجة" [٢].

---

(١)انظر مقدمة ابن خلدون طبع دار الشعب ص ٩.

(٢) السابق (الكتاب ورقم الصفحة)

فهذا التوسع فى البحث هو الطبيعة التأليفية التى سار فــى دروبهــا ابــن خلدون فى علوم الاجتماع والتاريخ، قريباً من المنهج التوسعى الــشامل، الــذى انتهجه أبو حامد الغزالي في التصوف وغيره من البحوث العلمية الجــادة، أمــا الجزء الثاني من كتاب العبر، فهو الذي عبر عنه في مقدمــة المقدمــة بالكتــاب الثالث وهو: "في أخبار البربر ومواليهم..." وذكر أوليتهم وأجيالهم، وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول [١].

وذكر الرجل أن أصل هذين الكتابين (الثانى والثالث) هو ما أسماه:"كتــاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم مــن ذوي السلطان الأكبر". وهو مطبوع فى سبعة مجلدات.

وهكذا يسير البحث فى هذه الموضوعات، التى قدمها ابــن خلــدون فــى المقدمة، وهى التى جعلها الكتاب الأول، وفى الكتابين الثانى والثالث وهما اللذان ضمنهما سفره الضخم (العبر).

وتؤكد بداية المقدمة، وهى الكتاب الأول كما ذكرنا، توسع ابن خلدون فــى البحث والتأليف فى التاريخ والاجتماع، وما يتصل بهما، أو يقترب منهما بصورة تقدم هذا الرجل بصفته واحداً من الباحثين العرب القدماء، الذين ينــدر وجــودهم فى مسيرة التاريخ، وتكشف هذه الكتابات عن أبعاد قدراته فى الحصيلة اللغويــة، والثروة المعرفية، فقد كان رحمه الله – مشغولاً بقضايا التاريخ، التــى تَعْــرِض لأحوال الأمم الثلاثة، وهى العرب والعجم والبربــر ممــا جعــل كثيــراً مــن المعاصرين يشعرون بمزيد من الضالّة لما قدموه للبشرية من قضايا اجتماعيــة، وثقافات متنوعة.

---

(١) السابق ص ٩ ، ١٠.

وجاء حديث ابن خلدون فى الكتاب الأول وهو المقدمة في ستة أبواب ذكرها في بداية حديثه، وذلك قبل أن يشرع في بحث ما أراد استقصاءه في الكتاب الأول، وللرجل دراسة واضحة في التأليف فقد تحدث عن فن التاريخ وفحول المؤرخين في الإسلام وأخبار الأيام وتواريخ الأمم والدول في العالم، وانتقد مناهج من سبقوه في علوم الأخبار، وذكر بعض المؤلفات السابقة على كتبه، وبين مشتملات الأبواب الستة للكتاب الأول وهو المقدمة، ثم حددها على النحو التالي قال: "الأول في العمران البشرى على الجملة، وفي قسط العمران من الأرض، والثاني في العمران البدوى وذكر القبائل والأمم الوحشية، والثالث: "في الدول والخلافة والملك، وذكر المراتب السلطانية، والرابع: في العمران الحضرى والبلدان والأمصار، والخامس في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه، والسادس في العلوم واكتسابها وتعلمها.

ومن الملاحظ في عرض ابن خلدون لموضوعات هذا الكتاب، المقدمة، أن الأسلوب فيه قد تغير عما كان عليه في بدء الكلام، فإذا كان قد سبق البيان بحرصه على السجع وتنميق العبارة فإنه في بحث الموضوعات قد انتحى نحواً متميزاً، تجرد فيه من التنميق والتزويق فحرص على الاستقصاء ومراعاة الإبانة والإيضاح مع غلبة الالتزام في العرض والبيان بصورة تختلف كثيراً عما درج عليه المؤرخون في عصره وقبل عصره ففي بدء الباب الأول من هذه المقدمة وهو في العمران البشرى فذكر أنه فيه مقدمات، وابتدأ البحث عنها بقوله في الأولى منها قال: "الأولى في أن الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: " الإنسان مدنى بالطبع" أى لابد له من الاجتماع الذى هو المدنية في اصطلاحهم وهو معنى العمران، وبيانه أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان

وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله". [1]

وجاء الباب السادس والأخير بهذه المقدمة: "في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه، وما يعرض فى ذلك كله من الأحوال وفيه مقدمة ولواحق.

وقد ذكر ابن خلدون تفصيلات هذا الباب فى واحد وستين فصلاً جعل أولها فى الفكر الإنسانى وآخرها فى أشعار العرب وأهل الأمصار، وبحث كل ذلك وما عداه من صفحات هذا القسم فى توسع وشمول، ينم عن قدره الرجل فى الاستقصاء والتعقيب بصورة فريدة ومتميزة.

ثالثاً: بعض آراء ابن خلدون في العلم والتعلُّم والتربية

لقد جعل ابن خلدون أكثر فصول الباب السادس من المقدمة عن كثير من الأمور والمسائل التى تعالج قضايا العلم والتعلم والتأليف والتربية، واختلاف المذاهب فى ذلك بين إقليم وآخر، كما عرض للعديد من قواعد الشعر والنثر، وحتمية الرحلة فى طلب العلم، وبَحَثَ كل ذلك بإفاضة وتوسع، وقدرة على البسط والاستدلال مما يؤكد قيمته وتميزه فى هذه المجالات البحثية، وفى سائر العلوم البشرية، فضلاً عن جهوده فى تأسيس علم الاجتماع، وتوسعه فى التاريخ وأحوال الشعوب، ولسوف نختار من بين بحوثه عدداً من القضايا التى تكشف عن رؤيتة وأبعادها العلمية والتعليمية من خلال هذه المقدمة الفريدة، ومن ذلك:

١- العلم والتعليم طبيعة فى العمران البشرى.

لقد عقد ابن خلدون فصلاً فى بحث هذا الموضوع تحت العنوان ذاته، وقدم له بفصل آخر شديد الارتباط به اتخذ عنواناً له وهو: الإنسان جاهل بالذات عالم بالمكسب، وفى حديثه عن هذا الطرح البيانى ذكر أن الإنسان من جنس

---

[1] السابق ص ٣٩.

الحيوانات، وأن الله تعالى ميزه عنها بالفكر الذى جُعل ليوقع بـه أفعالـه علـى انتظام، وهو العقل التنفيذى، أو يفيض به العلم بالآراء والمصالح والمفاسـد مـن أبناء جنسه، وهو العقل التجريبى، أو يحصل به فى تصور الموجـودات غائبـاً وشاهداً على ما هى عليه وهو العقل النظرى، وهذا الفكر إنما يحصل لـه بعـد كمال الحيوانية فيه، ويبدأ من التمييز فهو قبل التمييز خلو مـن العلـم بالجملـة، معدود من الحيوانات، لاحق بمبدأ فى التكوين من النطفة والعلقة والمضغة ومـا حصل له بعد ذلك فهو بما جعل الله له من مدارك الحِسّ والأفئـدة التـى هـى الفكر، قال تعالى فى الامتنان علينا: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ [1]

وقد تابع الإنسان من خلال هذه الأحول الثلاثة للعقل البشرى، ثـم اسـتند إلـى الآيات الأولى التى ابتدأ بها نزول الوحى على النبى ﴿ﷺ﴾ وهى قولـه تعـالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [2].

والمعنى أن الله سبحانه وتعالى أكسب الإنسان من العلم ما لم يكن حاصلاً له بعد أن كان علقة ومضغة، وهكذا أكد الرجل ما اعتور الإنـسان فـى سـائر أحواله من الجهل الذاتى والعلم الكسبى، وأكد فى الفـصل الـذى نحـن بـصدد الحديث عنه وهو أن العلم والتعليم طبيعى فى العمران البشرى، ذلك أن الإنـسان قد تميز على الحيوانات بالفكر، الذى يهتدى به، لتحصيل معاشه والتعاون عليـه مع أبناء جنسه، وقبول ما جاءت به الأنبياء عن الله تعالى، مؤكداً فى هذا الطرح العلمى المستند للحجة أن الإنسان مفكر دائم التفكير، لا يفتر عن ذلك طرفه عين.

---

[1] من الآية ٢٣ من سورة تبارك (مقدمة ابن خلدون) ص ٣٩٧.
[2] العلق من ١: ٥.

ومن خلال هذا الفكر تنشأ بقية العلوم ومختلف الصنائع مع مراعاة هذا التميز أيضاً حيث يسعى الإنسان إلى تحصيل ما ليس عنده من الإدراكات، فيرجع إلى من سبقه بعلم، أو زاد عليه بمعرفه أو إدراك، أو أخذه ممن تقدمه من الأنبياء، الذين يبلغونه أى يبلغون الفكر والعلم لمن تلقاه، أو على استعداد لذلك، وقد خلص الرجل فى بحثه لهذا الطرح إلى تأكيد يميز الإنسان بالفكر، وحرصه على العلم والتعلم، الذى هو طبيعى فى جملة البشر.

٢- علوم اللسان العربى

تحدث ابن خلدون عن علوم اللسان العربى وجعل أركانها الأربعة هى اللغة والنحو والبيان والأدب، وذكر أن معرفتها ضرورية على أهل الشريعة، ذلك أن مآخذ الأحكام الشريعة، كلها من الكتاب والسنة هى بلغة العرب، ونقلها من الصحابة والتابعين عرب، ونوّه فى بيانه لهذا الموضوع أن من حق علم اللغة التقدم كما أثبته فى بداية هذا الفصل، ولكنه فضّل التوسع فى بيان علم النحو؛ لاعتبارات متعددة، ذلك أن به تتحقق تمام الإفادة بالكلام، وفضّل أن يبدأ بالحديث عن نشأة علم النحو؛ وتحديد أصوله، وهو الأهم والمقدم لضبط اللسان العربى، وأشار إلى مخترعه وهو أبو الأسود الدؤلى بإذن من الأمام على كرم الله وجهه، وذكر أن الناس قد كتبت فى أصوله ونشأته وصولاً إلى الخليل بن أحمد الفراهيدى، هذا الذى أخذ عنه سيبويه فكمّل تفاريع صناعة النحو، واستكثر من أدلتها وشواهدها، ووضع فيها كتابه المشهور ويسمي «الكتاب» والذي صار به إماماً لكل من كتب فى هذه الصناعة من بعده، وحدث الخلاف بين أهلها فى الكوفة والبصرة المَصْرين القديمين للعرب، إلى أن جاء المتأخرون بمذاهبهم فى الإيجاز فاختصروا كثيراً من ذلك الطول، مع استيعابهم لجميع ما نُقل، واستطرد الرجل فى الحديث عن المؤلفات فى هذا العلم بما يدل عن إحاطته

بالمؤلفات والمختصرات بين علماء المشرق والمغرب، وتحدث عن علم اللغة فقال: " هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية، وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب، واستنبطت القوانين لحفظها كما قلناه، ثم استمر ذلك الفساد بملابسه العجم ومخالطتهم"[1] وانتقل إلى أهمية التأليف في هذا العلم فذكر من بين المؤلفات كتاب العين للفراهيدي والصحاح للجوهري والمحكم لابن سيدة (الأندلسي) وأساس البلاغة للزمخشري وغيرها مما أفاض فيه وتوسع في شرحه وبيانه.

وانتقل إلى إيضاح علم البيان إذ ذكر أنه علم حادث في الملة بعد علم العربية واللغة، وهو من العلوم اللسانية؛ لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده، ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني، وحدد مسمى هذا العلم وهو البلاغة ذلك أن القدماء لم يتوقفوا عن التأليف في هذا العلم مثل كتاب العمدة لابن رشيق، وأن الثمار المرجوة إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن، واختار تفسيراً بلاغياً متقدماً ومرتبطاً بعلم البلاغة وهو تفسير الكشاف للزمخشري، وشرح الرجل منهج صاحبه فيه فقال: "وتتبع أي القرآن بإحكام هذا الفن بما يبدى البعض من إعجازه، فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير، لولا أنه يؤيد عقائد أهل السنة مع وفور بضاعته من البلاغة"[2].

ولعل الرجل يقصد مذهب المعتزلة وبعض الفرق من علماء الكلام، وكأنه يوصي المطلع على الكشاف أن يتحصن بالعقائد الثابتة عند أهل السنة، فمن شارك في معرفة هذا الفن بعض المشاركة صارت لديه الملكة التي يرد بها على ما جاء فيه سواء أكان المردود عليه بدعة أو رؤية شبه ضارة فإنه يصير بمأمن

---

(1) المقدمة ص ٥١٦.
(2) السابق ص ٥٢١.

من خلال النظر فى هذا الكتاب، وحتى يتحقق له الظفر بشئ من الإعجاز مع السلامة من البدع والأهواء.

وانتقل إلى العلم الرابع والأخير من علوم اللسان العربى، وهو علم الأدب مع أن هذا العلم فى أساسه هو إلهام وفن لكنه حدد هويته عند أهل اللسان وذكرها فقال: " وهى الإجادة فى فنى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر عالى الطبقة، وسجع متساو فى الإجادة، ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك، متفرقة يستقرى منها الناظر فى الغالب معظم قوانين العربية، مع ذكر بعض من أيام العرب، يفهم به ما يقع فى أشعارهم منها، وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة" [1].

والملاحظ فى هذا العرض أن ابن خلدون لم يقتصر فى بيان علم الأدب على مجرد الإبداع الشعرى والنثرى، ولكنه أضاف إليهما سائر ما أبدعه القدماء فى علوم النقد والتراجم الأدبية، ولهم فى ذلك الكثير من المؤلفات التى قدموها للعربية من خلال علم الأدب، ولم يكتف بذلك، وإنما قدم تعريفاً آخر للأدب رآه المتقدمون عليه أو المعاصرون له وهو: " الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف، يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية، من حيث متونها فقط، وهى القرآن والحديث، إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم فى كلام العرب" [2] وربط الرجل بين الأدب والغناء الذى رآه تابعاً للشعر، واختار فى هذا الشأن كتاب الأغانى لأبى فرج الأصبهانى وأثنى على هذا الكتاب.

---

(١) السابق ص ٥٢١.
(٢) السابق ص ٥٢٢.

وقد سار ابن خلدون في بيان هذه العلوم، خاضعاً في عرضه للنهج التاريخي الذي غلب على منهجه في التأليف، كما اتضح مذهبه الاستطرادي الشامل تعبيراً عن منهج التأليف في زمانه.

٣- العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها

إن ظاهر هذا العنوان يشير إلى ما يمكن احتماله من المعاني في حتمية تفرغ العلماء لقضايا العلوم فهي ذات خصائص عقلية، ويترتب عليها النظر والغوص عن المعاني وما شابه ذلك، ولأن السياسة – وهي القيادة على كافة المستويات – ذات دروب ومضامين تحتم على متعاطيها أن يحسن صناعتها وفهم مسالكها، مع أنها تحتوي علوماً مدروسة لابد من تعلمها، وإن كانت السمة الغالبة عليها أنها من شواغل الدنيا، لكن ابن خلدون اقتحم هذا الموضوع، وعرضه عرضاً مختلفاً، وسلك في التعامل معه منطقاً فلسفياً عقلانياً ارتضى فيه أن يتجه العلماء في بحوثهم اتجاهات موضوعية، تختلف عما تتطلبه السياسة بمذاهبها المختلفة.

وقد ذكر الأسباب لذلك – أي أسباب وجوب ابتعاد العلماء عن السياسة ومذاهبها فذكر: "أنهم معتادون النظر الفكري، والغوص عن المعاني، وانتزاعها من المحسوسات، وتجريدها في الذهن أموراً كلية عامة؛ ليحكم بأمر العموم لا بخصوص مادة ولا شخص ولا جيل ولا أمة ولا صنف من الناس، يطبقون من بعد ذلك الكلي على الخارجيات، وأيضاً يقيسون الأمور على أشباهها وأمثالها بما اعتادوه من القياس الفقهي فلا تزال أحكامهم وأنظارهم كلها في الذهن، ولا تصير إلى المطابقة إلا بعد الفراغ من البحث والنظر"[1] وقد مثل لذلك بالأحكام الشرعية فاعتبرها فروعاً عما حفظ من أدلة الكتاب والسنة، وذكر احتياج

---

[1] السابق ص ٥٠٩.

صاحب السياسة إلى مراعاة ما فى الخارج وما يلحقها من الأحوال، ويتبعها فإنها خفية على أن الشبه قائم فى بعض أمور من ناحية تعاطى العلوم وتفهم السياسة.

ويعود ليقرر اتجاه العلماء إلى السياسة إذ ذكر أنهم إذا نظروا إلى السياسة وسلطوا عليها انظارهم، وطرق استدلالاتهم العلمية، فعند ذلك يمكن أن يقعوا فى الغلط، ولا يصلوا إلى الصواب وذكر فى هذا الأمر شأن الفقهاء من الغوص على المعانى. واتباع القياس والمحاكاة، وهذا الشأن علمى بحث، ولا يتمشى مع علم السياسة فى عصر ابن خلدون بمعنى حتمية ضبط العلوم، وطرق الاستدلال والبحث عن المعانى.

إذن صناعة العلوم كالمنطق مثلاً غير مأمونة الغلط، لكثرة ما فيها من الانتزاع وبعدها عن المحسوس.

وقد تجلت فلسفة ابن خلدون وطرقه فى العرض والتقديم من خلال هذا البيان المتشابك بين المعقولات والمحسوسات، ذلك المنهج الذى يتحصن العلماء به ويتنافى أو يتباعد عن السياسة ومذاهبها.

٤- اختلاف طرق تعليم الوِلْدان فى الأمصار الإسلامية.

تحدث ابن خلدون فى فصل بالباب السادس من مقدمته عن تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية.

ومن الملاحظ فى حديثة عن هذه القضية أنه يحرص على الاستقصاء والتجديد فى كل ما يطرحه من آراء، خاصة قضايا التعلم والتعليم والتربية؛ موازناً بين إقليم وآخر فى البلدان التى تابع طرق التدريس بها، ولعل هذا المسلك يقدم بعض معالم التوجه التربوى الذى كان نتيجة الرجل فى القرن السابع عشر الهجرى بالأمصار والبلدان التى عاش فيها، وتنقل بين ربوعها، وقد كان معظم انشغاله بتعلم الولدان وتعليمهم للقرآن الكريم، ثم يأتى بعده الحديث النبوى، وتعلم الكتابة وسائر العلوم البسيطة الأخرى، التى تُقَدَّم للولدان قبل أن يصلوا إلى مرحلة الشباب وقد ابتدأ الرجل

هذا الفصل فقال: "اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين، أخذ به أهل الملة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لم يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان، وعقائد من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث".

وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعدُ من الملكات، وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخاً، وهو أصل لما بعده؛ لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات، وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ما يبنى عليه.

واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات"[1].

وتحدث عن الطرق المختلفة للتعليم في أربعة من الأمصار الإسلامية، وابتدأ بأهل المغرب فقد عاش مدة زمنية بين ربوعهم، وتابع مذاهبهم في تعليم القرآن، دون أن يذكر القراءة القرآنية التي يتعلمون عليها، مع أنهم في مدى علمنا يلتزمون بالحفظ والتعلم برواية ورش عن نافع ولازال هذا المنهج ديدنهم حتى اليوم، كما تعرفت على ذلك بنفسي من خلال سفري إلى هذه البلدان، وكان ابن خلدون معنياً بإيضاح الرسم الذي تعلموا القرآن من خلاله ويقصد بذلك طريقة الخط التي يكتبون ويقرؤون بها، ولذلك كتب يقول: "فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائلة، واختلاف حملة القرآن فيه لا يخلطون ذلك بسواه في شئ من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب، إلى أن يحرق فيه أو ينقطع دونه فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعاً عن العلم بالجملة"[2].

---

[1] السابق ص ٥٠٥، ٥٠٦.
[2] السابق ص ٥٠٨، ٥٠٩.

وذكر أن هذه الطريقة تشمل قرى البربر وهى أمم المغرب، حتى يصل الولدان إلى الشبيبة. ويصير الأمر علي هذا المنهج إلي إكمال حفظ القرآن.

وانتقل إلي الحديث عن مذهب أهل الأندلس في تعليم القرآن والكتابة، لكنهم يضيفون إلى تعلم القرآن فى مرحلة الصغر رواية الشعر والترسل، وأخذهم بقوانين العربية وحفظها، وتجويد الخط والكتابة، وشدد فى قوله بعنايه أهل هذه البلاد بالخط أكثر من غيرهم، إلى أن يخرج الصغير إلى مرحلة الشباب.

وانتقل إلى أهل افريقيا ولم يحدد المقصود منهم فقد كانت كلمة أفريقيا تطلق على بلدان الشمال الإفريقى، لكن إشارة الرجل إلى أهل المغرب تجعل المراد من أهل أفريقيا يمتد إلى تونس والجزائر وبعض الأمصار من هذه القارة السوداء، وقد عاش ابن خلدون فى معظم هذه البلاد، وتنقل بين ربوعها وتعرف على طرق التعلم بها، ولذا فهو يقول: «وأما أهل أفريقيا فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب، ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها إلا أن عنايتهم بالقرآن، واستظهار الولدان إياه، ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه، وعنايتهم بالخط تبعاً لذلك" [1].

واعتبر أن هذه الطريقة قريبة إلى طريقة أهل الأندلس، ولأن التواصل بين أهل الأندلس وأهل تونس كان كبيراً وممتداً، ثم انتقل إلى أهل المشرق فتحدث عن عنايتهم بدراسة القرآن، وتعلمهم له وكذلك معرفة الخط فقال: « وأما أهل المشرق فيخلطون فى التعليم كذلك على ما يبلغنا، ولا أدرى بمدى عنايتهم منها، والذى ينقل لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه فى زمن الشبيبة، ولا يخلطون بتعليم الخط بل تعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراده كما

---

[1] السابق ص ٥٠٦.

يتعلم سائر الصنائع»[1] وانتقل من عرض طرق أهل هذه الأمصار إلى نقص هذه الأمور بما يكشف عن سعة إدراكه واستيعابه، وتنوع ثقافاته ومعارفه، ولم يكتف بإيراد رأيه، وإنما عرض لأراء بعض العلماء على عصره مثل إيراده لما ذهب إليه القاضى أبو بكر بن العربى فى انتقاد تعلم الولدان للقرآن الكريم هذا الذى صب جمّ غضبه، على غفلة أهل البلاد فى تعليم الصبى لكتاب الله دون أن يفهم منه شيئاً، ويمتد ذلك إلى تعليم أصول الدين وأصول الفقه والجدل والحديث وعلومه، دون أن يكون على استعداد لقبول ذلك والتجاوب معه.

وتعطى مرئيات ابن خلدون فى هذه القضيه انطباعاً متسعاً لما يتميز به من انتقال طرق التعليم، وكأن الرجل كان متقدماً على عصره مما يجعل من مرئياته أساساً قوياً فى حتمية التواصل بين الماضي والحاضر.

٥- الشدة على المتعلمين مضرة بهم

عرض ابن خلدون لقضية تربوية شديدة الأهمية، ذلك لأنها تعرض لبعض أساليب التعامل مع المتعلمين، والذين يكونون فى غالب الأحوال صغاراً لا يُقدّر الكثير منهم أهمية التعلم، وضرورة الحرص على التعليم، والمقصود من ذلك بيان حكم الشدة مع المتعلمين، وأنها كما ذكر الرجل مضرة بهم لاعتبارات كثيرة، إذ أن إرهاف الحد فى التعليم مضر بالمتعلم، لا سيما مع الصغار، واعتبر أن المبالغة فى التعاطف وما يمكن أن يكون تدليلاً للصغار أو للصغير من سوء الملكة، كما تعد الشدة أو القهر غير مرغوبة، وهذا مدعاة للكسل، وحَمْل للصغير على الكذب قال: "ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين، أو المماليك أو الخدم سطا به القهر، وضيّق على النفس فى انبساطها وذهب بنشاطها، ودعاه إلى الكسل، وحمل على الكذب والخُبْث وهو التظاهر بغير ما فى

---

[1] السابق صـ ٥٠٧.

ضميره؛ خوفاً من انبساط الأيدى بالقهر عليه، وعلمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة وخُلقاً"[1].

وقد أفاض ابن خلدون فى بيان مضار الشدة، وذكر أن بها تفسد معانى الإنسانية من حيث الاجتماع والتمرن، كما يتحقق بها كسل النفس عن اكتساب الفضائل، وأوجب على المعلم ألا يستبد فى التأديب، ولكنه كان حريصاً على إثبات مضار الشدة، لكنه يقبل قَدْراً من التأديب بالضرب البسيط، الذى تتحقق به مصلحة الصغير، وحدد ذلك بألا يزيد الضرب عند الحاجة إليه على ثلاثة أسواط، وقد رجع إلى بعض المؤلفات التربوية فى هذا الشأن، ومن كلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى هذا الصدد: " من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله"، تأكيداً أو حِرْصاً على صون النفس من مذلة التأديب، وعلماً بأن المقدار الذى عينه للوصول إلى أقصى درجات الضرب، انطلاقاً من العلم بمصلحة الصغير ونقل خطاباً تربوياً ووصية أبوية للرشيد خاطب بها معلم ولده محمد الأمين.

فقال: "يا أحمر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصيِّر يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقرأه القرآن وعرفه الأخبار، وروه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه ورَفْع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها، ومن غير أن تحزنه فتميت ذهنه، ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه، وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة"[2].

---

[1] السابق ص ٥٠٨.
[2] السابق ص ٥٠٨، ٥٠٩.

ومن الملاحظ فى هذه الوصية أنها جاءت من الرشيد بوصفه أبـاً خاطـب بها – بالتقدير والإجلال– معلّمَ ولده، وهى قطعه أدبية تربوية مركـزة ومفيـدة؛ لأنه صاحب تجارب وقدرات على التوجيه والنصح والإرشاد.

وقد حرص ابن خلدون فى هذه القضية أن يدعم رأيه بالآخرين وهم هنـا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهارون الرشيد طيب الله ثراه، ومحمد بن أبى زيد، من خلال كتابه الذى ألفه فى حكم المعلمين و المتعلمـين، وكأنـه أراد أن يدعم رأيه فى هذا الموضوع بماله فيه من خبرة ودراية؛ لأنه فى أساسـه شـديد الحساسية، لتعلقه بطرق التعليم للأطفال الصغار.

٦- قضايا أخرى.

لقد جاء الباب السادس من مقدمة ابن خلدون فى العلوم والتعليم، وبعـض طرق التدريس وما يعرض لذلك من أحوال ذكر أنها تختلف من إقليم إلى آخـر، وقد تحدث فضلاً عما ذكرنا عن الفكر الإنسانى ومعارف البشر وعلوم الأنبيـاء وعلوم الملائكة، وتوسع في بحث علوم التفسير والحديث وسائر العلوم الشرعية، كما عقد فصلاً لعلم التصوف، وذكر أن كثرة الاختصارات المؤلفة فـى العلـوم مخلة بالتعليم، وذلك بالنظر إلى مـا كـان يحـدث فـى عـصره مـن تـأليف الموسوعات، والاتجاه إلى اختصار بعضها، إذ لم يكن ذلك محل اقتناع عنـده، وتحدث فى هذا الباب أيضاً عن صناعة الشعر، ووجه تعلمه، وذكر أنه لا تتفـق الإجادة لأحد فى المنظوم والمنثور معاً، وذلك إلا للقليل مـن النـاس، وعـرض لقضية انتحال الشعر، وذكر أن أهل المراتب والدرجات يترفعون عن الوقوع فى وصمة انتحال الشعر، وهذه قضية قديمة عرض لها ابن سلام الجمحى فى كتابـه طبقات فحول الشعراء، وبحثها بإسهاب وتفصيل، وبقيت كتاباته متميزة إلـى أن تلقفها بعض المستشرقين فى العصر الحديث فتوسع فيها، واتخذها بعض النـاس

مدخلاً للطعن فى كثير من قضايا الشعر الجاهلى بخاصة، وتبقى كلمة فى حق ابن خلدون، وهى أنه عالم موسوعي متعدد القدرات، متميز فى التأليف، حاز قصب السبق في وضع أصول علم الاجتماع، الذى أقر به علماء أوروبا، كما عاش عاشقاً للفلسفة، وحريصاً على وحدة الأمة العربية والإسلامية رحمه الله على قدر إخلاصه للإسلام، ولغة العرب، وحضارة الشرق، وسائر جوانب الفكر الإنسانى الذى ميّز الله به البشر على سائر المخلوقات.

أهم المصادر والمراجع

١- **سير ذاتية وعربية** – مصطفى نبيل – الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة عام ١٩٩٩م).

٢- **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر** فى أيام العرب والعجم والبربر من عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر – دار الكتاب اللبنانى– بيروت ١٩٨٢م.

٣- **المجددون فى الإسلام** – عبد المتعال الصعيدى – نشر مكتبة الآداب عام ٢٠٠٦م.

٤- **مشاهير الفكر التربوى عبر التاريخ** – صالح سالم باقارش وعبد الله على الآنسى – طبع دار الحارث بالطائف عام ١٩٨٦م.

٥- **مقدمة ابن خلدون** – طبع دار الشعب مصر – بدون تاريخ.

٦- (**مواقع الكترونية**) على شبكة المعلومات الدولية (انترنت):

١. موقع ويكيبيديا.

****

٣- علي مبارك[*]

رائد النهضة الحديثة في العلم والتعليم والثقافة والأدب

علي مبارك أديب مؤرخ، وضابط مهندس، ورائد مثقف، وخبير معلم، عاش حياته في حركة دائبة، وهمة عالية، ونشاط متوثب، ونبت علي أرض مصر، وتنقل بين المدن والقرى، ثم عاش في القاهرة، وخبر أهلها، وذاق مرارة التشرد والاغتراب، وسافر إلي فرنسا في إحدى بعثات محمد علي؛ ليجمع بين التعليم المدني والتعليم العسكري، واطّلع علي حضارة الغرب، وارتبط قلبه بمصر، فعمل في العديد من الوظائف إلي أن شغل درجة الوزير، بل إنه جمع بين عدد من الوزارات في وقت واحد، وتفرغ في نهاية حياته للكتابة والتأليف.

وتعود بدايات علي مبارك إلي قرية (برنبال الجديدة) بمركز دكرنس بمحافظة الدقهلية، والتي ولد فيها عام ألف وثمانمائة وأربع وعشرين، ونشأ في أحضان الريف بين أسرة تعمل بالزراعة، وينهض الوالد بكل الشؤون الدينية في القرية ... «فهو إمام مسجدها، وخطيبه، وهو (مأذونها) يعقد عقود زواجها، ويسجل صيغ طلاقها، ويُستفتي في المسائل الدينية، تعرض لأهلها.... ورث ذلك عن أبيه وجده، حتى سميت الأسرة بأسرة (المشايخ)»[١].

وكانت الأسرة كثيرة العدد، قليلة الرزق، ثم تكاثرت الديون عليها وعلي سائر الفلاحين، وتعرضت للضرب والسجن، ورأي الشيخ مبارك أن لا ملجأ إلا الفرار إلي مساكن الخيام بين البدو في محافظة الشرقية، وأقامت الأسرة بين عرب السماعنة.

(*) أذيع هذا الموضوع في برنامج (أعلام الفكر المعاصر) بإذاعة البرنامج الثقافي يوم الثلاثاء الرابع من إبريل عام ١٩٩٥م (٤ من ذي القعدة سنة ١٤١٥هـ).

(١) زعماء الإصلاح في العصر الحديث، أحمد أمين صـ ١٨٤.

أما (علي) فقد ابتدأ حفظ القرآن الكريم في برنبال علي يد رجل قاس يسمي (أبا عُسْر) ولقي منه كل شدة وسوء، وأخذ يتنقل من كُتّاب إلي آخر، حيث تقيم الأسرة في منازلها الجديدة، حتى حفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة، ولكنه كان يضجر من قسوة المعلمين ومن طرقهم في التعليم إلي أن يئس منه والده لكثرة هروبه، فأبعده عن حرفة الكتابة، وهيأه لمهنة رعي الغنم، لكنه عاد للتعليم في أحد الكتاتيب التي يختار من بينها طلاب المدارس.

وقد دخل مدرسة قصر العيني قبل أن تخصص لدراسة الطب، وانتظم بها في سنة ألف وثمانمائة وتسع وثلاثين، ثم كره نظام التعليم في المدارس وانتقده فقال: «فوجدت المدارس علي خلاف ما كنت أظن بل بسبب تجدد أمرها كانت واجبات الوظائف مجهولة فيها، والتربية والتعليمات غير معتني بها، إذ كان جل اعتنائهم بتعليم المشي العسكري، فكان ذلك في وقت الصبح والظهر وبعد الأكل وفي أماكن النوم. وكان جميع المشرفين علي التلامذة يؤذونهم بالضرب وأنواع السب والإهانة من غير حساب ولا حرج»[1].

لقد كان (علي مبارك) يبحث عن تكوين نفسه تكويناً ثقافياً صحيحاً، وملائماً لميوله ورغباته، ولذلك استمر علي قلقه وكرهه وضجره حتى بعد أن نُقل إلي مدرسة أبي زعبل ولكن أستاذاً متميزاً هو إبراهيم رأفت أخرجه من يأسه وهمومه، وأخذ يشرح له – ولسائر التلاميذ الضعاف في التحصيل – بطريقة متميزة وواضحة، وبعد أن كان (علي) كارهاً للدراسة مُجْبراً علي البقاء فيها صار أول فرقته، واختير في نهاية الدراسة للانتظام في مدرسة (المهندسخانة) ببولاق، والتي بقي فيها خمس سنين كان بها أول فرقته، ودرس فروع الهندسة حتى أتمها، وسافر إلي فرنسا في عهد (محمد علي) وبقي بها

---

(1) حياتي بقلم علي باشا مبارك صـــ ١٢، صـــ ١٣.

خمس سنين، وتعلم اللغة الفرنسية، وتيسر له تحصيل العلوم بها، وقد كان الهدف من هذه الإرساليات دراسة العلوم العسكرية وما يتصل بها من العلوم الحديثة، وعاد إلي مصر، ومنح رتبه (يوزباشي أول)، وعمل أستاذاً عسكرياً في مدرسة (طرة) وتزوج من ابنة أستاذه في مادة الرسم بمدرسة أبي زعبل، وزار أهله ببذلته العسكرية بعد أن عادوا إلي برنبال، وبعد أن انقطع عنهم أربعة عشر عاماً، وتقلب بين البؤس والنعيم علي حد تعبير الأستاذ أحمد أمين الذين كتب عنه، فقال: «توالت علي (علي مبارك) أيام بؤس وأيام نعيم، وكانت الحالة في مصر غير مستقرة، وكل الموظفين وخاصة كبارهم رهن بإشارة الحاكم، ورهن بما يحاك حوله من دسائس، فيوماً يرضي فيرفع إلي السماء، ويوماً يغضب فينزل إلي الحضيض والبيت الحاكم منشق علي نفسه إذا تقرب أحد إلي بعضه غضب عليه بعضه الآخر»(١).

وتقلب في الوظائف العسكرية، وبلغ رتبة (أمير ألاي) وشارك في الحرب التركية الروسية عندما غضب عليه (سعيد باشا) فأرسله مع الفرقة الحربية التي أُرسلت لمساعدة الدولة العثمانية، وأقام في تركيا نحو سنتين لقي فيهما عناء شديداً ومشقة كبيرة، لكنه استفاد من هذه التجربة فوائد جمة، لعل منها تعلمه اللغة التركية.

كما تقلب في وظائف التعليم وترقي فيها إلي أن تولي (نظارة المعارف) أي (وزارة التربية والتعليم) وألف بعض الكتب المدرسية، وتحدث عن أمر المدارس، فقال: «وكان أمر المدارس كل حين لا يزداد إلا صلاحاً، ولا التلامذة إلا نجاحاً، ولا المعلمون إلا اجتهاداً. وكانت الامتحانات السنوية تشهد بمزيد الاعتناء وحسن الأسلوب ونجاح الطريقة المتبعة، وكان ما يصل للتلامذة

---

(١) زعماء الإصلاح صـ ١٩١.

ومعلميهم من المكافآت والثناء والتشويق والترغيب داعياً، حاثاً لهم علي زيادة الجد والاجتهاد، وجرت بين المعلمين المودة والألفة، وتربت الأطفال علي الأخوة، وغَرَس فيهم حب التقدم وشرف النفس والعفة»[1].

وسعي إلي إصلاح التعليم في الأزهر، وتوسيع دائرة المعارف ببناء المدارس، وزيادة أعداد الكتاتيب في المدن والقرى، وترتيب المدرسين، وما يلزم للتعليم من أدوات وكتب وأموال، فكان يسخِّر وزارة الإشغال التي تولي وزارتها أيضاً لبناء المدارس، ويصرف من مال الأوقاف، التي كان وزيراً لها كذلك علي التعليم، وأخضع جميع المدارس للإشراف الحكومي بعد أن كانت عنايتها منصبة علي التعليم العسكري.

وألف روايته التعليمية (علم الدين) في ثلاثة أجزاء، و(الخطط التوفيقية) في عشرين جزءاً، وخلاصة تاريخ العرب، وجغرافية مصر، وتنوير الأفهام وغيرها.

وجمع في عمله الوظيفي بين نظارة السكك الحديد، والمدارس والأشغال العمومية والأوقاف في وقت واحد، وكان بارعاً ونشيطاً في كل عمل تولاه، وإذا رُفع أسمه من وظيفة فلا تمر مدة حتى يعود إليها، أو ينتقل إلي غيرها، ووضع المقاييس للنيل من أسوان إلي أقصي الشمال، وعُيِّن لنظارة القناطر الخيرية ولما توفيت زوجته الأولي تأهل بالثانية التي لم يوفق معها فتزوج بأخرى استقرت حياته معها. ويصعب علينا في هذه الدراسة الموجزة أن نلم بكل ما نهض به، وسعي إليه طوال حياته، التي انتهت بالقاهرة في الرابع عشر من نوفمبر عام ألف وثمانمائة وثلاث وتسعين ميلادية.

---

(1) حياتي صـ ٢٧.

لقد كتب علي مبارك سيرة حياته بنفسه، وعرض فيها للتفاصيل الدقيقة ، وكتب عن حركة أحمد عرابي وثورته، وأبان كيف انتكس في كفر الزيات والتل الكبير.

وعرض لجميع التفاصيل والأحداث التي شهدها إلي ما قبل وفاته بست سنوات، وهي التي ركز فيها نشاطه علي الكتابة والتأليف والتجارة والزراعة.

ونؤكد بعض آرائه في إصلاح التعليم، فقد كان يرفض العقاب البدني – كما سبق في الحديث عن حياته – لأنه يؤدي إلي العدوان والكذب والخداع، واهتم بالرعاية الصحية بين التلاميذ، ودعا إلي اختيار المعلم بموجب صفات علمية وخلقية ونفسية، ووضع خطة ناجحة في عهد الخديو إسماعيل؛ لإدارة التعليم، وتنظيم الكتاتيب، وأشرك الأهالي والمديريات في حمل بعض الأعباء المالية والتعليمية، وأنشأ دار الكتب وكلية دار العلوم، والكثير من المدارس والمجمع العلمي، وجمعية المعارف والجمعية الجغرافية، والجمعية الخيرية الإسلامية وغيرها.

ولقد قَدَّم كثيراً من آرائه وأفكاره في صورة رواية تاريخية تعليمية هي قصة (علم الدين) والتي طبعت في ثلاثة أجزاء، وجعل كل جزء يتكون من عدة مسامرات، ولعله جارى بعض أدباء عصره مثل رفاعة الطهطاوي صاحب (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) الرواية المترجمة (مغامرات تليماك).

وتعد (علم الدين) من أقدم الروايات التعليمية في أدبنا الحديث، وإن كنا نتغاضي كثيراً عن التزامها بمعظم الشروط والخصائص المميزة للرواية الفنية، وأن نراعي فيها ظروف النشأة وطبائع العصر، ودواعي الكتابة والتي حددها (علي مبارك) بالمقدمة فقال: «وقد رأيت النفوس كثيراً ما تميل إلي السير والقصص ومُلَحِ الكلام، بخلاف الفنون البحتة والعلوم المحضة، فقد تعرض عنها

في كثير من الأحيان، لاسيما عند السآمة والملال من كثرة الاشتغال وفي وأوقات عدم خلو البال، فحداني هذا أيام نظارتي لديوان المعارف إلي عمل كتاب أضمنه كثيراً من الفوائد في أسلوب حكاية لطيفة ينشط الناظر فيها إلي مطالعتها، ويجد فيها رغبته فيما كان من هذا القبيل .....»[١].

وحاول في هذه الرواية أن يقارن بين العادات الشرقية والعادات الغربية، ولعله كان ينظر بعين إلي طلاب المدارس وبالعين الأخرى إلي مشايخ الأزهر، وربما كان يقصد من تسمية بطل القصة (علم الدين) وابنه (برهان الدين) الإشارة إلي العالم المثالي في نظره .... «وعلم الدين شيخ أزهري متفتح يقبل السفر إلي الخارج مع سائح إنجليزي عالم، يرغب في تعلم اللغة العربية، وهو متفتح العقل، يسأل عن مالا يعرفه ويقتنع به، ولا يتقبل كل عادات الأوروبيين، بل يرفض بعضها، ويفضل عليها عاداته الشرقية»[٢].

لقد طغي الهدف التعليمي علي العناصر الفنية في هذا العمل المتميز، ويكاد العنصر القصصي يختفي مع منتصف الجزء الأول إلي نهاية الرواية، كما أن الرابطة بين المسامرات كانت ضعيفة، وكذلك قلة الشخصيات التي تثير – بصراعها – التشويق والإثارة عند القارئ لكن همة الرجل كانت منصرفة إلي الحديث عن العلم، وتقديم المعلومات، وعرض الآراء والربط بين الماضي والحاضر والأصالة والمعاصرة.

---

(1) مقدمة رواية علم الدين الجزء الأول.

(2) تطور الرواية العربية الحديثة للدكتور/ عبد المحسن طه بدر صـ ٦٨ (طبع دار المعارف).

أهم المصادر والمراجع

١. **تخليص الإبريز في تلخيص باريز** – رفاعة رافع الطهطاوي – طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢. **تطور الرواية العربية الحديثة** – د.عبدالمحسن طه بدر – طبع دار المعارف بمصر– عام ١٩٨٣م.

٣. **حياتي** -علي مبارك– تحقيق عبد الرحيم الجمل– مكتبة الآداب عام ١٩٨٩م.

٤. **الخطط التوفيقية** – علي مبارك.

٥. **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**– أحمد أمين– طبع النهضة المصرية عام ١٩٤٩م.

٦. **علم الدين**- رواية تعليمية– لعلي مبارك.

٤- بنت الشاطئ

واتجاهاتها في الحفاظ علي التراث(*)

عائشة عبدالرحمن، اسم متميز، وعلامة فارقة فى مسيرة الحياة الإسلامية والعربية بالقرن العشرين، تلك الأستاذة القديرة التى قادت سفينتها وسط الأنواء، واستطاعت أن تقاوم بها الأمواج، وترسو معها على شواطئ الوصول فى ثقة واطمئنان، ثم فارقت الدنيا، وهى تحمل القلم الذى طالما دافعت به عن اللغة العربية والحضارة الإسلامية، التى ظلت مرابطة فى ساحتها أكثر من ستين عاما، إلى يوم وفاتها فى الأول من ديسمبر عام ألف وتسعمائة وثمانية وتسعين، بعد حياة حافلة بالعطاء الذى أينع وأثمر تراثا ضخما من المؤلفات الموسوعية والمقالات المتعددة فى سائر التخصصات، والتوجهات، والمذاهب، والمعتقدات.

وأصل التراث: الإراث[1] ومن معانيه: الأمر القديم، توارثه الآخر عن الأول، وفى حديث الحج: "إنكم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم"، يريد به ميراثهم ملته.

ولا يقتصر معنى التراث على الكتب والمؤلفات القديمة، التى يعاد بعثها برؤى جديدة، تقترب من معطيات العصر وقضاياه المتعددة، وإنما يضاف إليها القيم الأصيلة، والديانات، والعقائد، والعادات، والتقاليد المتوارثة جيلا عن جيل، وكذلك اللغة والثقافة، تلك التى تجمع ولا تفرق، وتتواصل ولا تتمزق، وهذه هموم بنت الشاطئ التى كانت ترى أنه لا خلاص من أى فساد عصرى، إلا بالعودة إلى تراثنا الروحى وقيمنا الأصيلة والنبيلة، ولذلك كانت تخشى فى آخر

(*) بحث مقدم إلى المؤتمر السابع للمرأة والبحث العلمى والتنمية فى جنوب مصر وعنوانه (المرأة العربية وآفاق التنمية من ١٥ـ ١٧ أبريل ٢٠٠٩م) ضمن فعاليات المحور الخاص بالمرأة العربية والحفاظ على التراث، والمنعقد فى رحاب جامعة أسيوط .

(١) وأصل همزته: واو؛ لأنه من ورث يرث (لسان العرب).

حياتها من الحرمان من المرابطة فى الموقع الفكرى لأمتها ، وكانت تشق على نفسها كثيرا بالعمل والقراءة، هروبا من هذا الحرمان؛ وحرصا على الجهاد بالقلم الذى تعودت عليه منذ طفولتها المبكرة.

وقد كانت عنايتها بالتراث المخطوط أو المكتوب لا تقارن، حيث عكفت على دراسته وتحقيقه بصورة متميزة، وبمنهج ثابت برئ من الاضطراب وواضح المسار، وذلك ما سوف نحرص على كشفه وبيانه، وتحديد هويته فى الصحائف التالية.

أولا: تفسير القرآن الكريم. وبيان وجوه الإعجاز فيه:

اختار الله سبحانه وتعالى "عائشة عبدالرحمن" لخدمة القرآن الكريم، ويسر لذلك السبل المتعددة، التى أسهمت كلها فى توظيف معارفها، وتنشيط ذاكرتها، وتسخير قلمها؛ لإعادة القراءة والصياغة والبيان لعلوم القرآن، وسائر كتب التفسير بتوجهاتها المختلفة.

وكانت رحمها الله حريصة على بعث التراث الإسلامي الخالد، مما أهلها لتكون محط الأنظار، وموضع التقدير والاعتبار، فى مصر والمغرب، وكثير من البلدان العربية والإسلامية، وهيأ الله سبيلها لذلك، إذ ولدت فى بيئة أزهرية أبا وأما، فقد عمل والدها "محمد على عبدالرحمن" ، مدرسا بمدرسة دمياط الابتدائية الأميرية للبنين، ثم أنشئ المعهد الدينى فى دمياط، فانتقل للعمل مدرسا فيه ، وتزوج من أسرة الشيخ إبراهيم الدمهوجى، أحد مشايخ الأزهر العظام، وكانت الابنة الثانية فى الأسرة، التى كانت تأمل فى أن يكون المولود ذكراً يحفظ القرآن ويدرس علومه، ولكنها جاءت أنثى ، فأسموها "عائشة"، حيث ولدت فى السادس من نوفمبر عام ١٩١٣م، وكانت نشأتها صالحة، إذ وجهت فى الخامسة من عمرها إلى كتاب الشيخ "موسى" فى دمياط؛ لحفظ القرآن ومعرفة أحكام تجويده،

ودراسة علومه، وأتمت الحفظ فى السابعة، والتحقت بمدرسة اللوزى الأميرية للبنات بدمياط، ولم يكن ذلك متاحا للكثيرات فى عصرها، وكان ذلك قفزة حضارية فى حياتها، خاصة أنها بنت عالم أزهرى، ومن أحفاد شيخ أزهرى من جهة أمها، والبيئة المحيطة بها تقربها من القرآن الكريم، والحديث النبوى الشريف، وعلوم اللغة العربية، وكانت تُلازم أباها فى مجلسه بالبيت، وفى خلوته بجامع شارع البحر، وتزداد رغبتها فى التعرف على أسرار القرآن، وفهم معانيه، محاولة أن تسبق عمرها بالطموحات الكبار والآمال العظام، من خلال الجو المحيط بها، والذى يعبأ بالإيمان والتقوى.

وتذكر فى كتابها (على الجسر) أنها كانت بين زميلاتها بالفرقة الثالثة فى المدرسة الأولية، فدخل عليهن ذات مرة مفتش وقور ، فأسمعته بعض ما تحفظ من القرآن الكريم، متفوقة على أقرانها، فأعجب بها، وأثنى عليها، ودعا لها، واتسعت نظرتها للحياة، واشتد اقترابها من كلام رب العالمين، وانحصر وعيها فى المصحف الشريف، وتجسد ذلك فى رؤيا رأتها فى منامها وهى صبية لم تكمل العاشرة قالت: "رأيتنى فى المنام جالسة فى مقعدى بحجرة الدراسة، وإذا بملاك مجنح يهبط من السماء قرب النافذة المجاورة لمكانى، ويعطينى لفافة خضراء، ثم يحلق عاليا فى السماء، ولما فتحت اللفافة، وجدت فيها مصحفا شريفا لم تكن عينى قد وقعت من قبل على مثله فخامة وبهاء"! ... وقالت: "كنت بحكم ظروف نشأتى وبيئتى، أنفعل بالأحلام وأتأثر بالرؤى، فلما صحوت من نومى، أدركت عن يقين بأن حياتى كلها مرتبطة بهذا المصحف، هدية السماء إلىَّ فى رؤياى"[1].

(١) على الجسر ـ أسطورة الزمان صـ٣٠ طبع دار الهلال ٠

ولم تتخل طوال عمرها عن صحبة القرآن الكريم قراءة وحفظا، وتجويدا وشرحا، وبقى ذلك حالها إلى نهاية عمرها حيث ألقت القلم، وانسحبت من الحياة، مستقبلة الآخرة برصيد إيمانى كبير، ودلالات معرفية متميزة.

وكانت تقضى الصيف كل عام فى قرية والدها (شبرا بخوم) بالمنوفية، مع سائر أفراد الأسرة، حيث تدور الأيام فى حركة هادئة، وفى جيرة محمودة للشيخ (دسوقى جوهرى) وهو من علماء الأزهر الأفذاذ حيث كانت صاحبتنا تهفو إلى مجالسته، والاستماع إليه، واستشارته فيما يدور بأعماقها عن مستقبلها الذى تحلم به، وتفكر فيه بتأن وهدوء.

وعاشت مرحلة أخرى فى حياتها تَحوّل معها حبها للقرآن إلى إعداد البحوث والدراسات ، ولكن بعد حصولها على (البكالوريا) عام ١٩٣٤م وانتظارها عاما بكامله، بقى فيها باب الجامعة موصدا فى وجهها؛ لاشتراط نسبة محددة للحضور، والتى عجزت عنها بسبب أنها كانت موظفة بكلية البنات فى الجيزة، ثم تيسر الأمر ، وفُتحت لها الأبواب فى العام التالى، الذى ابتدأت الدراسة فيه بكلية الآداب، وذلك فى عام ١٩٣٥م بقسم اللغة العربية، ومر العام الأول من دراستها، وهى تسمع عن أستاذ متميز فى هذا القسم، وهو الشيخ أمين الخولى، الذى كان يقدم محاضراته لطلاب السنة الثانية، هؤلاء الذين كانوا يحدثون (عائشة) عن أستاذهم الذى سوف تعجز عن فهمه، واستيعاب منهجه الصارم.

وبعد أن تجاوزت امتحان السنة الأولى، وانصرفت مع الأسرة إلى القرية، فى ذلك الصيف عام ألف وتسعمائة وستة وثلاثين كانت تواجه أعاصير النفس وأمواج الاضطراب، فمن ناحية أخذت تعد نفسها للقاء الأول مع الشيخ الخولى بالاطلاع على موضوعات البلاغة القرآنية، ومن ناحية ثانية أوشكت أن تصل

إلى حد مقاطعة الجامعة، وتصفية حسابها معها، غير أنها قد اقتنعت بأن تكتفى بأداء الامتحان فى آخر كل عام، إلى أن تنتهى من الدراسة فى كلية الآداب، واشترطت على نفسها قبل تصفية هذا الحساب وتحديد معالم طريقها أن تكتشف ما عند الأستاذ أمين الخولى من علم ومنهج، يتحداها به طلاب قسم اللغة العربية، وأخذت تعد نفسها قبل الالتقاء بالأستاذ الخولى فى دروسه عن علوم القرآن والبلاغة العربية، وذلك بما كانت تطالعه فى القرية صيفا فى معية والدها، وبما كانت تقرؤه على الشيخ دسوقى جوهرى بأقصى الطرف الشمالى للقرية فى كتب البلاغة، وقد كان بالنسبة لها المعلم الصديق، والمستشار المؤتمن، وشُغلت كثيرا بما كان يتناقله زملاؤها من حكايات ونوادر عن علم الشيخ الخولى وقوة حجته، وجبروت عقله وشخصيته.

وعندما انتظمت بالدراسة فى السنة الثانية كانت تلمح هذا الأستاذ، وطلابه حوله يحاورونه فيما يقول، وقبل الانصراف من لقائه بهم، سأله أحد طلاب الفرقة الثانية من زملاء عائشة عن موعد اللقاء القادم، فأفاد بأنه يوم السادس من نوفمبر، وذلك ما أذهلها، وتعجبت له، ذلك أنه يوم مولدها الذى يتوافق مع لقائها الأول بالشيخ فى معية زملائها، وكتبت عن هذا اللقاء تقول: "ودخل الأستاذ الخولى، بسمته المهيب المتفرد، فألقى علينا التحية، واقترح، لكى نتعارف، أن يعرض علينا مباحث المادة المقرر علينا درسها من علوم القرآن، ولكل طالب أن يختار مبحثا منها، يعده ويعرضه للمناقشة فى الوقت الذى يحدده.

وبادرتُ فأعلنتُ اختيارى للمبحث الأول فى (نزول القرآن) [1].

وقد كانت تتمنى أن يتوقف الزمن؛ ليظل الأستاذ يتكلم، وهى تُصغى لما يقول وكأنها قد قطعت العمر كله، لتبحث عنه فى متاهة الدنيا وخضم المجهول،

(١) على الجسر ص١٠٣ .

وانصرفت من اللقاء الأول، وهى تحس أنها ولدت من جديد، وتواصلت معه فيما تبقى لها من دروس، بقية سنوات الدراسة، تلك التى قالت عنها ما يلى: "وانتهت المرحلة الجامعية الأولى، ولم يبق لى من زهو الطموح إلا إدراكى لحاجتى إلى أن أتعلم ، وتطلُّعى إلى أن أظل ما عشت تلميذه لهذا الأستاذ الذى علمنى كيف أقرأ"[1].

وارتبطت به زوجة له، وأما لابنه وابنته منها إلى أن رحل عن الدنيا[2]، وفارق الحياة، فكتبت عنه أروع ما كتبته من صفحات الوفاء شعرا ونثرا قالت: "وعلى عينى اقتحم ناس غرباء مخدعه؛ ليجهزوا جسده للرحلة الأخيرة .

وعلى عينى، حملوه من دارنا إلى غير عودة، ومضوا به إلى قريته (شوشاى) فى ريف المنوفية، فدفنوه فى ترابها الذى جاء منه، وإليه كان المآب"[3].

ولقد جعلَتْ بنت الشاطئ من كتابها (على الجسر ـــ أسطورة الزمان) مرثية حزينة لزوجها الذى فتح أمامها أبوابا واسعة، والتى دخلت منها إلى الساحة الإسلامية الواسعة حيث شغلت فيها بدراسة القرآن الكريم، والتبحر فى سائر علومه وأسراره، ثم انطلقت بعد وفاة الأستاذ والزوج والحبيب إلى المشاركة الجادة فى التعريف بالإسلام، والدفاع عن قضاياه، غير ناسية ولا ناكرة لتأثير شيخها العظيم، فقالت هذه الكلمة الرائعة فى مستهل بداية سيرتها (على الجسر) : "تجلت فينا ولنا وبنا، آية الله الكبرى الذى خلقنا من نفس واحدة،

(١) السابق صـــ١٠٥ .
(٢) ولد الشيخ أمين الخولى فى عام ١٨٩٥م، وتوفى عام ١٩٦٦م.
(٣) على الجسر ص ١١٥ .

فكنا الواحد الذى لا يتعدد، والفرد الذى لا يتجزأ . وكانت قضيتنا أسطورة الزمان، ولم تسمع الدنيا بمثلها قبلنا، وهيهات أن تتكرر إلى آخر الدهر"[١].

وقد استثمرت نشأتها الدينية، وحفظها للقرآن الكريم، ودراستها للغة العربية وأدبها ونقدها وبلاغتها فى العناية بتفسير القرآن، وبيان وجوه الإعجاز فيه، وتحقيق بعض المسائل فى العقيدة والفلسفة ، وسيرها على منهج متميز فى البلاغة القرآنية، فواصلت رحلتها العلمية والتعليمية فى التدريس لطلاب الدراسات العليا فى جامعة القرويين بالمغرب الشقيق إلى نهاية الحياة.

وتجلت عنايتها بالتراث الإسلامى من خلال النص القرآنى فى عدد من المؤلفات نذكر منها:

١- التفسير البيانى للقرآن الكريم[٢]:

قدمت بنت الشاطئ هذا الكتاب فى جزءين، وعرضت فى الجزء الأول لسبع سور، لم تراع فيها الترتيب الذى جاءت عليه بالمصحف الشريف وهى: (الضحى، الشرح، الزلزلة، العاديات، النازعات، البلد، التكاثر).

وكانت عنايتها بإحياء الدراسات القرآنية لا حدود لها، وجعلت توجهها مستندا على حتمية بعث التراث القرآنى، بتجديد بيانى يتطابق مع فلسفتها فى التناول، ومنهجها فى التعامل معه، وحرصها على التأنى والصبر فى تدبر أسراره، ومعرفة أحكامه، وبيان وجوه إعجازه، وأثمر ذلك عن عطاء زاخر

---

(١) على الجسر ص٥ .

(٢) طبع الجزء الأول فى عام ١٩٦٢م وذلك لأول مرة، ثم طبع الجزء الثانى فى عام ١٩٦٨م، لأول مرة وأهدتهما إلى زوجها أمين الخولى .

للمكتبة القرآنية، والذى يتمثل فى سبعة مؤلفات سوى كتاب الإعجاز البيانى، الذى حددت فى مقدمته هذه المؤلفات[1].

وقد وجدت فى القرآن الكريم النبع السخى، والمورد العذب، الذى كانت تنهل منه، وتستقى بمائة فى تدريسها بالجامعات العربية، ومحاضراتها فى المؤتمرات الدولية، والمناسبات الثقافية.

وكانت شديدة الحرص والتأكيد على بيان المنهج الذى التزمت به فى تناولها للقرآن الكريم، متأثرة بالبيئة التى نشأت فيها، والحياة الزوجية التى تعلمت منها، والحياة العملية التى تجاوبت معها بصورة غير مسبوقة.

وأشادت بالمنهج الذى اتبعته فى التفسير ، وتحدثت عن ملامحه فى المقدمة الأولى للكتاب الذى بين أيدينا، فقالت: "والأصل فى منهج هذا التفسير ـ كما تلقيته عن أستاذى ـ هو التناول الموضوعى الذى يفرغ لدراسة الموضوع الواحد فيه، فيجمع كل ما فى القرآن منه، ويهتدى بمألوف استعماله للألفاظ والأساليب، بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذاك ... وهو منهج يختلف والطريقة المعروفة فى تفسير القرآن سورة سورة، يؤخذ اللفظ أو الآية فيه، مقتطعا من سياقه العام فى القرآن كله، مما لا سبيل معه إلى الاهتداء إلى الدلالة القرآنية لألفاظه، أو لمح ظواهره الأسلوبية وخصائصه البيانية"[2]، ثم توسعت فى الطبعة الخامسة لهذا الكتاب فى بيان المنهج الذى شرحه أمين الخولى، وبسطه فى كتابه الجليل (مناهج تجديد)، وقد لخصت ضوابطه باتساع يفوق ما ذكرته فى الطبعة الأولى، قالت: "...الأصل فى المنهج، التناول الموضوعى لما يراد فهمه من

(١) هى: التفسير البيانى ٢ – مقال فى الإنسان ٣ – القرآن والتفسير العصرى ٤ – القرآن وقضايا الإنسان ٥ – الشخصية الإسلامية ٦ – من أسرار البيان القرآنى ٧ – كتابنا الأكبر، فضلا عن عشرات البحوث التى اعتمدت فيها على القرآن الكريم والسنة النبوية.

(٢) التفسير البيانى للقرآن جـ١ صـ١٧، طبع دار المعارف بمصر .

كتاب الإسلام، ويبدأ بجمع كل ما فى الكتاب المحكم من سور وآيات فى الموضوع المدروس.

... **فى فهم ما حول النص:** ترتب الآيات فيه على حسب نزولها؛ لمعرفة ظروف الزمان والمكان، كما يُستأنس بالمرويات فى أسباب النزول، من حيث هى قرائن لابست نزول الآية"[1] ...... **(إلى آخر ما جاء فى هذه الفقرة).**

... **فى فهم دلالات الألفاظ**، تحدثت عن بيان أن العربية هى لغة القرآن، وحتمية التماس سائر الدلالات اللغوية إلى ذلك، مع مراعاة صيغ اللفظ، وتدبر سياقها الخاص فى الآية والسورة، وسياقها العام فى القرآن كله.

... **فى فهم أسرار التعبير** .. ينبغى الاحتكام إلى سياق النص فى الكتاب المحكم، ملتزمين بما يحمله نصا وروحا، إلى غير ذلك من محتويات هذا المنهج الذى أفاضت فى شرحه، وتحديد سائر مكوناته، ثم اختتمت بيانها لما سارت عليه بقولها: "وبعد، فإذا كنت فى دروسى الجامعية بقسم اللغة العربية بمصر، قد حرصت على توثيق علوم العربية بالبيان القرآنى، فإنى فى دراساتى القرآنية بجامعة القرويين، حريصة على توثيق علوم الإسلام بالعربية لغة وبيانا، من حيث لا يصح لدارس فقه الإسلام دون رسوخ فى علوم العربية، كما لا يصح له رسوخ فى العربية دون دراية بعلوم القرآن والإسلام"[2].

وليس من اليسير فى هذا التفسير أن نورد سائر العرض البيانى لإحدى السور المختارة، كما لا يحسن الاكتفاء بجزء مبتور من سياق نصه، بل يتحتم الرجوع إلى كامل النص المفسر بقلم بنت الشاطئ ، فبعضه لا يغنى عن كله، وكتاب واحد لا يكفى للدخول إلى الموقع الفكرى لهذه الأستاذة القديرة .. التى

---

(١) السابق صـــ١٠ وما بعدها .

(٢) السابق صـــ١٠، ١١ .

ابتدأت معايشتها للمنهج المذكور بتمامه، وذلك مع سورة (الضحى) التى كتبت عنها أكثر من ثلاثين صفحة، من القطع المتوسط، وتواصل حديثها مع بقية السور القرآنية المختارة.

واعتبرتْ المنهج المذكور بعثا جديدا، وعناية فائقة بالتفسير البيانى، الذى جدد فيه أمين الخولى بتأكيده أن الغرض الأول من تفسير القرآن قبل بيان الأحكام والعقائد والأخلاق: "هو النظر فى القرآن من حيث هو كتاب العربية الأكبر، وأثرها الأدبى الأعظم، فهو الكتاب الذى أخلد العربية، وحمى كيانها، وخلُد معها، فصار فخرها وزينة تراثها، وتلك صفة للقرآن يعرفها العربى، مهما يختلف به الدين أو يفترق به الهوى، ما دام شاعرا بعروبته، مدركا أن العروبة أصله فى الناس، وجنسه بين الأجناس..." [1] فالشيخ يبرز المكانة اللغوية للقرآن، محددا الأدوات أو الوسائل التى تعين على السير فى هذا الطريق.

وقد قال أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومى[2] عن الكتاب الذى بين أيدينا للدكتورة عائشة: "وهو كتاب ممتاز، قدم نهجا رائعا فى التحليل والتطبيق"[3].

وعرضت ــ رحمها الله ــ فى الجزء الثانى من هذا الكتاب لسبع سور هى: (العلق، القلم، العصر، الليل، الفجر، الهُمزة، الماعون)، وأكدت المنهج الذى سارت عليه فى الجزء الأول، فقالت: "والمنهج المتبع هنا ، هو الذى خضعت له فيما قدمت من قبل، بضوابطه الصارمة التى تأخذنا باستقراء اللفظ القرآنى فى كل مواضع وروده، للوصول إلى دلالته، وعرض الظاهرة الأسلوبية على كل

---

(١) خطوات التفسير البيانى للقرآن الكريم للدكتور/ محمد رجب البيومى صـ٣٣٣ طبع مجمع البحوث الإسلامية عام ١٩٧١م.

(٢) متعه الله بالصحة والعافية.

(٣) السابق صـ٣٣٥ .

نظائرها فى الكتاب المحكم، وتدبر سياقها الخاص فى الآية والسورة ، ثم سياقها العام فى المصحف كله، التماسا لسرها البيانى"[1].

إذن فقد أعطت اللفظة القرآنية عناية فائقة، وأكدت أن إيثار القرآن لصيغة بعينها لا يعنى تخطئة سواها من الصيغ فى فصحى العربية، وينصرف التقدير إلى المعجم الخاص للقرآن، وبيانه المعجز الذى يستحيل على البشر الإتيان بآية من مثله.

٢- الإعجاز البيانى للقرآن ــ ومسائل ابن الأزرق ــ دراسة قرآنية لغوية وبيانية، وهذا هو العنوان الكامل للكتاب الذى جعلته بنت الشاطئ الأول لها، فى مكتبة الدراسات القرآنية، وقسمت مباحثه إلى جزءين، الأول عن الإعجاز البيانى، والثانى عن مسائل (ابن الأزرق).

وابتدأته بالإهداء الذى بعثت به من المغرب[2] إلى والدها الشيخ محمد على عبدالرحمن، وزوجها الشيخ أمين الخولى، وإلى تلاميذها (الزملاء والأصدقاء) طلاب جامعة القرويين، نقلا لرسالة العلم من جيل إلى جيل، وقدمت دليلا إرشاديا عن مفردات الجزء الأول الذى جعلته فى مبحثين، حيث تحدثت فى الأول عن المعجزة، والجدل، والتحدى، وآيات المعاجزة، ووجوه الإعجاز والبيان القرآنى، والبلاغيين والإعجاز.

وجعلت الحديث فى المبحث الثانى مجرد محاولة لفهم الإعجاز البيانى من خلال فواتح السور، وسر الحرف، ودلالات الألفاظ، وسر الكلمة، وأتمته ببحث الأساليب ، وسر التعبير، وافتتحت الكتاب بقولها: "لولا نسب لى فى الشيوخ عريق، لتهيبت التصدى لهذا الموضوع الدقيق الصعب، الذى توارد عليه أئمة من

---

(١) التفسير البيانى للقرآن الكريم جـ٢ صـ٧ طبع دار المعارف الطبعة الثالثة.
(٢) وذلك فى عام ١٣٩١هـ (١٩٧١م)، ثم تكرر مع إعادة الطبع فى ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م).

علماء السلف ،أفنوا أعمارهم فى خدمة القرآن الكريم، وقدموا إلى المكتبة الإسلامية ثمار جهودهم السخية الباذلة .

ولولا ما أعلم من مكانة جليلة للمرأة المسلمة فى تاريخنا، لأحجمت عن التقدم إلى هذا الميدان الجليل، إشفاقا من أن ينكر مكانى فيه[1].

وقالت: إنها عاشت عمرها كله مع الكتاب المعجزة، وإنها تتلمذت على أبيها وزوجها، ثم ذكرت القارئ بضوابط المنهج الذى سارت عليه فى دراساتها القرآنية، ذلك ...... "الذى لا يجيز لنا أن نفسر كلمة من كلمات الله تعالى، دون استقراء لمواضع ورودها بمختلف صيغها فى الكتاب المحكم، ولا أن نتناول موضوعا قرآنيا ، أو ظاهرة من ظواهره الأسلوبية، دون استيعاب لنظائرها ، وتدبر سياقها الخاص فى الآية والسورة ، وسياقها العام فى القرآن كله"[2].

وقد كان هذا الجزء جامعا لخلاصة ما كشفت وأوضحت من أسرار الإعجاز الباهرة فى دراساتها القرآنية المنشورة من قبل، إضافة إلى بعض البحوث التى قدمت إلى مؤتمرات بالهند وبغداد والمغرب وجامعة أم درمان الإسلامية فى السودان، ومحاضراتها فى الدراسات القرآنية العليا بجامعة القرويين، وتحدثت عن قضية الإعجاز، منذ أن بحثها القدماء كابن قتيبة، والجاحظ، والباقلانى وغيرهم، إلى أن جاء عبدالقاهر الجرجانى فوضع كتابه الرائع "دلائل الإعجاز".

وواصلت العرض للعلماء العظام الذين أعطوا قضية الإعجاز قدرا كبيرا من العناية والاهتمام، إلى الدرجة التى أيقن الكثيرون أنه لا شئ يذكر بعد بحوثهم الرائعة، ولكن بنت الشاطئ لم تتهيب من هذا الموضوع واعتبرت أنه

(١) الإعجاز البيانى للقرآن صـــ١١ ــ دار المعارف الطبعة الثانية سنة ١٩٨٤م.
(٢) السابق صـــ١١ .

أكبر من أن يتوقف البحث فيه إلى مرحلة من الزمن، أو عند عدد من العلماء، وذلك ما كررته فى نهاية مقدماتها لهذا الكتاب إذ قالت: "لعل من إعجاز القرآن أن تظل الأجيال تتوارد عليه جيلا بعد جيل وهو رحب المدى، سخى المورد، كلما حسب جيل أنه بلغ منه مبلغا امتد الأفق بعيدا وراء كل مطمح، وفوق كل طاقة..."[١].

وأكدت أن الإعجاز البيانى للقرآن أكبر من كل محاولة وجهد، فهى تضع دراسات السلف إلى جانبها، وتعكف فى مسيرتها الطويلة على تدبر كلمات الله؛ لتأخذ وجها من وجوه هذا الإعجاز، ونبهت إلى ذلك فى مدخل هذا الكتاب إذ قالت: "من إعجاز القرآن أن يظل مشغلة الدارسين العلماء جيلا بعد جيل، ثم يبقى أبدا رحب المدى، سخى المورد، كلما حسب جيل أنه بلغ منه الغاية امتد الأفق بعيدا وراء كل مطمح، عاليا يفوت طاقة الدارسين"[٢].

وقدمت فى الجزء الثانى محاولة تطبيقية لمنهج الدرس الاستقرائى للنص القرآنى، من خلال دراسة نحو مائتى مسألة فى كلمات من غريب القرآن، سأل فيها نافع بن الأزرق عبدالله ابن عباس رضى الله عنهما ،وطلب إليه فى تفسير كل كلمة منها أن يأتى بشاهد له من كلام العرب؛ لتفسير كل مسألة وقالت :" المسائل معروفة لعلماء اللغة والشعر والقرآن، على خلاف بينهم فى طرقهم إليها وأسانيدهم، وفى مساقها وعددها، وربما اختلفوا كذلك فى المروى عن ابن عباس فى تفسير بعضها وشواهده عليها"[٣].

وقد تميزت ــ رحمها الله ــ بسعة البحث، وقوة الحجة، وإضاءة الفكرة، واستحضار الدليل، والوصول إلى النتائج الحاسمة؛ التزاما بالمنهج الذى سارت

---

(١) السابق صـــ٣٤ .
(٢) السابق صـــ١٧ .
(٣) السابق صـــ٢٨٩ .

عليه، ولم تتخل عنه، ولهذا يعد تعاملها مع الدراسات القرآنية ـــ بخاصة ـــ تعاملا فريدا ومتميزا، وبعثا للتراث الإسلامى الخالد، إذ لم تكتف بنشره مع إيضاح كلمة، أو إضافة فقرة أو تحقيق حديث ، وإنما تمثل تحقيقها للتراث فى إعادة قراءته، وحسن فهمه، وجودة إخراجه؛ مستعينة بالمناهج الجديدة التى سبق أن تحدثنا عنها.

ثانيا: بعث التراث الإسلامى من خلال الحديث الشريف:

اتجهت بنت الشاطئ إلى خدمة الحديث النبوى الشريف، من خلال تحقيق موسوعة ضخمة اقتربت من الألف صفحة، ذلك الأثر النفيس الذى عكفت على دراسته بيراعها المعطاء، وهو "مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الاصطلاح" الذى حققته بعزيمة قوية، ورغبة صادقة، وجهاد متميز، استثمرت فيه طاقتها وموهبتها حيث تحدثت عن "أبى عمرو بن الصلاح وكتابه" المقدمة فى علوم الحديث" وعن السراج البلقينى وكتابه "محاسن الاصطلاح" وهو أيضا فى الحديث وعلومه، وهذان الأثران (المقدمة والمحاسن) أبرز ما تمخضت عنه طاقة "الدكتورة عائشة" بمجال خدمة التراث الإسلامى فى الحديث النبوى.

وقد ذكرت فى آخر حوار معها قبل وفاتها بأيام قليلة أنها مشغولة بعدة مشروعات علمية منها: مراجعة الطبعة الرابعة من مقدمة ابن الصلاح فى الحديث النبوى وعلومه، وعندما تحدثت عن صلتها بهذه المقدمة قالت إنها قرأتها مع أبيها فى بواكير حياتها وقال لها: "كبيرة عليك" ، وهكذا تشهد حوادث الزمان بأنها كانت وثيقة الصلة بالحديث النبوى منذ صغرها، ثم عكفت فى مستقبل الأيام على تدوينه وتحقيقه، وبيان مناهجه ومصطلحاته، إلى غير ذلك مما يتعلق بمتنه وسنده، كما قرأت صحيح البخارى؛ تأكيدا لشدة عنايتها بالصحاح من الأحاديث النبوية، وكانت تقرأ إلى جانب ذلك الشعر الصوفى، الذى ربما التمسته فى ديوان

ابن الفارض، مع مقدمة ابن الصلاح، التى قال لها أمين الخولى بصددها: "إنها صغيرة عليك، ولما ذهبت إلى جامعة القرويين فيما بعد قالوا لها ما هذا؟ المنهج لا يفلت من يدك شعره، ولكن هذا ليس لك -أى أن بنت الشاطئ أكبر من ذلك-، واحتاجت مع هذا أن تتم عشرين عاما مع العمل المتواصل[1].

وقد ابتدأت بتحقيق هذا الأثر النفيس بإهدائه إلى الراحلين من أسرتها وهم: والدها، وأمها، وزوجها، وابنتها، فى كلمات تفيض بعمق الإيمان، وروعة الصبر، وعظم الوفاء.

وينقسم هذا الكتاب إلى قسمين: الأول فى تحقيق مقدمة ابن الصلاح، وهو تقى الدين أبوعمرو الشهرزورى[2]، ذلك العالم الحجة الذى عرفت بنت الشاطئ بسيرته الاجتماعية والعلمية، قبل أن تشرع فى تحقيق مقدمته، وبيان مخطوطاتها والموازنة بينها.

وعرضت لحديث ابن الصلاح عن أنواع علوم الحديث، ومعرفة الصحيح منه والحسن والضعيف، إلى غير ذلك من المقاييس التى كشفت اللثام عنها وتعاملت مع هذا الأثر العظيم بحذر شديد طوال الصفحات التى تجاوزت الستمائة والخمسين صفحة، وجعلتها ـ أى المقدمةـ فى أعلى الصفحات، بينما جعلت الجزء الأسفل لكتاب "محاسن الاصطلاح" للسراج البلقينى[3]، ذلك العالم المتميز فى المائة الثامنة من الهجرة، والحجة فى علوم الحديث والفتيا والتفسير والفقه.

(١) انظر جريدة الأهرام فى الثانى والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٩٨م (وهو آخر حوار صحفى معها).

(٢) هو: عثمان بن الصلاح عبدالرحمن بن موسى بن أبى النصر الشافعى المولود سنة ٥٧٧هـ والمتوفى سنة ٦٤٣م وهو ضليع فى التأليف والشرح والتنقيق فى علوم الحديث والفتاوى، وبيان الأحكام ومن كتبه المشهورة (أدب الفتوى).

(٣) السراج البلقينى: هو أبوحفص عمر بن رسلان بن نصير الكنانى، المصرى الشافعى، وقد ولد فى عام ٧٢٤هـ وتوفى فىعام ٨٠٥هـ.

وقد كتبت عنه، وعرفت بمصنفاته، خاصة كتابه "محاسن الاصطلاح وتضمين علوم الحديث لابن الصلاح"، تلك التى حققتها ، وجعلتها فى أسفل الصفحات تعليقا، وشرحا، وبيانا لمقدمة ابن الصلاح، وبحيث تكون المقدمة فى الأعلى، والمحاسن فى الأسفل، من أول الكتاب إلى آخره ، وبذلك تأتى موضوعات المحاسن تابعة لما فى المقدمة، وليست مستقلة عنها، وذلك شأن الكثير من كتب التراث، منها فتح البارى على صحيح البخارى، وشرح النووى على صحيح مسلم، ومثل ذلك كثير.

ثالثا: إحياء السيرة النبوية :

لقد جاء حرص بنت الشاطئ على إعادة القراءة للسيرة النبوية من نواح متعددة، وكان الاتجاه الأكثر اهتماما لديها هو جانب المرأة، فتحدثت عن سيدات بيت النبوة ،وغيرهن ، جاعلة ما كتبته فى هذا الاتجاه جسرا تعبر فوقه لبحث قضايا المرأة فى ظلال الرسالة الحضارية للإسلام.

ونعرض لبعض مؤلفاتها عن النساء المختلفات فى الزمان والمكان، والتأثر والتأثير، وبخاصة من اتصلت منهن بالرسول ﷺ وبعض الأنبياء الآخرين.

١. **أم الرسول محمد ـ آمنة بنت وهب**[1]: إذ يعد ما كتبته عن هذه السيدة من أنفس ما كتب عن هذه الأم الرءوم، وقد اتخذت من شخصية النبى ﷺ مصدرا هاما، تستعين به على فهم شخصية آمنة، وذلك لما تركت فيه من أثر واضح، وما نقلت إليه من دماء قومها الكرام، تلك التى تنقلت فى أصلابهم جيلا بعد جيل.

(١) طبع هذا الكتاب لأول مرة بدار الهلال فى مايو سنة ١٩٥٣م حيث يعد من أقدم تراجم بنت الشاطئ لأمهات الأنبياء.

ولم تكتف فى دراساتها عن آمنة بما ذكرته فى هذا الكتاب، وإنما أضافت إلى الحديث عنها رؤى جديدة، وآراء متجددة، خطتها بيدها بجريدة الأهرام فى شهر رمضان قبل وفاتها بأعوام قليلة(١).

واتجهت فى كتاباتها عن أم النبى إلى نقل القارئ إلى وقائع الحياة التى كانت تحياها سيدة الأمهات فى بيئتها الصحراوية مع استتباء الوراثة، واستلهام البيئة؛ للوصول إلى حقائق المؤثرات فى الأصول البعيدة، والجذور القريبة.

وقد رصدت الترجمة لآمنة كثيرا من حوادث الزمان، التى ارتبطت ببعض أمهات الأنبياء، كأم إسماعيل، وأم موسى، وأم المسيح عليه السلام، فإذا انتهت من كل ذلك عاشت مع آمنة من خلال حركتها فى الحياة، وارتباطها بأجواء مكة والمدينة، ومعالم الوراثة التى عاشت آمنة فى أحضانها، قريبة من البيت العتيق الذى يلوذ به بنو زهرة وهم الأصول الثابتة لأم النبى ﷺ، وتلك بعض مظاهر التجديد فى إحياء السيرة النبوية التى تميزت فيها صاحبتنا، وهى تكتب بقلم (الأم) المسلمة عن آمنة (الأم) التى ضاقت عليها الحياة بموت الزوج وانتظار الوضع،الذى بقيت متعلقة بيومه، ثم كانت النهاية، ومحمد ينتقل فى طفولته من طور إلى آخر.

ولم تكتف بنت الشاطىء بما أفاضت به فى هذا الكتاب المتميز، وإنما جمعت وناقشت، ووافقت أو اعترضت على ما كتبه كثير من المستشرقين وبعض المحدثين من علماء المسلمين، وتلك خاصية فريدة، تميزت بها فى كتابتها عن السيرة من خلال سيدات بيت النبوة، معلنة فى شموخ واعتزاز عن مشروعها الكبير فى الحفاظ على التراث والتجديد فيه.

---

(١) وذلك فى شهر رمضان من العامين الهجريين اللذين وافقا عامى ١٩٩٤م ـ ١٩٩٦م، فضلا عن أحاديثها المتكررة عن أم المصطفى ﷺ التي رصدتها بنت الشاطئ فى سنوات عمرها الطويلة.

٢. **نساء النبى:** يعد هذا الكتاب من أشهر ما كتبته بنت الشاطئ فى تراجمها لسيدات بيت النبوة، هذا الكتاب الذى أقبل القراء عليه ، فتوالت طبعاته، التى نفدت منها عشر طبعات فى مصر وبيروت وهذا فى حدود الطبعة التى بين أيدينا[١].

ولم تنس وهى تكتب عن نساء النبى أن تهدى ما قدمته فى هذا الكتاب إلى أستاذها وزوجها أمين الخولى.

لقد كان الهدف الأول من الحديث عن نساء النبى هو تناول حياة الرسول فى بيته راصدة ــ فى صور متتابعة للسيدات ــ اللواتى أظلهن هذا البيت، ولكل واحدة منهن أثرها فى حياته، ومكانتها فى سيرته وتاريخه، وأوضحت فى مقدمة الطبعة الأولى بعضا مما استمدت منه معارفها وجزءا من مسيرتها فى الترجمة لأمهات المؤمنين فقالت: "ولم أكتب كلمة واحدة من هذا الحديث، حتى قرأت ما فى مكتبتنا الإسلامية من مؤلفات تناولت هذا الجانب من حياة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وحياة أزواجه أمهات المؤمنين، مبتدئة بالقرآن الكريم، والحديث والسيرة النبوية، والتفسير، ثم كتب التراجم والتاريخ، وضممت إليها ما وصل إلى يدى مما كتبه المستشرقون عن "محمد والإسلام"[٢].

وذكرت فى المقدمة أيضا أنها اعتمدت على المصادر الأصيلة، ونقلت منها بأمانة، وحافظت على منهجها فى التناول، وأسلوبها فى الأداء.

٣. **بنات النبى:** لقد صارت بنت الشاطئ فى طريقها مع سيدات بيت النبوة جاعلة من شخصية الرسول ﷺ موضع العناية والاهتمام، كشأن كثير من المؤرخين والدارسين، على اختلاف نحلهم ومذاهبهم، وكان

---

(١) وهى المطبوعة فى دار المعارف مصر عام ١٩٧٥م.

(٢) نساء النبى ﷺ صــ٩ ط دار المعارف مصر.

الأمر لديها كذلك، فجاء المبحث الأول فى (بنات النبى) عن الأبوة بالمجتمع العربى فى الجاهلية وفى الرسالة المحمدية، وفى شخص رسول الله (ﷺ)، وانطلاقا من هذا التوجه أهدت هذا الكتاب إلى ابنتها الغالية، فقيدة العلم والشباب، ثم كانت البداية فشرحت الحالة التى كانت عليها قبل الشروع فى الترجمة للأخوات الأربع "زينب، رقية، أم كلثوم، فاطمة" قالت: "حين تهيئت للكتابة عن بنات النبى (ﷺ) بدأت أقرأ فى كتب السيرة والحديث، والتاريخ لأستخلص منها ما يتصل بهؤلاء الكريمات اللواتى شرفن بأمجد أبوة عرفتها البشرية منذ كانت٠ غير أنى ما كدت أمضى فى القراءة، حتى وجدت أنى لن أستطيع الوفاء بحق الموضوع، إذا لم أبدأ قبل كل شئ بدارسة متفرغة لأبوة محمد، وهى دراسة شاقة، تحتاج دون ريب إلى خبرة دقيقة بالمجتمع العربى ومعرفة مكان الأبوة فيه، ليكون لنا من هذا كله ما يجلو صورة الأب الرسول، ويزيدنا إدراكا لنواحى السمو والجلال فيها[(١)].

فمن هذا الكتاب والكتابين السابقين، ومعها كتابان آخران عن السيدة زينب عقيلة بنى هاشم، والسيدة سكينة بنت الحسين تتكون منها مجتمعة مباحث بنت الشاطئ عن "سيدات بيت النبوة" وقد تشكلت آراؤها وتوجهاتها فى العصر الحاضر من خلال هذه الدراسات المتميزة، ومن بحوث أخرى قدمتها عن المرأة وحياتها الاجتماعية مثل: الإسلام والأسرة، وبحث بعنوان (المرأة المسلمة) ضمن كتاب "الإسلام اليوم وغدا" وبحث بعنوان (المفهوم الإسلامى لتحرير المرأة) ، وآخر بعنوان (شخصية المرأة فى الإسلام)، وغيرها.

---

(١) بنات النبى صـــ١٣ ط دار الكتاب العربى بيروت٠

وقد انطلقت من هذه الكتب والبحوث؛ الى الدخول فى معارك متعددة بشأن المرأة مثل معركة السفور والحجاب، ومعركة التعليم ومعركة العمل ومعركتها مع العقاد بصدد ما كتبه عن المرأة فى كتابيه (هذه الشجرة) و(المرأة فى القرآن) وقد أعلن عداوته للمرأة فتصدت له الدكتورة عائشة ، وتملكتها الشجاعة الفائقة، فدخلت فى عراك مع هذا العملاق الكبير، وردت عليه بالحجة والدليل، وزوجها شاهد على الأحداث فى شهر رمضان عام ألف وثلاثمائة وسبعة وثمانين من الهجرة[١].

ولقد لقيت هذه التراجم صدى كبيرا فى العالمين العربي والإسلامي خاصة أن بنت الشاطئ كانت حريصة فى دراساتها عن السيرة أن تعالجها معالجة معاصرة؛ اقترابا من الواقع الذي يقوم على ثنائية الرجل والمرأة، وتأثير كل منهما فى الحياة بل إنها اعتبرت أن تأثير المرأة أخطر؛ لعظم دورها، وتعدد مسئولياتها فى الحياة.

وقد أثمرت هذه الدراسات ثمارا يانعة حيث ترجمت نساء النبى، وبنات النبى إلى اللغة اليابانية بقلم إحدى المستشرقات اليابانيات، تلك التى أسلمت على يد بنت الشاطئ.

وفى الحياة الخاصة للدكتورة عائشة تذكر بكل إعزاز وتقدير أنها استقالت من عملها فى جامعة فؤاد الأول[٢] "القاهرة" ، وذلك لتربية الأبناء، ولم تتمسك بمنصبها إذا اعتبرت رسالتها زوجة، وأما، مقدمة على أى شئ آخر، ثم عادت ــ فيما بعد ــ رئيسة لقسم الأدب العربى بجامعة عين شمس.

---

(١) مارس عام ١٩٦١م.
(٢) وذلك فى عام ١٩٤٤م.

وكانت حريصة من خلال هذه التراجم على إبراز بعض المعالم العامة وتصوير، كثير من الملامح الخاصة بشخصية الرسول ﷺ ، والتي أوضحتها فى كتابها "مع المصطفى فى عصر المبعث"، ولكنها توسعت فى هذا العصر، إذ ابتدأته بولادة المصطفى يتيما فى مكة ، وأنهته بوفاته ودفنه في المدينة المنورة.

رابعا: إحياء التراث العربي من خلال الدراسات الأدبية والنقدية:

لقد سارت بنت الشاطئ فى دراستها بكلية الآداب ـ قسم اللغة العربية، فحصلت على الليسانس بتقدير ممتاز(١)، ثم حصلت على الماجستير فى الآداب بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف(٢)، وشغلت بتربية الأبناء، وأتمت رسالتها للدكتوراه، ونوقشت فيها بإشراف الدكتور طه حسين، وكان وزيرا للمعارف آنذاك، ومنحت الدرجة بتقدير ممتاز(٣)، وكانت عن تحقيق رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى.

إن علاقة بنت الشاطئ باللغة العربية وآدابها وبلاغتها قوية وواضحة ومتميزة، إذ تذكر فى سيرتها أنها عندما كانت تشهد الامتحان الشفوى لشهادة المعلمات بطنطا، وكان عمرها لا يتجاوز الخامسة عشر، وبعد توفيقها فى الإجابة عن أسئلة حفظ القرآن الكريم سئلت عما تحفظ من النصوص الشعرية، فاتجهت إلى الأساتذة الممتحنين قائلة لهم: من أى عصر؟ فتعجبوا لسؤالها، ثم طلبوا نصا من العصر الجاهلى، فأنشدتهم أبياتا من معلقة طرفة بن العبد، ومرثية لمهلهل بن ربيعة التغلبى، ثم طلبوا منها شيئا من شعر صدر الإسلام، فأنشدتهم لامية كعب بن زهير التى أولها:

---

(١) فى عام ١٩٣٩م.
(٢) فى عام ١٩٤١م.
(٣) فى عام ١٩٥٠م.

بانتْ سعادُ فقلبى اليومَ مبتولُ *** متّيمٌ إثرها لم يُفد مكبولُ

وانتقلوا بها من عصر إلى عصر حتى وصلوا إلى العصر الحديث، فسألوها أن تسمعهم شيئا منه ، ففاجأتهم بسؤالها: من شعرى أم من شعر سواى؟ فقال أحدهم: إن كنت شاعرة فأسمعينا إحدى قصائدك، وأنشدت لهم قصيدة بعنوان (فى الحنين إلى دمياط) ، وأولها:

دمياطُ حبُّك حركتْ أشجانَه *** آلامُ قلب فى الغرام مصفدِ

وأتبعتها بأخرى، وسألوها عن وجهتها فى التعليم، فأنكروا ما سمعوا ، وطلبوا منها أن تعدل عما تسعى إليه، وأن تصرف همها إلى دخول الجامعة.

ولقد توثقت علاقتها باللغة العربية إبداعا ونقدا، ونظرية وتطبيقا، فكتبت القصة القصيرة والرواية الطويلة، وتتلمذت على عدد من الأساتذة العظام، فضلا عن زوجها الذى أخذت منه مناهج البحث فى التفسير والبلاغة العربية، ولم تتخل طوال عملها بالصحافة، وتدريسها لبعض التخصصات الدقيقة فى اللغة العربية ... لم تتخل طوال ذلك عن الاستعمال الراقى والأصيل للغة العربية، تلك التى اهتمت بها من خلال الكثير من الألفاظ التى بعثتها من مراقدها بعد إهمالها واقترابها من الموت الزؤام، وجعلت عنايتها بالتراث الأدبى والنقدى المتعدد التوجهات مقدمة على سائر جوانب الإبداع، ولم تتستر على ما يسمى قصيدة النثر، وتوجت كل ذلك بكتابها (لغتنا والحياة).

وقد رقق الشعر مشاعرها سواء أكان من إبداعها أم كانت متذوقة له، ومعجبة به ، كما اقتربت بالفن القصصى من واقع الحياة، فلها كتاب مطبوع بعنوان (صور من حياتهن).

وقد نالت عن جدارة واستحقاق جائزة الملك فيصل العالمية فى الآداب والدراسات الإسلامية[1].

وتجسدت عنايتها بالتراث فى كتاب لها بعنوان: (تراثنا بين ماض وحاضر) وسارت فى هذا الاتجاه منذ بداية دراستها الجامعية، وكتبت العديد من المؤلفات فى اللغة والأدب والبلاغة والنقد والشعر والفنون القصصية، فضلا عن بعض البحوث الأخرى، التى قدمتها فى العديد من المؤتمرات والجامعات، إلا أنها أعطت التراث العربى عناية بارزة، فاتجهت وجهة متميزة لا يقدر عليها، ولا ينشط فيها إلا المجاهدون والحراس للعقائد الأصيلة .

ومنهم (بكل تأكيد) الدكتورة (عائشة عبدالرحمن) التى تجلى قلمها فى بعض الأعمال البارزة منها:

١. رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى :

ذلك النص البارز فى حياة اللغة العربية الذى تعلقت به ، وتحمست له، طوال عمرها، فقالت في آخر حوار معها : إنها عاكفة على بعض المراجعات لما كتبت، ومنها الطبعة العاشرة من رسالة الغفران، التى سخرت قلمها؛ لتحقيقها بعد أن قدمتها أطروحة جامعية نالت بها درجة (الدكتوراة) ، وقد تميز منهجها فى التحقيق فكانت توازن بين المخطوطات، وتعرف بالأعلام، وتحدد المصادر والمراجع بمنهج متميز يكشف عن شخصيتها، وعن مقدار مرابطتها فى الموقع الفكرى لأمتها، ذلك الذى كانت تخشى الحرمان منه عندما أوشكت حياتها على النفاد بعد أن صالت فيها وجالت بداخل الوطن وخارجه.

إن تحقيق بنت الشاطئ لرسالة أبى العلاء تفتح مسارات متعددة؛ للنفاذ منها إلى شواطئ شيخ المعرة، واقتحام النص بمنهج يسهم فى التعرف على بعض ما

---

(١) فى عام ١٩٩٢م.

يقصده، ثم أضافت إلى الرسالة فى طبعات تالية رسالة ابن القارح هذه التى تعين القارئ على استيعاب رسالة الغفران بشكل أفضل وأسرع.

إذن فقد سلطت الأضواء على النص، فبدا منيرا وسهلا ومقبولا، وهذا ما أثبتته صاحبتنا فى بداية الطبعة الثانية، إذ قالت:

"قدمت الطبعة الأولى من (رسالة الغفران) وأنا أدرك تمام الإدراك أن عملى فى خدمة الغفران ودرسها لن يكتمل إذا لم أرفقها بنص محقق (لرسالة ابن القارح) لا لكونها السبب القريب المباشر الذى دعا أبا العلاء إلى إملاء رسالة الغفران فحسب، بل لأن رسالة أبى العلاء كذلك، لا يمكن أن تفهم ما لم تقرأ قبلها ومعها (رسالة ابن القارح) التى تعد بحق مفتاح الغفران"[1].

ورسالة الغفران ومثلها كثير فى الفكرة العامة: عبارة عن رحلة متخيلة إلى العالم الآخر ومثلها (الكوميديا الإلهية) لدانتى اليجيرى (إيطالى) والتوابع والزوابع لابن شهيد (الأندلسى) وربما استفادت كلها من رحلتى الإسراء والمعراج.

٢ - أبو العلاء المعرى:

لقد أسفر حب صاحبتنا لأبى العلاء عن ولادة هذا الكتاب الذى افتتحته بقولها: "لم يكن من الهين علىّ أن أجمع حياة أبى العلاء فى كتاب واحد، فحياته طويلة حافلة خصبة، وكان الرأى عندنا ألا تؤرخ جملة، قبل أن نفرغ من بحوث مفردة لكل جانب منها، وقبل ذلك، يجب أن يكون تراثه بين أيدينا محققا؛ لأنه الذى يعطينا مادة درسه، ويضئ لنا فهم شخصيته"[2].

وقد أعجبت به، وحفظت شعره، وكتبت عنه، وعاشت معه حياة مليئة بالحب والإعجاب، حتى إنها قالت: "لو كان أبوالعلاء المعرى حيا لنافس زوجى

---

(١) رسالة الغفران لأبىالعلاء المعرى، ومعها (رسالة ابن القارح) صـــ١١ (مـن مقدمـة الطبعة الثانية) عام ١٩٧٧م.

(٢) أبو العلاء المعرى صـــ٣ طبع وزارة الثقافة والإرشاد القومى .

فى حبى له" فقد أحبت فيه الصدق والإبداع وصيانة الكرامة الإنسانية، والتعفف عن المناقص والزلات التى يغرق فيها كثير من الشعراء.

وجعلت الكتاب فى خمسة فصول، اختارت فيها من إبداع أبى العلاء ما يكشف عن شخصيته، ويحدد أبرز معالمها وسائر توجهاتها، فإذا كانت تفخر بإنتاجها الفكرى وإبداعها الأدبى فإنها قد جعلت من صميم رعايتها للتراث أن توظف قدراتها البيانية فى الحفاظ على الجانب الأدبى منه تاريخا ونصا، وتجلى ذلك فى كشفها عن بعض الغوامض والرموز المبهمة فى شخصية محبوبها (رهين المحبسين) الذى أوصى بأن يُكتب على قبره:

هذا جَنَاه أبى علىّ * وما جنيتُ على أحد**

ذلك الشاعر الذى رفض الحياة فى عصره؛ احتجاجا على فسادها، وكان اعتزاله لها إنكارا لاختلال أوضاعها، ولكنه مع ذلك لم ينصرف عن قضايا مجتمعه، فشغل بها، ولم يبتعد عنها طوال عمره.

وقد اختتمت بنت الشاطئ حديثها عن حياته وشعره، فقالت: "وإنه ليعيش اليوم حيا فى ضمائرنا، يناضل من وراء ألف عام؛ ليصحح فهمنا للأدب، ويحررنا من قيم أدبية ورثناها عن نقاد سلفوا، وعصور خلت، وظلت مسيطرة علينا تحتكم فى ذوقنا للأدب، وتقديرنا لمنازل الأدباء وأقدارهم.

وسيظل حيا فى ضمائر الأجيال من بعدنا، ترى فيه أديب العربية الأكبر الذى استطاع أن يجد نفسه والظلمة من حوله كثيفة داجية والذى يستطيع اليوم وغدا أن يعلمنا رسالة الأديب وأمانة الفن وشرف الكلمة"[1].

وأخيرا:

---

(١) السابق صـــ٢٥١ .

فلقد عاشت الدكتورة عائشة عبدالرحمن حياة المجاهدين الأبرار، والمرابطين فى ساحات الفكر والإبداع، الذين لم يحصروا كل حيواتهم فى الماضى، وإنما أضافوا إليها معايشة الواقع بقضاياه المتشابكة، ومعاركه التى لم تتوقف، خاصة ما اتصل منها بقضايا المرأة كالسفور والحجاب، وتلبس الإسلام بالعنف الإجرامى، والقضايا الإسلامية المختلفة، وخاصة تلك التى تمس العقيدة مثل وثائق البهائية، والغزو الفكرى، والإصلاح الاجتماعى، إلى غير ذلك من النشاطات المتعددة، والتى بقيت فيها شامخة ورائعة، ومقاومة للباطل، ومدافعة عن الحق، إلى أن فارقت الحياة، رحمها الله رحمة واسعة، وأسكنها منازل الصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

أهم المصادر والمراجع

أولا: الكتب :

١. **أبو العلاء المعرى** ـ الدكتورة عائشة عبد الرحمن ـ بنت الشاطئ ـ طبع وزارة الثقافة والإرشاد القومى.

٢. **أدباء فى صور صحفية** ـ محمد نصر ـ طبع وزارة الثقافة والإرشاد القومى.

٣. **الإعجاز البيانى للقرآن** ـ ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية ـ د. بنت الشاطئ ـ طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٨٧م.

٤. **أم الرسول محمد** ـ آمنة بنت وهب ـ د. بنت الشاطئ طبع دار الهلال عام ١٩٥٣م.

٥. **بنات النبى** د. بنت الشاطئ ـ طبع دار الكتاب العربى بيروت ١٩٨٣م.

٦. **بنت الشاطئ** ـ رحلة فى أمواج الحياة ـ وفاء الغزالى ـ طبع أخبار اليوم سنة ١٩٩٩م.

٦. **بنت الشاطئ** ـ رحلة فى أمواج الحياة ـ وفاء الغزالى ـ طبع أخبار اليوم سنة ١٩٩٩م.

٧. **بطلة كربلاء** ـ زينب بنت الزهراء ـ د. بنت الشاطئ ـ طبع دار الهلال سنة ١٩٥٢م.

٨. **التفسير البيانى للقرآن الكريم** ـ الجزء الأول د. بنت الشاطئ ـ طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٧٧م .

٩. **التفسير البيانى للقرآن الكريم** ـ الجزء الثانى ـ د. بنت الشاطئ طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٧م.

١٠. **خطوات التفسير البيانى للقرآن الكريم** ـ الدكتور محمد رجب البيومى ـ طبع مجمع البحوث الإسلامية سنة ١٩٧١م.

١١. **رائدات الأدب النسائى (فى مصر)** ـ أميرة خواسك ـ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٩م.

١٢. **رحيق المعرفة ـ الدكتور/ السيد محمد الديب** ـ توزيع مكتبة الآداب بالقاهرة طبع عام سنة ٢٠٠١م.

١٣. **رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى تحقيق** / د. بنت الشاطئ ـ طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٧م.

١٤. **شخصيات إسلامية معاصرة** ـ إبراهيم البعثى ـ مطبعة الشعب ١٩٧٠م.

١٥. **صور من حياتهن د. بنت الشاطئ** ـ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م.

١٦. **على الجسر ـ أسطورة الزمان** ـ د. بنت الشاطئ ـ طبع دار الهلال.

١٧. **مصادر الأدب النسائى** ـ دكتور جوزيف زيدان، طبع النادى الأدبى الثقافى بجدة سنة ١٩٨٦م.

١٨. **مع المصطفى فى عصر المبعث** ـ د. بنت الشاطئ ـ طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٤م.

١٩.**مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الاصطلاح** ــ تحقيق د. بنت الشاطئ ــ طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٩٠م٠

٢٠.**نساء النبي ـ عليه الصلاة والسلام** ــ د.بنت الشاطئ ــ طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٥م٠

ثانيا: الدوريات:

جريدة الأهرام عام ١٩٩٢ ـ فى ٥/ ٣ (حديث رمضان)٠

عام ١٩٩٣ ـ فى ١/ ٧ (شاهدةعصر) ٠

عام ١٩٩٤ ـ من ١١/ ٢ إلى ٣/١٢ (حديث رمضان)٠

عام ١٩٩٥ ـ فى ١٢/ ١ (شاهدة عصر) ٠

عام ١٩٩٦ ـ فى١/ ٨، ٨/ ٨، ١٥/ ٨، ٢٦/ ١٢ (شاهدة عصر)٠

عام ١٩٩٧ فى ٥/٨، ٢٤/٧ (شاهدة عصر)٠

عام ١٩٩٨ فى ٣/٥، ١١/١٩، ١١/٢٦ (شاهدة عصر)٠

فى ١٢/١٩ إلى ١٢/٢٥ (حديث رمضان، وهذه هى الحلقات الست التى نشرت بعد وفاتها) علما بأن المقالة الخامسة قد نشرت فى يومين ٠

عام ١٩٩٨ فى ٢٢/ ١١ (الحوار الأخير معها)٠

عام ١٩٩٨ فى٢/ ١٢، ٣/ ١٢، ٤/ ١٢، ٦/ ١٢، ١٢/٧، ١٢/٨، ١٢/١٠، ١٢/١١، ١٢/١٥، ١٢/١٦، ١٢/١٨، ١٢/٢١، ١٢/٢٣، ١٢/٢٧، ١٢/٣٠

عام ١٩٩٩م فى ١٤/ ١ ٠

عام ٢٠٠٧ فى ١٢/١١ ٠

عام ٢٠٠٨ فى ٣/١٢، ٥/ ٢٠٠٤م٠

****

الفصل الثاني

قضايا تعليمية

(١) التعليم الأزهرى بين الماضى والحاضر.

(٢) جامعة القاهرة ... المئوية وقضايا أخرى.

(٣) جمع المخطوطات وتحقيقها وآثار ذلك في إحياء التراث العربي.

(٤) الوعى الديني لدى طلاب المرحلة الابتدائية.

١- التعليم الأزهري بين الماضي والحاضر(*)

أولاً: الدولة الفاطمية وبناء الأزهر.

دخلت مصر في تبعية الدولة الفاطمية، القادمة من المغرب، في عهد الخليفة المعز لدين الله، وكان جوهر الصقلي قائدا للفتح، ومحققا للنصر علي الإخشيديين في السادس عشر من شعبان (٣٥٨هـ) (أول يوليو ٩٦٩م).

وعاشت مصر- وهي كنانة الله في أرضه- في عداد المذهب الفاطمي الشيعي، وهو فكر سياسي أكثر من كونه فكرا دينيا، وقد شرع جوهر في بناء الجامع الأزهر، بدءاً من يوم السبت الرابع عشر من رمضان عام (٣٥٩هـ)، وتم بناؤه في سنتين تقريبا، وأقيمت الصلاة فيه لأول مرة في السابع عشر من رمضان عام (٣٦١هـ).

وبدأ الأزهر مسجدا كغيره من المساجد في إقامة الشعائر الدينية، ثم أصبح جامعة يتلقي فيها طلاب العلم ورواده من كل حدب وصوب- مختلف العلوم والثقافات والفنون، وتأكد منذ بداية نشأت هذا الجامع ارتباطه بالسلف الصالح، وما يمثلونه من توطيد للعلاقة الحميمة بكل عطاءات القرآن الكريم والسنة النبوية، وأسهم في نشاطات هذا الجامع والجامعة هجرة العلماء إلي مصر مما أثر في بعث علوم الدين ونشر روح الحرية وتعدد الثقافات بما يتواكب مع روح العصر، ومتطلبات النشأة تحت مظلة الفقه الشيعي.

وعمل الخلفاء الفاطميون علي جذب الطلاب إليه من كافة أرجاء البلاد الإسلامية بما كانوا يقدمونه إليهم من مأكل ومسكن وسائر وسائل المعيشة

(*) تم تسجيل هذا الموضوع بالبرنامج الثقافي في صورة حلقة نقاشية حوارية تحت عنوان التعليم الأزهري بين الواقع والمأمول، وذلك في يوم الثامن عشر مايو ٢٠٠٧م وأذيع بعد هذا التاريخ في برنامج قضايا تربوية.

وأسباب الراحة، من غير أجر، حتى يتفرغوا لتحصيل العلم وزيادة المعرفة، ثم يعودون إلي أوطانهم في الخارج وإلي بلدانهم في سائر ربوع مصر.

وبدأ التحول من المذهب الشيعي إلي المذهب السني في بداية عهد الأيوبيين وإن كان صوت الأزهر قد خمد في عهد الناصر صلاح الدين، ولربما كان ذلك راجعا بسبب انشغاله بإنماء الدولة الأيوبية، وتوسعها وانشغاله الأكبر بمقاومة الصليبيين وإجلائهم عن الأرض العربية في الشام وغيره من البلاد المجاورة.

لقد شارك الأزهر- جامعا وجامعة- في الحفاظ علي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف واللغة العربية، وأدب العرب وعلوم البلاغة وأصول اللغة، كما حرص من خلال علمائه الأفذاذ علي حرية الفكر، ووسطية الرأي، ومقاومة أي غزو ثقافي يهدد الهوية العربية والإسلامية، وإنكار أي تطرف في الرأي وأي تشدد في الحكم يمكن أن يسيىء إلي العقيدة الصحيحة، أو ينحرف ببعض الناس إلي مهاوي الفساد والضلال.

ولم تتوقف رسالة الأزهر علي العبادة وتدريس العلوم وإنما كان له دور سياسي بارز عبر تاريخه الطويل، وقد كتب الدكتور أحمد زكي رحمه الله يقول: "والأزهر قلعة صامدة أمام كل غزو استعمارى أجنبى لمصر، أو لبلاد المسلمين، سواء كان هذا الغزو فكراً أم جيوشا تحتل البلاد... فالأزهر تنطلق منه دائما صيحة الحرية، ونداء التحرير وأمل الخلاص من الوافد الثقيل... وكان علماء الأزهر هم رأس الحربة التي انغرست في طموح نابليون وجيوشه في مصر، وأجهزت علي آمالهم فقامت ثورة القاهرة تقتلع الوجود الفرنسي وتنسف أمنة واستقراره [١].

(١) الأخبار في الثامن والعشرين من مارس ١٩٨٣م.

وقد تصدي الأزهريون للحملة الفرنسية خاصة عندما دخلت خيول نابليون الأزهر، وبدأت في تدمير تراثه بسنابكها، وشنت مدافع الحملة قذائفها نحو الأزهر، فتداعت جدرانه، وألقي الجنود القبض علي زعماء الثوار، وهم علماء الأزهر، وتم إعدام خمسة منهم، وألقيت جثثهم للوحوش في جبل المقطم، ورحل نابليون وبقي الأزهر.

نهض الأزهر برسالته ودوره البارز والمهم، في تعليم اللغة العربية، ودراسة الدين الإسلامي، والتعرف علي الأديان الأخرى دون أن يغفل عن حق الوطن في الحماية والصيانة لعقائده ومقدساته، كما امتدت آثاره إلي سائر مشتملات الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية في مصر والعالم العربي، وسائر قارات العالم طوال رحلته مع التاريخ، وفي إحدي الاحتفالات الخاصة بتطوير الأزهر، وانتقاله من مرحلة إلي أخري، قال الشاعر أحمد شوقي قصيدة حيّا فيها الأزهر، وامتدح رجاله وأعلامه الأفذاذ:

قُمْ في فمِ الدنيا وحيِّ الأزهرا *** وانثرْ علي سَمْعِ الزمانِ الجوهرا

واجعلْ مكانَ الدرِّ إن فصلته *** في مَدْحِه خَرَزَ السماء النَّيِّرا

واذكره بعد المسجدين معظِّماً *** لمساجد الله الثلاثة مُكْبِرا

واخشع ملياً، واقض حق أئمةٍ *** طلعوا به زُهْراً وماجُوا أبْحُرا

كانوا أجلَّ من الملوكِ جلالةً *** وأعزَّ سلطانًا وأفخمَ مَظْهراً[1]

(١) ديوان أحمد شوقي جـ١ صـ٤٦١.

ثانياً: نظام الدراسة في الأزهر إلى ما قبل عام ١٩٦١م

لم يتم – في البداية – وضع قانون الدراسة في الأزهر تحت نظام معين، ولما تقدمت السنون، وشهد الأزهر اتساعا في الفكر، وتنوعا في الرأي، وتعددت المعارف التي نهض الأزهر بتقديمها لطلاب العلم، وأصبحت الحاجة ملحة إلي وضع القوانين المنظمة لهذه النوعية من الدراسة، فوضعت القوانين المتعاقبة مسايرة لسنة الحياة في التغير والتطوير وفي بداية عصر إسماعيل[١] كانت تُدَرّس بالأزهر علوم الفقه والأصول والتفسير والحديث والتوحيد، والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع، ومتن اللغة، والعروض والقافية، والحكمة الفلسفية، والتصوف، والمنطق، والحساب، والجبر والمقابلة، والفلك، والهيئة، كما كانت تُقرأ بعض العلوم الأخرى كالتاريخ والهندسة[٢].

وصدر أول قانون للأزهر سنة (١٨٧٢م) وتوالت بعده القوانين، وتعديلاتها التي كانت تنتقل من طور إلي آخر، لزيادة هيئات الأزهر، ونظام مَنْح الشهادات وغيرها، إلي أن تم وضع قانون (٩) لسنة ١٩٣٠م والذي عُدّل إلي قانون آخر في عام (١٩٣٦م) وقد جعل هذا القانون التعليم بالأزهر من خلال أربع مراحل، وتم إدخال دراسة اللغة الأوربية واللغات الشرقية علي مناهج التعليم، وفي هذه المدة حتى عام ١٩٦١م كان الطالب المتقدم للالتحاق بالأزهر حافظا للقرآن الكريم، وملما بالقراءه والكتابة والحساب، في مستو متقارب للتلميذ الذي أتم المرحلة الأولي بالتعليم العام.

كان المتقدمون إلي الأزهر ممن أمضوا عدة سنوات في المدارس الأولية مع مواصلة الدراسة بالكتاتيب التي أنيط بها تحفيظ القرآن الكريم، أو أن يكون

---

(1) تولي الخديوي إسماعيل عرش مصر في ١٨ يناير عام ١٨٦٣م إلي ١٦ يونيو ١٨٧٩م.
(2) الأزهر وما حوله من الآثار نشر الهيئة المصرية للتأليف والنشر عام ١٩٧٠

هذا التلميذ قد حفظ القرآن الكريم في جمعيات دينية مثل جمعيات المحافظة علي القرآن الكريم، ويدخل الطالب الأزهر بدءا من المرحلة الابتدائية، التي كانت الدراسة فيها أربع سنوات، وتلك المرحلة التي سميت فيما بعد بالمرحلة الإعدادية، حيث يدرس الطالب فيها علوم الأزهر المتنوعة: الدينية واللغوية والثقافية، وكان الطالب بعد هذه المرحلة ينتقل إلي المرحلة الثانوية، وهي التي يزداد فيها تعمقا في دراسة اللغة والأدب المنطق والتفسير والحديث والبلاغة، فضلا عن المواد الأخرى، وكانت مدة الدراسة في هذه المرحلة خمس سنوات، وتأتي بعدها مرحلة التعليم العالي حيث يختار الطالب فيها نوعا من الدراسة بإحدي الكليات وهي الشريعة وأصول الدين واللغة العربية، ثم تأتي بعد ذلك المرحلة النهائية وهي الرابعة والتي يكون إتمامها بمثابة إجازة في ممارسة التخصص، ومدة الدراسة فيها سنتان وأقسامها هي:

(١) قسم إجازة القضاء الشرعي.

(٢) قسم إجازة الدعوي والإرشاد.

(٣) قسم إجازة التدريس.

ويصير من أتم الدراسة في هذه الأقسام حاصلا علي شهادة العالمية، مع الإجازة في القسم الذي تخصص فيه[1].

ثالثاً: التغيير والتطوير:

صدر في الخامس من يوليو عام ١٩٦١م القانون رقم ١٠٣ بشأن إعادة تنظيم الأزهر والهيئات التي يشملها وهي:-

(١) المجلس الأعلى للأزهر.

(٢) مجمع البحوث الإسلامية.

([1]) راجع السابق صـ٥٠، ٥١

(٣) إدارة الثقافة والبحوث الإسلامية

(٤) جامعة الأزهر.

(٥) المعاهد الأزهرية.

وفيما يتصل بالهيئة الرابعة فقد اعتبرت نصوص القانون المذكور تجديدا شاملا للتعليم في كليات الأزهر " ونُصَّ فيه علي أن تختص بكل ما يتعلق بالتعليم العالي في الأزهر، وعلي أن تعمل علي إظهار حقيقة الإسلام وأثره في تقدم البشر كما تهتم ببعث الحضارة العربية" [١]

ولم تعد الدراسة في جامعة الأزهر في ظل هذا القانون قاصرة علي الكليات الثلاث المذكورة سلفا، وإنما أضيفت إليها كليات جديدة في العلوم التجريبية الحديثة مثل كليات الطب والهندسة والزراعة والتجارة وغيرها، وأنشأ الأزهر كلية للدراسات العربية والإسلامية تتم الدراسة فيها علي النظام القديم في صحن الجامع تحت اسم المعهد العالي للدراسات العربية والإسلامية آنذاك، ولم يكن التطوير قاصرا علي المرحلة الجامعية، وإنما شمل أيضا المرحلتين الآخرين وهما الابتدائية (الإعدادية) و (الثانوية) كما صدر في عام ١٩٦٣م قرار بإنشاء معهد أزهري للفتيات وكان مقره آنذاك بالمعادي وهدفه (تخرج فتيات مؤمنات صالحات)، لتربية جيل جديد تعتمد عليه الأمة في مستقبلها[٢]

أولها: ما تم في مرحلة تالية من تخفيض للدراسة في التعليم الثانوي من خمس سنوات إلي أربع، وبعد مرحلة تالية تم تقليل سنوات الدراسة في التعليم الإعدادي من أربع إلي ثلاث سنوات ولم يتوقف تقليل سنوات الدراسة عن هذا الحد، وإنما حدث تخفيض ثالث بالتعليم الثانوي من أربع إلي ثلاث سنوات، ذلك التخفيض أو الانكماش الذي جاء مصحوبا بحملة رفض قوية من الكثيرين بالأزهر وغيره واقترن ذلك بضجة أو ثورة إعلامية كبيرة ، لأنه قد تم إقراره في وقت كانت الشكاية فيه كبيرة ومتعددة من ضعف المستوي العلمي للطلاب الأزهريين بالنظر إلي الحالة التي كان عليها أسلافهم قبل عام ١٩٦١م وبعدها بعدة سنوات.

ثانيها: السماح أولا لطلاب الثانوية العامة بدخول الكليات الأزهرية، خاصة الكليات المعملية، وكان يسبق هذا الدخول قضاء هؤلاء الطلاب لعام دراسي يؤهلون فيه لدخول جامعة الأزهر، وذلك بدراسة بعض المقررات من العلوم العربية والدينية والثقافية، دون أن يدرس الطالب شيئا من المقررات التخصصية حسب الكلية التي سينتظم فيها، وكان ذلك العام يسمي بالسنة التأهيلية، وجاء هؤلاء الطلاب إلي الأزهر، لدراسة بعض التخصصات التي لم تؤهلهم درجاتهم لدراستها في التعليم الجامعي (العام)،أو أنهم جاءوا إلي الأزهر بمجاميع عالية ومستويات علمية مرتفعة؛ رغبة في اختيار نظام الدراسة بهذه الجامعة الأزهرية العريقة من حيث الجمع بين دراسة العلوم التجريبية ودراسة العلوم الدينية واللغوية والثقافية، ولا شك في أن هذا الدمج كان ثقيلا علي الطلاب في الجمع بين منهجين هما التعليم الأزهري والتعليم العام، وربما كان تحول الطلاب بعد الثانوية العامة إلي جامعة الأزهر أقل ضررا من حيث المستويات العلمية والثقافية للطلاب أثناء الدراسة وبعد

التخرج، أما الوضع الذي كان أشد خطرا بخصوص مستوي الطلاب فهو قبـول أعداد كثيرة من التلاميذ بعد حصولهم علي الشهادة الإعدادية العامـة بمجـاميع ضعيفة من ناحية الدرجات، مما أسهم في تدني المستوي العلمي لهذا الفريق مـن الطلاب، الذين جاءوا إلي الأزهر وهم غير مؤهلين غالبا للدراسة فيه.

وكان الطلاب بالجامعة الأزهرية في أواخر الستينات وما بعدها إلـي مـا يقرب من ثلاثين عاما بعد هذا التاريخ في مستويات متفاوتة، لأنهم إما أن يكونوا أزهريين ابتداء من المرحلة الإعدادية، أي أنهم أزهريون من الأصل، وإمـا أن يكونوا قد دخلوا الأزهر بعد حصولهم علي الإعدادية العامة أي بدءاً من الدراسة الثانوية، وإما أن يكونوا قد بدءوا الدراسة الجامعية بالأزهر، بعد حصولهم علـي الثانوية العامة، وأنتظامهم بدراسة السنة التأهيلية، فكانت هذه التكوينـات إيـذانا باهتزاز صورة الكثيرين من الطلاب الأزهرين الأصلاء والدخلاء، وإن لم يخلوا جميعا من وجود أعداد قليلة متميزة في دراساتهم، التي يرجع تميزها غالبا إلـي رغبة الطالب، وعناية ولي الأمر، وأسباب أخري متنوعة.

وينضم إلي هذه الطوائف أعداد كثيرة من الطلاب الوافدين من شتي بقـاع العالم، وبخاصة أسيا وأفريقيا، وذلك في التعليم الجامعي وما قبله، وهكـذا كـان الحال أو بعضه في مرحلة ما بعد عام ١٩٦١م حيث استتبع هذا التحول حتميـة التغيير في المناهج والتخصصات، فيما يتصل بالمرحلتين الإعدادية والثانويـة إذ كان التغيير فيها من ناحية المقررات مستمرا علي عكس ما كان عليه الحال فـي التعليم الجامعي من هدوء واستقرار.

رابعا: خصائص المناهج في المرحلتين الإعدادية والثانوية.

(١) المواد الدينية

كان الطلب مع بداية العمل بالقانون الجديد يدرس المواد الدينية، التي يتحتم من خلالها العناية بالقرآن الكريم، وكانت الامتحانات فيه جادة ومنضبطة تحريرية وشفوية، ومن هذه المواد المذكورة دراسة التفسير في المرحلة الثانوية بالاعتماد علي كتب التراث لهذا النوع من الدراسة، والتي يعتني فيها بالبلاغة والنحو والصرف مثل تفسير النسفي ومن هذه المواد الفقه والتوحيد والحديث النبوي والحضارة الإسلامية.

(٢) المواد اللغوية والأدبية:

كانت الدراسة قبل الجامعة تعتمد علي كتب التراث غالبا، وهي التي أسست كثيرا من العلماء الأفذاذ، الذين تخرجوا من كليات اللغة العربية والتي أضيفت إليها كليات الدراسات الإسلامية والعربية وغيرها، إذ كان إتمام التعليم بالثانوي الأزهري صارما وقويا ومؤهلا ومؤسِّسا للطلاب قبل التحاقه بالجامعة، حيث كان التراث ولازال ينبوعا ثرّاً وغزيرا لسائر مواد اللغة العربية في كل الأقسام التخصصية، ففي النحو تدرس كتب شرح ابن عقيل علي ألفيه ابن مالك وشذور الذهب، وأوضح المسالك وغيرها، ومن مواد الدراسة علم العروض والقافية وعلوم المنطق والبلاغة والصرف وغيرها.

(٣) المواد العلمية والثقافية:

هذه المواد التي تقدم للطلاب في وزارة التربية والتعليم، سواء أكانت نظرية أم عملية مثل التاريخ والجغرافيا والجيولوجيا والمجتمع، والكيمياء والفيزياء والرياضيات وغيرها. ولكن هل استوعب الطلاب كل هذه المناهج بدرجة مقبولة، أم أنهم عجزوا عن استيعابها، نظرا لقدراتهم المتفاوتة.

لقد عاش الطلاب الأزهريون بعد عام (١٩٦١م) إلي ما يقرب من عام (١٩٨٠م) عاشوا حب متطلبات النظام الجديد والمناهج المطورة، وكأنهم كانوا امتداداً لأسلافهم الذين كانت البصمة الأزهرية واضحة في معارفهم وتوجهاتهم، وعندما بدأ التخفيض لسنوات الدراسة، واستقبال الطلاب الذين لم يكونوا أزهرين أصلا بدرجاتهم الضعيفة، مع تقليص لبعض المناهج خاصة العلوم الأزهرية، عند ذلك بدأ المستوى التعليمى للطلاب في الانحدار ابتداء من المرحلة الابتدائية والتي تسبق الإعدادية التي كثرت معاهدها في المدن والريف يوما بعد يوم.

خامسا: المستوي العام للطلاب في مراحل ما قبل التعليم الجامعي

إن ضعف الطلاب في المستويات العلمية لا يقتصر علي الأزهر وجامعته، وإنما هو وضع عام يشمل الطلاب جميعا في سائر المراحل والتخصصات لكن امتداده إلي التعليم الأزهري قبل الجامعي أمر يدعو إلي القلق، كما يفتقد مشروع التطوير كثيرا من أهدافه وطموحاته؛ لأن المستوي الذي ينشده المجتمع بسائر فئاته لا يرقي إليه الواقع بأي شكل من الأشكال، فهو أقل من المتوسط بكثير حيث يتجلي بوضوح للذين يشتركون في منظومة التعليم الأزهري بشكل عام، إذ لا نتوقع تحسنا ملموسا في المدي القريب، بل إن الأمر ربما يزداد صعوبة وتعقيداً، أو ضعفاً خاصة في ظل إحساس الكثيرين من الطلاب بعدم وصولهم إلي وضع عملي متميز، بمؤهلاتهم التي يَسعَون إلي الحصول عليها، فالطلاب يدرسون مناهج كثيرة متنوعة ومعبرة عن مستلزمات الواقع، وذلك في سنوات دراسية محددة، وأن الذين يدرسون لهم يحتاجون غالبا إلي تقوية ودربة وتطوير، ومعالجة لما يعانون منه من رواتب ضعيفة وهموم كثيرة.

وقد أسهم في زيادة الضعف في المستوي العلمي خاصة العلوم الدينية واللغوية حذف الكثير من مفردات المناهج، وضعف العناية بحفظ القرآن ودراسة

أحكامه، مما يزيد الحسرة علي ما آل إليه الحال، ذلك أنه يستلزم تحقيق التـــوازن بين العلوم الدينية والعلوم الأخرى، التي يشترك فيها طالب الأزهر مـــع طالـــب التعليم العام.

سادساً: الإصلاح أو الإنقاذ:

لا بد من النظر الجاد لمستوي التعليم الأزهري، رغبة في إصلاحه أو إنقـــاذه من الخطر الذي يهدده، ولا بد في غمرة البحث عن هذا الإصلاح من حتمية البـــدء بحفظ التلاميذ للقرآن الكريم حفظا جيدا إذ أن كتاب الله يسهم بارتباط التلميذ بمعهـــده الديني، وأن حفظه يدفع إلي مزيد من التفوق والتميز، لكن كيف يكون ذلك؟؟ يكـــون من خلال عودة الكتاتيب التي تقوم بتحفيظ القرآن بصورة لا يشترط أن تكون علـــي الوضع القديم، وإنما يجب أن تكون مطابقة مع روح العصر ومتطلباته وتطوير وسائل الاستظهار للقرآن الكريم، لتكون مرغبة وليست منفرة ويجب إعطاء هذا الأمر مزيدا من الأهمية بحيث لا ينتقل الطالب من فرقة إلي أخري، إلا إذا أجاد المقـــرر حفظـــه بنجاح، لأنه كما قال شيخ الأزهر" ليس أزهريا من لم يحفظ القرآن الكريم "[1].

ولا بد أيضا من عودة السنة الدراسية الرابعة إلي التعليم الثـــانوي- علـــي الأقل- لأن تخفيض السنوات لا يمكن أن يؤدي إلي رفع المستوي التعليمي، كمـــا أن تطوير التعليم الأزهري مطلب تربوي هام في ظـــل البحـــث عـــن الجـــودة وضمانها في سائر مراحل التعليم، لكن أن يكتفي ببتر بعض الفصول أو الأبواب من الكتب التراثية وتقديمها للطلاب دون العمل علي إعدادهم وتجهيزهم للتعامـــل مع ما يقدم لهم في هذه المؤلفات القديمة فبقاء الحال علي ما هو عليه يؤدي إلـــي

([1]) هو الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي – رحمه الله- .

مزيد من الضعف والتقهقر وضياع مكانة الأزهر، التي كانت موضعا للإعجاب والتقدير في مصر وغيرها من البلدان العربية والأجنبية.

إن المعلم هو أساس التطوير في منظومة التعليم، وكلما اتجهت العناية بطوائف المدرسين علي اختلاف تخصصاتهم كلما كان ذلك في مصلحة التعليم بالأزهر، الذي نحزن كثيرا علي واقعة ونترحم علي ماضية الذي يوشك أبناؤه الكبار- في الوقت الراهن- أن يتواروا عن الواقع المعاش.

وقد صار مطروحا الآن البحث عن مخرج لهذا الوضع، ومن المقترحات الأزهرية في هذا الأمر إعطاء الكليات الأصلية (اللغة العربية- أصول الدين - الشريعة)، ومعها الدراسات الإسلامية والعربية، وضعا خاصا تتميز به عما سواها من ناحية اختيار الطلاب، وتطوير المناهج وتدريب المعيدين والمدرسين المساعدين، والمدرسين أيضاً علي التعامل مع مستلزمات الجودة في سائر التخصصات، حيث تعد هذه الكليات ومعها أيضا كلية القرآن الكريم ممثلة للأزهر الشريف بماضية وحاضره، دون أن تبتعد الكليات العملية وبعض التخصصات الأخرى عن منهجية الإسلام ووسطية واعتداله، وبحيث يبقي الأزهر كلا واحدا دون تمزيقه وير بعض مؤسساته من بعض، وبحيث تسير كل هيئاته خاصة التعليم الجامعي وما قبل الجامعي في طريق التطوير والتحديث أسوة بنظائرها من الجامعات الأخرى، مع الحفاظ علي تميز الأزهر واستقلاله ومعاونته علي أداء رسالته الخالدة.

سابعا: النتائج والتوصيات.

(١) لقد عاش الأزهر حياته الطويلة مدافعا عن الإسلام وحارسا للعقيدة الدينية وقائدا للثورات في مصر وسائر البلدان العربية والإسلامية، وقد

أسهم في إنماء حضارة مصر الفكرية، التي لم تنفصل عن لغة القرآن الكريم ووسطية الإسلام، ومن الخطورة التي ينبغي التنبيه لها محاولات التقليل من شأن الأزهر وعلمائه خاصة في وسائل الإعلام التي تغفل كثيراً رسالة العلماء، وتلجأ إلي كثير من الأصوات المناوئة التي تتحدث عن الأزهر، دون أن تكون معبرة عن الماضي والحاضر والمستقبل لهذه المؤسسة العالية المتميزة.

(٢) لازال الخلاف قائما بين علماء الأزهر وغيرهم من رواد التنوير فيما يتصل بالقانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١، والذي عرف بقانون تطوير الأزهر، وقضي بإدخال العلوم الحديثة فيه، فصار الطالب الأزهري خاصة في المراحل التي تسبق التعليم الجامعي مثقلاً بمناهج التعليم الأزهري ومناهج التعليم العام، وعليه رأي كثير من العلماء أن هذا القانون وتعديلاته قد فسد الأزهر، وصرفه عن رسالته التي أُسندت إليه وارتبطت به طوال عمره المديد، الذي تجاوز الألف سنة، بينما يري الآخرون أن التطوير سنة الحياة، وأن أخطار التنفيذ لا تهدم الفكرة أو الهدف، كما أنه من الضروري أن يمتد التطوير إلي سائر الجهاز الإداري علي كافة مستوياته بالأزهر جامعا وجامعة.

(٣) لقد كان احتفال مصر وكثير من بلدان العالم الإسلامي بألفية الأزهر إعلانا عن نهوض الأزهر برسالته المتعددة الأهداف، ومن خلال الدور التعليمي والمتحقق في الجامعة والمعاهد الدينية بمراحلها الثلاثة، كما يأتي مع هذا الدور التعليمي الدور التوجيهي، الذي ينظم تحت لوائه لجان الفتوى ومجمع البحوث الإسلامية، والمجلس الأعلى للأزهر، مع

حتمية توحيد هذا الدور وتفعيله بالجمع بين لجنة الفتوى بـــالأزهر ودار الإفتاء المصرية.

(٤) وجوب العناية بحفظ القرآن الكريم، ويفضل أن يستكمل حفظـــه قبـــل الانتهاء من المرحلة الابتدائية، واستمرار الطالب في استظهار حفظـــه، قبل الانتهاء من الدراسة الجامعية، كما ينبغي الحرص علـــي تـــدريس علوم اللغة العربية خاصة ممن يؤهلون للعمـــل فـــي الـــدعوة الدينيـــة والتدريس، مع ضرورة التوازن بين العلوم الشرعية والدينية والعربيـــة والعلوم الأخرى بدءاً من المراحل المتقدمة التي تسبق التعليم الجامعي، وأن القضية المهمة في شأن الأزهر تنصرف إلي العناية بالمقررات في المعاهد علي اختلاف درجاتها، والكليات الأصيلة التي تمثـــل الأزهـــر تمثيلا يترابط فيه الحاضر بالماضي، وهـــي كليـــات أصـــول الـــدين والشريعة الإسلامية، واللغة العربية والكليات والأقسام المتوافقة معهـــا سواء أكانت للبنين أم للبنات.

(٥) يجب أن يحظى الأزهر الشريف بكامل هيئاته بالعناية والاهتمام مـــن سائر هيئات الدولة ووزارتها، مع رصد الميزانية التي تؤهلـــه للقيـــام برسالته، وأن دعم الميزانية يمكن أن يتحقـــق مـــن خـــلال اســـترجاع الأزهر لأوقافه، التي آلت في مدي علمنا- إلي ميزانيـــة الدولـــة فـــي أزمنة سابقة.

(٦) لا بد أن يحظى المعلم الأزهري بمزيد من العناية التثقيفيـــة والتقـــدير المادي مما يسهم في الارتقاء بهذا النوع مع التعليم، والذي يعبر عـــن وسطية الإسلام التي ينهض الأزهر بالدعوة إليها وتطبيقها، كما ينبغـــي

تنمية النشاط البحثي واختيار بعض الأزهريين للمشاركة في القيادات الحكومية وفق التخصصات المطلوبة.

(٧) يجب العناية بطالب الأزهر في الحواضر والبوادي، وفي القاهرة وفي قلب الصحاري، ذلك أن رسالة الأزهر ينبغي أن يشارك في تحملها والنهوض بها قل الأزهريين أينما كانوا، وقد لوحظ في خريجي كليات الدعوة أنهم في حاجة إلي عناية واهتمام وتطوير في المناهج، وطرق التدريس؛ لأهمية العناية بإعداد الدعاة، ومن سيعملون بالتدريس.

(٨) لقد علت الأصوات في السنوات الأخيرة بالفصل بين الكليات الشرعية والعربية، والكليات العملية بمعني تقسيم الجامعة أو تفتيتها إلي قسمين أو أكثر، تلك الدعوة التي تحمس لها كثير من الأساتذة، ورفضها مجلس الجامعة.

(٩) ينهض الأزهر بدور فعال ومؤثر فيما يخص الطلاب الوافدين الذين جاءوا إلي مصر لطلب العلم وفق مناهج الأزهر في العلوم الدينية والتي تعبر عن وسطية الإسلام.

(١٠) لا يصح أن تؤخذ كتب التراث الديني والإسلامي والعربي دون تنقيحها، وتقديم الشروح المناسبة لها، وإيضاح القضايا التي تعرض لها، بما يتوافق مع متطلبات العصر.

(١١) يجب إعادة النظر في الضوابط الحاكمة لاختبار قيادات الأزهر، خاصة شيخ الأزهر، وهيئة كبار العلماء، ومجمع البحوث الإسلامية، وما سواها من الهيئات التي يشملها الأزهر، والتي يُناط بها وضع المناهج والخطط للتعليم الأزهري الذي يسبق الجامعة.

(١٢) لقد بدأ الأزهر- أخيرا في عهد شيخه الحالي [1] إحياء النظـام القـديم، وذلك بإقرار نوع من الدراسة الدينية والعربية، حتى ليـنهض الدارسـون، وفق هذا النظام يتمثل الأزهر القديم، والتعبيـر عنـه وأحيـاء تاريخـه، والنهوض بالدور المهم في خدمة قضايا الإسلام، واللغة العربية، والعنايـة بمتطلبات الدعوة التي يحتم النهوض بها في مصر وخارجها.

إن الأمل كبير لتحقيق الأزهر لأهدافه، وبعث نهضته وتميـز خريجيـه، وعلو صوته، داخل مصر أو خارجها مع تطوير الأداء في الرابطـة العالميـة لخريجي الأزهر، والله الموفق.

أهم المصادر والمراجع

توجد أعداد كثيرة من المصادر والمراجع في هذا الموضـوع، ونختـار الأقرب منها، ومن أراد التوسعة فسوف يجد ما يريد، وهذا بعض ما رجعنا إليه في هذا الموضوع:

١. **الأزهر جامعا وجامعة**- محمد كمال السـيد - طبـع مجمـع البحـوث الإسلامية عام ١٩٨٦م.

٢. **الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة** - محمد كامل الفقى- طبع نهضة، مصر عام ١٩٦٥م.

٣. **الأزهر وما حوله من الآثار** د. عبد الرحمن بدوي - نشر الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر عام ١٩٧٠م.

٤. **ديوان أحمد شوقي** - طبع نهضة مصر عام ١٩٨٠م.

---

(١) هو الدكتور/ أحمد محمد أحمد الطيب

٥. **قانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١**- طبع الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية عام ١٩٩٢م.

٦. مصر المجاهدة في العصر الحديث- عبد الرحمن الرافعي- الحلقة الثالثة- طبع المطابع الأميرية عام ١٩٥٩ ج ٣، صـ ١٦٧.

٧. **وحي الرسالة**- أحمد حسن الزيات - طبع مطبعة الرسالة عام ١٩٦٤م أجزاء ١، ٢،٣.

٨. **ودخلت الخيول الأزهر** - محمد جلال كشك، طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٧٨م.

صحف

١. **الأخبار** عام ١٩٨٣ في ٣/١٦ ، ٣/٢٣، ٣٠/٢٨.

٢. **الأهرام** عام ١٩٧٩ في ٦/١٥.

٣. **الأهرام** عام ١٩٨٣ في ٤/٣.

٤. **الأهرام** عام ٢٠٠٧ في ٥/٨ ، ٦/٢١، ٨/١٢، ٨/٢٤، ٨/٣١، ٩/١٦.

٥. **الأهرام** عام ٢٠٠٨ في ٢/٢، ٨/٢٢، ١٠/١٥.

٦. **الجمهورية** عام ٢٠٠٧ في ٦/٢٢.

****

٢- جامعة القاهرة .. المئوية، وقضايا أخرى

١. من صحائف التاريخ:

إن جامعة القاهرة من أهم المشروعات العلمية، التى شهدتها مصر فى القرن العشرين، وأسهمت فى النهضة التعليمية، وانتقلت بالوطن إلى مرحلة جديدة، كان الدافع الأقوى فيها هو الحفاظ على هوية الأمة وثقافتها، وبعث نهضتها، وتحرير إرادتها؛ اقتداء بدول الغرب فى كثير من علومه ومعارفه، واستحضار معطيات التراث العربى الأصيل.

ومن الواضح فى قضية إنشاء الجامعة أن الأمور لم تكن سهلة ميسرة فى المخاضات الأولى، التى سبقت ولادة هذا الصرح الكبير.

ويأتى الاحتفال بالمئوية مواكباً للدعوة إلى مسايرة جامعات الدول الأخرى فى السبق والتميز، وتحقيق مستوى أفضل مما كان عليه الحال فى سنوات سابقة، إذ جاء ترتيب الجامعات المصرية متدنياً وفاضحاً فى الوقت نفسه لمنظومة التعليم الجامعى، مما جعل المؤسسات البحثية والتعليمية مشغولة بقضية التطوير فى التعليم الجامعى بشكل خاص، وتجلى ذلك فى إنشاء " الهيئة القومية لضمان جودة التعليم والاعتماد "[١].

ويرتبط تاريخ التأسيس للجامعة بشخصية الزعيم مصطفى كامل، والذى يعتقد أنه صاحب فكرة الإنشاء، إذ كتب فى مجلة اللواء عام ١٩٠٠م دعوته الأولى إلى تأسيس الجامعة، مقترحاً أن يكون اسمها "المدرسة الكبرى"، وقد نشر مقالاً آخر عام ١٩٠٤م واختار اسماً جديداً هو "المدرسة الكلية"، ثم اقترح

---

(١) جزء من نص المادة "١ " من القانون " ٢٨٢ " لعام ٢٠٠٦م، والتى تقول " تنشأ هيئة عامة ،تسمى الهيئة القومية لضمان جودة التعليم والاعتماد ".

بعد ذلك أن يكون اسمها " كلية محمد على"؛ تخليداً لـذكرى باعث النهضة المصرية(1). وتحمس لهذه الأفكار أنصار الحزب الوطنى آنذاك(2).

وقد ذاع بين المؤرخين لهذا الصرح العتيد ما روجته أسرة محمد على من أن الأب الشرعى لهذه الجامعة هو الأمير " البرنس " أحمد فؤاد، الذى رأس لجنة التأسيس فى العامين السابقين على ولادتها، وكان هذا دافعاً قوياً لإطلاق اسمه على الجامعة، وذلك بعد وفاته بدءاً من عام ١٩٤٠م.

وأكدت بعض الأحزاب السياسية الأخرى - فى تلك الحقبة - الدور الكبير الذى نهض به رواد السياسة والفكر والتنوير، مثل : سعد زغلول، وقاسم أمين، ومحمد عبده، وغيرهم.

ولم تغفل مسيرة التاريخ عما قام به جورجى زيدان، ذلك الأديب الصحفى القادم من الشام، والمستقر فى أعماق البيئة المصرية، والذى أسس مجلة الهلال، وأرخ للإبداع العربى فى القصة والرواية، وسائر الفنون الأخرى، ودعا عام ١٩٠٠م إلى إنشاء الجامعة، واقترح اسم " المدرسة الكلية المصرية "، وحض على حتمية الإنشاء؛ حتى يتسنى للمصريين الاعتماد على أبنائهم فى إرساء النهضة الحديثة، وتعليمهم بداخل الوطن، وعدم إرسالهم إلى الدول الأخرى.

وتألفت اللجنة التحضيرية لإنشاء الجامعة فى الثانى عشر من أكتوبر ١٩٠٦م، والتى نهضت بالإشراف على قيام الجامعة، وجمع التبرعات، وحملة الاكتتابات من الأطيان والأموال والمجوهرات، وذلك ما يؤكد تميز الدور الشعبى فى إقامة الجامعة، والذى كان بإرادة شعبية قبل أن يكون استناداً إلى قرار سياسى ذى سيادة عليا، واختارت اللجنة أن يكون الاسم لهذه المؤسسة هو "

---

(1) وذلك ما جاء فى جريدة اللواء بتاريخ ٨ / ١ / ١٩٠٥م " نقلاً عن مجلة الرسالة العدد " ٨٩٣ " فى ١٤ / ٨ / ١٩٥٠م ".

(2) انظر جريدة الأهرام فى ١٤ / ٨ / ١٩٩٧م.

الجامعة الأهلية المصرية "، وأقيم احتفال مهيب للإنشاء في الحادى والعشرين من ديسمبر عام ١٩٠٨م، ثم بدأت الدراسة في اليوم التالى مباشرة في المقر المؤقت للجامعة آنذاك، والذى تشغله حتى الآن الجامعة الأمريكية بالقرب من ميدان التحرير في مدينة القاهرة.

وتوالت حملات التبرع الأهلية والأميرية بالقاهرة، وفي بعض المدن والقرى بربوع مصر، وتمثلت قمة ذلك فيما تبرعت به الأميرة فاطمة الزهراء بنت الخديوى إسماعيل، وحفيدة محمد على، والذى تحقق في الأرض محل الإنشاء ببولاق الدكرور بالجيزة، فضلاً عن التبرعات الأخرى من أموال ومجوهرات وأراض، وذلك في عام ١٩١٤م، حيث تم وضع حجر الأساس للجامعة بيد الخديوى في الثلاثين من مارس من العام نفسه، تلك المرحلة التي كانت صراعاً بين الرغبة الوطنية والشعبية في الإنشاء، والرغبة المضادة لوءد الفكرة والانصراف عنها، والتوجه إلى بدائل أخرى لا ترقى بالقطع إلى هذا المشروع العظيم، ومما كتبه الزعيم مصطفى كامل بجريدة اللواء في السادس والعشرين من أكتوبر عام ١٩٠٤م قوله : " مما لا يرتاب فيه إنسان أن الأمة المصرية أدركت في هذا الزمان حقيقة المركز الذى يجب أن يكون لها بين الأمم، وأبلغ الأدلة على ذلك نهضتها في مسألة التعليم، وقيام عظمائها وكبرائها وأغنيائها بفتح المدارس، وتأسيس دور للعلم بأموالهم ومجهوداتهم، ولكن قد آن لهم أن يفكروا في الوقت الحاضر في عمل جديد؛ الأمة في أشد الحاجة إليه، ألا وهو إنشاء جامعة للأمة بأموال الأمة"(١).

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٨٩٣ فى ١٤ / ٨ / ١٩٥٠م فى مقال للأستاذ محمد محمود زيتون بمناسبة اليوبيل الفضى للجامعة " ١٩٢٥م – ١٩٥٠م ".

ومن يمن الطالع، والتزامن الرائع انعقاد امتحان شهادة " الدكتوراة " لابن مصر الطالب المنتسب الشيخ " طه حسين "، في اليوم الرابع من مــايو ١٩١٤م، وظفر بالدرجة العلمية بين إعجاب الحاضرين وثناء اللجنة المــشكلة لامتحانــه، ولذا تقرر سفره فى بعثة علمية إلى فرنسا للحصول على شــهادة أخــرى مــن الخارج.

لقد كانت بداية الجامعة ممثلة فى خمسة من الدروس، أو التخصصات هي: الحضارة الإسلامية، والحضارة القديمــة، والجغرافيــا، والتــاريخ، واللغتــين الإنجليزية والفرنسية، إلا أن الجامعة لم تخرج إلى النور، ولم تبرز على السطح بمنشأتها العتيقة إلا فى أواخر مارس عام ١٩١٤م.

ومما سبق يتضح التميز والاختلاف بين المدارس العليــا، التــى ســبقت الإنشاء، والمؤسسة الجامعية الجديدة فى مقرها المؤقت ثم فى موقعهــا الجديــد، الذى تواصلت فيه الإنشاءات عاماً بعد آخر طوال سنوات المئوية الأولى.

واستمرت العناية بالجامعة بمرحلتها الأولى، التى كانت جامعة أهلية ذات طابع خاص، فى حركتها التقدمية، ونهضتها العلمية، وإقبال الشعب عليها، إلــى أن كان التفكير فى تحويلها إلى جامعة حكومية فى عام ١٩١٧م، لكن ذلــك لــم يتحقق إلا فى الحادى عشر من مارس ١٩٢٥م. وقد صدر فــى هــذا التــاريخ مرسوم بقانون إنشاء "<u>الجامعة الحكومية المصرية</u>"، مكونة من أربع كليات هى (الآداب – العلوم – الطب – الحقوق)، كما ضُم إليها عام ١٩٣٥م، مجموعــة مدارس عليا صارت كليات جامعية وهى (الهندسة – الزراعة – التجارة).

وتستمر الجامعة فى آدائها للدور المنوط بها من كافة النواحى، خاصة فى مجالات اللغة، والأدب والفكر والفلسفة والتــاريخ، وســائر العلــوم التجريبيــة الحديثة.

ويأتى عام ١٩٤٠م ليشهد تغييراً لاسم الجامعة للمرة الثانية؛ لتصير مرتبطة باسم أحد آبائها الشرعيين، إذ أطلق عليها اسم "جامعة فؤاد الأول"؛ وفى ظلال هذا الاسم استمرت الجامعة إلى أن حدث التغيير الثالث، حيث صار اسمها "جامعة القاهرة" مع أنها مقامة على أرض بالجيزة، وبدأ ذلك الإطلاق للاسم الجديد فى الثامن والعشرين من سبتمبر عام ١٩٥٣م فى عهد الثورة المصرية عام ١٩٥٢م، والتى كانت معنية بربط الجامعات بأسماء المدن، وليس بأسماء الأشخاص مهما علا قدرهم، وارتفع شأنهم.

ولم تغفل الهيئات السياسية والشعبية، طوال مراحل إنشاء جامعة القاهرة عن الدعوة إلى إصلاح التعليم فى الأزهر وجامعته العريقة، التى تجاوز عمرها الألف سنة، إذ كانت ولازالت الدراسة فيها ذات مواصفات خاصة ومختلفة فى بعض الفروع العلمية، عما سارت فيه أنظمة الدراسة بجامعة القاهرة فيما بعد.

٢- استبشار الأمة، ومظاهر فرحتها بإنشاء الجامعة :

كانت نشأة الجامعة المصرية فى بدايتها أهلية؛ استجابة لرغبات الزعماء السياسيين، والكتاب، والمفكرين، الذين جاءت دعواتهم تعبيراً عن متطلبات الأمة، وحاجتها الملحة إلى التأثر بالشعوب المتحضرة، التى جعلت للتعليم عناية خاصة، إذ كانت نسبة الأمية بين الشعب آنذاك فاضحة للواقع السيئ الذى يحياه الإنسان المصرى، فأكثر من ٩٠% كانوا لا يعرفون القراءة والكتابة، وقد عبر الزعيم مصطفى كامل عن الدعوة إلى إنشاء الجامعة بخطاب بعث به إلى زميله محمد فريد[1] معتذراً عن إقامة حفل لتكريمه؛ تقديراً لجهوده فى رفع لواء الوطن الذى يتآمر عليه أعداؤه، وشاكراً للجنة المشكلة لتفعيل هذا التكريم المزمع عقده، ومما قاله فى هذه الرسالة ما يلى :

---

(١) فى ٢٤ سبتمبر ١٩٠٦م.

"فخير هدية أقترح عليكم تقديمها للوطن العزيز، والأمة المصرية المحبوبة هي أن تقوم اللجنة التي شُكّلت بدعوة الأمة كلها، وطرق باب كل مصري، لتأسيس كلية أهلية تجمع أبناء الفقراء والأغنياء على السواء، وتهب الأمة الرجال الأشداء، الذين يكثرون في عداد خدامها المخلصين، ممن لا يخافون في الحق لوماً ولا عتاباً، ويعملون لمداواة أدوائها، وجمع أمرها، وبث روح الوطنية العالية في كافة أبنائها ..... "[(١)].

وتجلى فرح المصريين بهذا المشروع في حملة الاكتتاب، التي نظمتها لجنة الجامعة، تلك الحملة التي كانت قوية ومتميزة عما سبقتها من حملات، وربمّا كان ذلك راجعاً في المقام الأول إلى رغبة أبناء مصر في التحول إلى عصر علمي جديد، لا يقتصرون فيه على تلقي الدروس البسيطة في الكتاتيب المنتشرة في القرى والنجوع وأطراف المدن، وإنما اتجهت رغباتهم إلى أن يتلقى أبناؤهم التعليم داخل الوطن دون حاجة إلى الاغتراب، والأخذ عن الآخرين إلا عند الضرورة، أو اللجوء إلى استقدام العلماء والمختصين لتدريس العلوم الحديثة في الجامعة المقرر إنشاؤها، فانتشرت حملات الاكتتاب في العديد من المدن، وهتفت الصحف والمجلات بهذه الدعوة، وقامت اللجان المختصة بجمع التبرعات في القاهرة والأقاليم، وأسهم البيت الحاكم بكافة مستوياته في التبرع، وتوفير الدعم بالأرض والمجوهرات والأموال، فضلاً عما قام به الأعيان في العديد من المديريات بوقف عشرات الأفدنة كل في إقليمه؛ ليكون ريعها في خدمة الجامعة.

ومن المفارقات المعبرة والمؤثرة في حملة الاكتتاب، أن رجلاً من بني سويف امتنع عن التدخين، وادخر ما كان يشترى به هذا النبات السام، وقدمه إلى

---

(١) الرسالة ٨٩٣ في ١٤ / ٨ / ١٩٥٠م المجلد الثاني ص ٩٠٩ – من مقالة الأستاذ محمد محمود زيتون.

لجنة الجامعة، هذا وإن كان المبلغ متواضعاً بالنظر إلى ما يسعى إلى تحقيقه أعضاء اللجنة، إلا أنه يحمل فى مضمونه الشئ الكثير، إذ فضل الرجل التبرع للعلم، وحجب المال عما يضر بصحته، ويفسد بدنه؛ حتى يكون ذلك التصرف موقفاً يحسب له، ويسير على نهجه الآخرون.

لقد كانت الدعوة إلى الإنشاء، والشروع فى التنفيذ أثناء مرحلة من أسوأ مراحل الهيمنة والسيطرة الأجنبية على مقدرات مصر فى تلك الحقبة، ولكن الرغبة العارمة التى اجتاحت الشعب، والقصر، والبيت الحاكم، فاقت كل التوقعات، ولم يقف فى طريقها من يحجب عنها أهدافها، ويفصل بينها وبين طموحات الأمة الشعبية المدعومة بتأييد الأسرة الحاكمة، وإن ارتبط ذلك بالمقاومة من سلطات الاحتلال.

وقد تحدثت مجلة الرسالة عن التعاطف المحمود حول إنشاء الجامعة من قبل مجموعة من القيادات السياسية فى الخارج، وذلك بهدف تعضيد رغبة الشعب فى تأسيس هذا الصرح العلمى الكبير، إذ كتب الأستاذ محمد محمود زيتون، فقال :

" وتدفقت المنح والهدايا العلمية من ملك إيطاليا، وامبراطور ألمانيا، وسلطان مراكش، كما وافقت فرنسا وإيطاليا على قبول ثلاثة من صغار الطلبة؛ لتعليمهم بالمجان بمدارسها " [1].

وقد وضح مما سبق أن المتبرعين والمُوقفين كانوا ممثلين لمجموعة من الشرائح الاجتماعية المختلفة، ولم يكونوا أصحاب دين واحد؛ وإنما شارك الأقباط إخوانهم المسلمين فى الاكتتاب، وتجميع الأموال لهذا الهدف النبيل.

---

(١) الرسالة ٨٩٣ فى ١٤ / ٨ / ١٩٥٠م – المجلد الثانى ص٩١٠.

وتوهجت سعادة الأمة بإنشاء الجامعة في عدد من المظاهر، التي شغل بها المفكرون في بداية التأسيس، ومنها الدعوة إلى الاختلاط بين الجنسين، خاصة في كلية الآداب - ابتداء - لأن الدراسات النظرية بها تلائم توجهات الفتيات، واستعدادهن، مع الإقرار بما للاختلاط من فوائد ومضار[1]، وجاء ذلك مسايراً للدعوة إلى فتح أبواب التعليم الجامعي أمام الفتيات، مما كان له أعظم الأثر في التحول بالجنس اللطيف من العزلة والانكماش إلى التوسع والانفتاح على ثقافات الشرق والغرب فيما بعد، وأسهم ذلك أيضاً في بروز أحزاب نسائية مشهورة كانت لها أصوات مدوية في حركات التحرير والتنوير، مثل (بنت النيل، والحزب النسائي، والاتحاد النسائي).

ومن القضايا التي شغل بها، واختلف حولها قادة الأمة في الثقافة والفكر قبل افتتاح الجامعة قضية انشغال الطلاب بالسياسة، وذلك كما أوردت جريدة الأهرام حيث جاء فيها : " حين ألقى أحمد بك زكي سكرتير الجامعة خطبة في طلاب أول بعثة لها[2] إلى أوربا حذرهم فيها من الاشتغال بالسياسة إبان فترة دراستهم، كما ألقى باللائمة على الأحزاب القائمة ؛ لأنها لم تقدم للمؤسسة الجديدة ما هو منشود منها من عون، فانبرى له محمد فريد بك، والذي كان قد خلف وقتئذ مصطفى كامل في رئاسة الحزب الوطني يسفه من آرائه، وبأنه يجب على طلبة العلم أن يشتغلوا بالسياسة "[3].

ولا أعتقد أن هذه القضية قد توقفت عند هذه الآراء، فوجهة سكرتير الجامعة تبدو واضحة في حتمية اقتصار الطلاب على تلقي العلم دون سواه،

(١) الرسالة ٩١٤ في ٨ / ١ / ١٩٥١م - المجلد الأول ص٤٨.
(٢) تم إعلان أسماء الإرسالية في ٩ / ٦ / ١٩٠٨م، وبدأت البعثة رحلتها بالسفر إلى الإسكندرية في القطار يوم ٩ / ٩ / ١٩٠٨م.
(٣) الأهرام في ١٤ / ٨ / ١٩٩٧م.

والرأى الآخر يحتم عدم انغلاق الطلاب داخل دائرة ضيقة، إذ عليهم أن ينصهروا بالواقع وينشغلوا به، ويعبروا عنه فى نطاق من الالتزام الوطنى الصادق، وبقيت هذه القضية الشائكة متجسدة فى الواجبات، والأدوار المنوطة بالاتحادات الطلابية فى الجامعة، وبعيداً عن هذا الاختلاف فإن الهدف الأسمى، والدافع للبعثات، كان موجهاً إلى إعداد الطلاب والباحثين؛ ليكونوا أساتذة بالجامعة فى المستقبل.

ولقد عبر الدكتور عبد الوهاب عزام عن فرحة المصريين بتأسيس الجامعة، فوضع نشيداً لها، قال فيه :

جامعةٌ ألفت القلوبا *** أباً ترانا وأخاً محبوباً[1]

٣. المعارضة فى إنشاء الجامعة:

كان التفكير فى إنشاء الجامعة الأهلية، أملاً راود كل المصريين بمساندة واضحة وبارزة من القصر، خاصة فى أعقاب تأسيس اللجنة المنوط بها الأشراف على التنفيذ، لكن المعارضة فى كل ذلك لم تأت إلا من سلطات الاحتلال، وذلك فيما صدر عن المندوب السامى البريطانى فى تقريره عام ١٩٠٦م، والذى سنعرض له بعد قليل، مشتملاً على الدعوة أولاً إلى مناهضة الأمية بإنشاء الكتاتيب، والمدارس الأولية، وبعد ذلك يأتى مشروع الجامعة، الذى يتنادى به المصريون تحت اسم " المدرسة الكلية المصرية "، وعليه تجلى مقدار رفض اللورد كرومر للمشروع، وجاء فى التقرير السابق الإشارة إليه ما يلى :

" ...أنه لما كان إخراج المشروع إلى حيز التنفيذ يقتضى زماناً فأنى أشير على أصحابه أن يدرسوا تاريخ إنشاء المدارس الجامعة فى البلدان الأخرى، ويبذلوا الجهد فى إفهام المصريين الغرض الحقيقى الذى يتوخونه، ويجدر بهم

---

(١) الرسالة ٨٩٤ فى ٢١ / ٨ / ١٩٥٠م – المجلد الثانى ص٩٣٩.

أيضاً إعمال الفكرة فى بعض التفاصيل الخاصة بالمشروع، وأهمها أمر تـدبير الطلبة، وتعيين اللغة التى تتخذ أساساً للتعليم، وإعداد الأساتذة والمعلمين للجامعة فى المستقبل، يتلوها أمر الشئون المالية، وعلاقة الجامعـة بنظـارة المعـارف والمدارس الفنية العالية، وتأليف مجلس إدارة لها، ووضع نظـام لإدارة الطلبـة والسكن، وغير ذلك من الأمور، وحلنى حتى يتم تحقيق كل ذلك " [1]، وقد توهم (كرومر) أن تقريره يلقى قبولاً وتأييداً من أصحاب الجلابيب الزرقاء، الذين لا تعنيهم الجامعة فى المقام الأول؛ وإنما يذهب أقصى طموحهم إلى محـو الأميـة بتعلم القراءة والكتابة.

لقد أحدث هذا التقرير صدمة لمشاعر المصريين، ولم ينظروا إليه على أنه دعوة للتأمل والتخطيط ودراسة الجدوى، ولكـنهم اعتبـروه تمثـيلاً للكراهيـة والرفض والرغبة فى إبقاء الأمة على جهلها وفقرها، وإطفاء أى أنوار جديـدة للفكر والمعرفة، والعلم والتنوير، وبدأ المشروع كأنه فى طريقـه إلـى الإبـادة والدفن والنسيان، خاصة أن الرفض الاحتلالى لم يكن قاصراً على ما صدر من دار المندوب البريطانى؛ وإنما تجلى أيضاً فيما نـشرته صـحيفة (الجلـوب) البريطانية فى الثلاثين من أكتوبر عام ١٩٠٦م أى بعد أيام معدودة مـن تـأليف اللجنة التحضيرية للمشروع، فقالت الصحيفة المذكورة : " إن هذا المشروع لـم يأت أوانه بعد .... ولعل الحوادث الأخيرة[2] تكسب المشروع صبغة سياسية؛ لأنه نشأ عن القلاقل التى حدثت فى مصر، لا عن رغبة حقيقية فى نشر التعلـيم العالى، ويكفى أن مصطفى كامل باشا، وهو أمير المهيجين فى مـصر (كمـا تصفه الصحيفة البريطانية فى تقريرها من القاهرة) يحـاول إقنـاع الجمهـور

---

(١) الأهرام فى ١٤ / ٨ / ١٩٩٧م.
(٢) القصد ما جرى فى حادثة دنشواى بالمنوفية عام ١٩٠٦م قبلاً وبعداً.

بالمشروع، ويجتهد مع رفاقه لإنجاحه .... ويقول مراسل التيمس فى تقرير لـه من القاهرة : " أنه لو لم تؤخذ الاحتياطات اللازمة لأصبحت المدرسة الجامعـة تابعة للحزب الوطنى، وهذا أمر خطير " (١).

ولقد تأججت ثورة المصريين فى أعقاب ما جرى فـى دنـشواى بفـضل كتابات الزعماء السياسيين، وفى مقدمتهم بكل تأكيد الزعيم الـوطنى مـصطفى كامل، الذى وجد فى الأحداث الأخيرة التى جرت ما يزيد من حماسته وقوته فى الدعوة إلى إنشاء الجامعة، خاصة أن الثقافة المصرية فى عهد اللورد كرومر، قد شهدت تدهوراً واضحاً مما جعل المناداة بتأسيس الجامعة مطلباً عامـاً، وأمـلاً مشروعاً، وجاء ذلك أيضاً مواكباً لتعيين سعد زغلول وزيراً للمعارف.

ومن الواضح أن المعارضة البريطانية لإنشاء الجامعة، كانت مستندة على ركيزتين أساسيتين أولهما : حتمية محو الأمية، ويتحقق ذلك بإنـشاء الكتاتيـب، وإتمام الدراسات الخاصة بالتأسيس، ويبدو أن هذا الأمر فى ظاهره الـصواب، وفى باطنه العداء والرفض، وإلا فلا مانع من استمرارية الإنشاء مـع الدراسـة والتخطيط والاستفادة من خبرات الأمم الأخرى وإنشاء الكتاتيـب والمـدارس الأولية، ومقاومة الأمية بين أفراد الشعب، والجمع بين الثقافة العربية الأصـيلة والتجارب الأوروبية الحديثة، خاصة أن قضية التكاليف المالية لا تمثل مشكلة فى ظل التبرعات والاكتتابات، والوقف الخيرى على المشروع.

أما الركيزة الثانية التى انطلق الرفض منها فتتـضح فـى تخـوف إدارة الاحتلال من نمو الشعور الوطنى لدى الأمة فى أعقاب حادثة دنـشواى، فجـاء الرفض مرتبطاً بالعداء لأصحاب المـشروع، ودعـواتهم الـصريحة المنـددة

---

(١) الأهرام فى ٥ / ١٢ / ١٩٨٣م.

بالاحتلال، واضعين فى تصورهم احتمالية استثمار الحزب الوطنى لهذا المشروع استثماراً سياسياً، يتقوى به على جنود الاحتلال.

وقد أسفر تقرير المعتمد البريطانى عن نتائج أولية مخيبة للآمال، وتوقفت لجنة الجامعة عن الانعقاد، ثم خمدت نيران الرفض الكرومرى، ولم تلبث اللجنة أن عادت للاجتماع، إيذاناً باستمرار الدعوة إلى الإنشاء.

ورأت بريطانيا علاجاً لهذه الإشكالية، وتهدئـة للـصراع الـسياسى، أن تسحب اللورد كرومر من مصر فى أبريل ١٩٠٧م؛ وذلك حتى يهدأ الرأى العام بمعارضة اللورد لإنشاء الجامعة، وجاء بعده السير إلدون جورست، الذى مارس سياسة التهدئة والتعاون مع الخديوى.

ولم يكن إمتناع المندوب السامى البريطانى عن حضور احتفـال وضـع الأساس للجامعة فيما بعد، إلا دليلاً واضحاً على بقاء حزازات النفوس مـستقرة فى أعماق إدارة الاحتلال، فيما يتصل بموقفها المعلـن أولاً عـن الـرفض أو التأجيل، ثم الصمت والهدوء فى عهد المندوب البريطانى الجديد.

٤. لغة التدريس بالجامعة :

ارتبطت صيحات الثوار والمناضلين فى سبيل الحرية، والداعين إلى العزة والسيادة، بإحياء الموروث الثقافى، والحفاظ على وحدة الأمة المتمثلة فى لغتهـا العربية، وغيرها من الأسباب المعضدة للتماسك، وإنماء الشعور القومى، وكـان من بين هؤلاء الشاعر حافظ إبراهيم، الذى دافع عن لغة الضاد، ناعياً حظها بين أهلها، ومتحدثاً بلسانها فى قصيدة هتف بها عام ١٩٠٣م، وجاء فيها :

وسعْتُ كتابَ الله لفظاً وغاية *** وما ضقتُ عن آى به وعظاتِ

فكيف أضيقُ اليوم عن وصفِ آلةٍ *** وتنسيقِ أسماء لمخترعات

أنا البحرُ فى أحشائه الدر كامنٌ *** فهل سألوا الغواصَ عن صدفاتى

فيا ويحكُمْ أبلى وتبلى محاسنى *** ومنكم وإن عزَّ الدواءُ أساتى

فلا تكلُونى للزمانِ فإننى *** أخافُ عليكمُ أن تحينَ وفاتى[1]

وتوهجت الدعوة إلى إحياء لغة القرآن الكريم، وأدب العرب فى قرار سيادى، أجمع عليه أعضاء الجمعية العمومية فى مارس ١٩٠٧م، حيث طالبوا الحكومة بجعل التعليم فى المدارس باللغة العربية[2]، وجاء ذلك كنوع من المقاومة لطوفان التدريس باللغات الأجنبية، ومحاولة إنقاذ اللغة العربية من غفوتها، والدعوة إلى تعميمها لغة للتدريس والبحث والتداول، خاصة أن الصحافة قد أسهمت بدور بارز فى نيوعها وانتشارها.

وفى غمرة الدعوة إلى إنشاء الجامعة، وتحديد الدروس المقرر البدء بها، كانت هموم المفكرين المصريين متجهة نحو التراث العربى، ورأوا توجيه عناية الجامعة نحو دراسة آداب اللغات العربية، والإنجليزية، والفرنسية، وتاريخ الأمم الإسلامية وعلم تقويم البلدان ووصف الشعوب، وتاريخ الشرق القديم[3].

لكن لغة الدراسة فى سائر المواد على الإطلاق كانت هى اللغة العربية، إذ قررت لجنة الجامعة فى الثامن والعشرين من أبريل ١٩٠٨م، أن تكون لغة التعليم ("هى اللغة العربية دون سواها؛ لتكون واسطة لنشر المعارف، وترقية العلوم بين الناطقين بالضاد؛ ولكى ترتقى اللغة العربية نفسها بهذه الوسيلة "، وإن كانت اللجنة قد تحفظت فى هذا الشأن بأنه فى حالة الضرورة، ولأجل مسمى فقط، قد تلقى بعض الدروس بالفرنساوية والانكليزية " ريثما يعود الطلبة الذين

---

(١) ديوان حافظ إبراهيم جـ١ ص٢٥٣ – طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب.
(٢) انظر الرسالة ٨٩٣ فى ١٤ / ٨ / ١٩٥٠م – المجلد الثانى ص٩١١.
(٣) السابق (العدد والتاريخ والصفحة).

أرسلتهم الجامعة إلى أوربا " كما أنها خصصت جوائز للطلاب الذين يأخذون مفكرات كاملة عن المحاضرات، التي تلقى بإحدى اللغتين الأجنبيتين، ويترجمونها إلى اللغة العربية)[1].

وربما كانت هذه الدعوة قد لاقت صدى قوياً، وترحيباً رائعاً في بدايات عصر التأسيس، لكن تبقى القضية محلاً للرأى والرأى الآخر، فهل نجحت الجامعة فى تعميم الدراسة باللغة العربية؟ وكيف عاشت لغة الضاد بين الأساتذة، والباحثين، والطلاب، فى قاعات الدرس الجامعى؟.

ففى مجلة الرسالة " أن الجامعة لم تنجح فى تعميم الدراسة باللغة العربية فى جميع الكليات" [2].

والواقع أن هذا الرأى لا يخلو من شمولية وتعميم لا يساير البحث والتدقيق، فإن الجامعة فى بداية نشأتها قد أباحت عند الضرورة التدريس بغير اللغة العربية، ولفترة محدودة، ويبدو أن الحقبة المتوقعة لهذا الاستثناء قد طالت، واستمرت حتى نهاية الألفية الأولى، بل لم تقتصر على جامعة القاهرة؛ وإنما امتدت إلى الجامعات الأخرى، وبقيت قضية تعريب العلوم فى الجامعة، محلاً للاختلاف بين العلماء والباحثين، خاصة فى الكليات العملية المتخصصة، ففريق ينادى بأن تكون لغة التدريس هى العربية حتى فى الطب، أسوة بما يجرى فى بعض الأقطار العربية، والأجنبية، إذ تنهض هذه البلدان بجعل التدريس فى المجالات العلمية باللغات القومية الخاصة بها، وفريق ثان يحتم بأن تكون اللغة الإنجليزية هى اللغة التدريسية، والتأليفية للعلوم التجريبية، فهى لغة عالمية، تتيح

(١) الأهرام فى ١٤ / ٨ / ١٩٩٧م.
(٢) الرسالة ٩١٤ فى ٨ / ١ / ١٩٥١م فى مقالة للأستاذ محمد محمد على.

للعلماء إمكانية التأثر بالآخرين، والتأثير فيهم، وتلك قضية بعيدة الأغوار يضيق بها هذا الحديث العارض.

٥. رؤية مستقبلية لتطوير الدراسة بالجامعة :

لا يقتصر تطوير الدراسة بالجامعة على قضية واحدة؛ وإنما تتسع الرؤية لتشمل التطوير فى البحث العلمى، والاستفادة من خبرات الجامعات الأجنبية، وذلك بإرسال البعثات التعليمية، والتحول بعد زيادة أعداد الجامعات إلى أنماط ومسارات جديدة من التطوير فى أنظمة التعليم المفتوح، والتعليم الموازى، وعدم إغفال الجامعات الخاصة بما لديها من إمكانات تطويرية، تستطيع أن توظفها فى خدمة الجودة، والضمان، وذلك مما يؤهل سائر الجامعات المصرية للانفتاح، والتبادل العلمى والثقافى مع الجامعات العالمية المتميزة فى الشرق والغرب، فضلاً عن الدور المنوط بجامعة الأزهر ورسالتها التنويرية فى خدمة العلم والدين والحياة.

وينبغى أن ينهض أستاذ الجامعة بجهد كبير فى آداء رسالته وإسهاماته، والارتقاء بمستوى الجودة والتطوير، إذ لا يصح أن يتوقف عن البحث بمجرد حصوله على الدكتوراة، أو على ما هو أعلى منها فى الكادر الوظيفى؛ وإنما يكون الشأن لديه مسايراً لكل جديد فى الدراسات العليا، والبحوث، وسائر المؤلفات.

لقد صارت معالم الجودة فى الدراسة بالجامعة هماً مشتركاً، وباعثاً قوياً على النظر إلى الأمام، ووضع إستراتيجية شاملة لمنظومة البحث العلمى فى سائر التخصصات، بحيث يكون موجهاً بالدرجة الأولى إلى الطلاب، وخادماً للعصر والبيئة، ومتواكباً مع الألفية الجديدة، أو المئوية الثانية لجامعة القاهرة.

أهم المصادر والمراجع

أولاً: الكتب:

١. ديوان حافظ إبراهيم – طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب – الجزء الأول.

٢. القانون ٢٨٢ لعام ٢٠٠٦م.

ثانياً: الدوريات:

١. الأهرام عام ١٩٨٣م في ١٢/٥.

٢. الأهرام عام ١٩٩٧م في ٨/١٤.

٣. الرسالة العدد ٨٩٣ في ١٤/٨/١٩٥٠م.

الرسالة العدد ٨٩٤ في ٢١/٨/١٩٥٠م.

الرسالة العدد ٩١٤ في ٨/١/١٩٥١م.

٣- جمع المخطوطات وتحقيقها وآثار ذلك في إحياء التراث العربي(*)

أولا: توطئة:

اعتمد القدماء علي الرواية الشفوية في نقل العلم ونشره ، واقترنت بالدقة والأمانة ، والحرص البالغ علي الصدق .ذلك أن العرب كانوا أميين باستثناء القليلين الذين عرفوا الكتابة في نطاقات ضيقة ، وبخطوط محددة ، خاصة في جنوب الجزيرة العربية ، وقيل :إن العرب قد دونوا عهودا ومواثيق متعددة، ومن ذلك: ما ورد بشأن وثيقة مقاطعة مشركى مكة لبنى هاشم وبنى المطلب، وما قيل أيضا بشأن بعض القصائد الشعرية التى كتبت بماء الذهب علي القباطى، وعلقت في جوف الكعبة، لكن هذه المخطوطات على اعتبار صحتها كانت قليلة محدودة .

وجاءت رسالة الإسلام صريحة وقوية في الدعوة إلى القراءة والكتابة ، ومن أصدق الدلالات على ذلك :مجيئ أول فقرة قرآنية بأسلوب الأمر المباشر إلى القراءة ، **وذلك قول الله تعالى : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(١)، وقوله تعالي:﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾(٢).**

واعتمد الرسول ﴿ﷺ﴾ على مجموعة من الصحابة، الذين تعلموا الكتابة في تدوين ما ينزل عليه من آيات الوحى الكريم ، وانطلقوا إلى تعليم غيرهم،وكان من أهل مكة والمدينة من أتقن الكتابة ، وصار تعليم المسلمين هدفا

(*) بحث مقدم إلي المؤتمر الدولي للغة العربية (مستقبل اللغة العربية في عصر العولمة بين الأمل واليأس) والذى سيعقد في جامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية بجاكرتا ، أندونسيا، بتاريخ ٩-١٢ يوليو عام ٢٠١٢م ضمن المحور الخامس – البند السادس.

(١) سورة العلق: (١-٥).

(٢) سورة القلم : (١)

مهما تجلى في أعقاب غزوة بدر، عندما جُعل تعليم أسرى المشركين لعشرة من المسلمين سبيلا للمفاداة والعتق من الأسر، لكن الهم الأكبر للكتابة آنذاك كان موجها إلى تدوين القرآن ، وإن لم ينصرف ذات الاهتمام إلى الحديث النبوى حتى لايغفل الكاتبون عن تدوين القرآن الكريم ، وذلك ثابت فيما رواه أبوسعيد الخدرى عن رسول الله (ﷺ) إذ قال: ﴿لا تكتبوا عنى شيئا سوى القرآن ، فمن كتب عنى شيئا سوى القرآن فليمحُه﴾[1].

وذكر الرواة أن تدوين الحديث لم يبدأ إلا في عصر عمر بن عبدالعزيز، ومن ثم بدأت الكتابة في الانتشار شيئا فشيئا، ثم أخذت في النهوض مع بداية الدولة العباسية ، وذلك في كثير من العلوم والفنون.

ثانيا: جمع المخطوطات

المخطوط في هذا الشأن الذى نحن بصدده :"كل مدون بخط إنسان قبل أن يتم طبعه بطريقة محققة للاستفادة منه ، ويبقى المخطوط على صفته ، حتى لو تم تصويره بالآلات الحديثة ، سواء أكان بخط صاحبه أم بخط إنسان آخر".

وعلم المخطوطات هو :"دراسة المخطوط بوصفه قطعة مادية ...وقد يراد به عند القدماء :مفهوم الورَاقة ، أو كل ما يتعلق بالمخطوطات من كتابة وصناعة وتجارة وترميم وما إلي ذلك ، وبقى هذا العلم منحصرا في البعد التاريخى والفهرسي زمنا طويلا "[2].

(١) رواه مسلم في صحيحه .
(٢) مجلة معهد المخطوطات العربية: المجلد ٥٥ طـ ١صـ ١٠ – مايو ٢٠١١م، وينبغي الاعتراف بأن كثيراً من الدول الغربية قد اهتمت بالمخطوطات العربية، وحرصت علي جمعها وفهرستها وتحقيقها وطبعها بصورة غير مسبوقة، وعاد الكثير منها إلي المكتبات العربية؛ لتحقيق أكبر قدر من الاستفادة منها، واحتذائها في التدقيق والتحقيق، ومن ثم النشر والتوزيع.

وترجع بداية عصر المخطوطات – ابتداء –إلى المرحلة التى تكونت وتجمعت المعارف فيها عند الإنسان ، وشرع في رسمها وإثباتها بالوسيلة المتحققة ، وبالأدوات المتاحة في ذلك الزمن البعيد، الذى لا نستطيع تحديد بدايته بدقة فاصلة ، أما نهايته فكانت مرتبطة بظهور الطباعة في القرن الخامس عشر الميلادي (بأورية) وعَرفت البلاد العربية الطباعة أثناء حملة (نابيلون بونابرت) الفرنسي على مصر والشام في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي.

وقد تميز الشرق العربي (الإسلامي) بغزارة المخطوطات وتنوعها ، وتعدد أدواتها وهيئاتها على عكس القليل الذى وجد لدى الغربيين ،كما أسهم الإسلام في كثرة المخطوطات وتنوعها ، إذ حض على العلم وتوقير العلماء ، ونشر الثقافة ، تلك التى استفاد منها الغرب والشرق ، سواء أكانت مدونة في مخطوط أم مطبوعة في كتاب .

ومن المؤسف أن قدرا كبيرا من التراث العربي (المخطوط) الذى يصعب حصره ، قد تم فقده ، أو الاستيلاء عليه بطرق مختلفة من البلدان العربية والإسلامية في الشرق والغرب ،ونقل إلى الأديرة والمكتبات والمتاحف الأجنبية خلال الحروب الصليبية ، أو تم التحايل على شرائه وتملكه استناداً إلى قيمته وتمثيله للحضارة العربية في عصورها الزاهرة ، ولا يغيب عنا ما صنعه المغول والتتار في مكتبات بغداد ودمشق من إغراق وإحراق .

وهكذا ضاع ما ضاع ، وسرق ما سرق ، وبقى مع ذلك الكثير الذى يصعب حصره موزعا على كثير من بلدان العالم القديم .

كما تنتشر آلاف المخطوطات بالعديد من المكتبات في كل بلد عربي ، وتعطى تصورا عاما على المراكز المهمة التى تجمع بين جنباتها آلاف المخطوطات ، والتى يختلف مقدار العناية بها من دولة لأخرى .

لكن الأمر المحير والمعجب أيضاً كان في كثرة المخطوطات وتنوعها ، وتزداد الحيرة في انتقال المخطوطات إلي كثير من بلدان العالم .

لكن من التجنى على المسلمين أن تلقى الأضواء الخافتة أو العاكسة على مسيرتهم مع التراث ،فقد اعتنوا بالمخطوطات عناية كبيرة ؛ لكونها السبيل الوحيد للحفاظ على ما أنتجه العقل العربي الإسلامى من مصنفات ورسائل موضوعها : كتاب الله الكريم وأحاديث الرسول(ﷺ) فجعلوا منها تحفا فنية ثمينة ، وتركوا فيها تراثا فنيا عظيما.

ويكفى أن نشير إلى حجم هذا التراث الإسلامي من خلال ما تحتفظ به متاحف ومكتبات العالم ، إذ يوجد بمدينة أسطنبول وحدها حوالي مائة وأربعة وعشرون ألفا من المخطوطات النادرة ، معظمها لم يدرس من قبل ، بخلاف ما يوجد في مصر والمغرب وتونس والهند وإيران وسائر المتاحف والمكتبات العالمية[1].

ولا شك في أن رحلة المخطوطات العربية ، أو مسيرتها الزمنية طويلة ومتعرجة، ومليئة بحركات المد والجزر، أو التمدد والانكماش منذ بداية التدوين في أوائل القرن الثانى من الهجرة، والتى زادت اتساعاً مع النهضة العلمية في بداية العصر العباسي حتى زمننا الراهن (بدايات القرن الحادى والعشرين).

وقد أعطى العرب- خلال هذه المسيرة – المخطوطات والكتب والمكتبات عناية كبيرة ، خاصة في مرحلة ازدهار التأليف والترجمة ، وزاد حرص الناس علي نسخ الكتب وشرائها والعناية بها ، وأقيمت المكتبات العامة والمتخصصة التى عمرت بملايين المخطوطات ، ولم تخل بلدان العالم الإسلامى من المكتبات

(١) موقع اليكتروني: ويكيبديا

العامة والخاصة ، والتى حفلت جميعاً بنوادر المؤلفات في شـتى فـروع العلـم والمعرفة .

وأشاد الكثيرون بهذا التراث ، ودعوا إلى العنايـة بـه ،وحتميـة جمعـه وفهرسته وتحقيقه، ونقله على الوسائط الإلكترونية (الرقمنة)؛ ليزداد النفع بـه ، وإتمام التعرف عليه، ومما قاله أحد الراصدين لقيمة هذا التراث : "لقـد حظيـت البلاد العربية الإسلامية بتراث علمى وثقافي مخطوط ، قلّ أن حظيت مثله أمـة من الأمم عبر التاريخ ، ولا يتمثل في كثرته وحجمه فحسب ، بل في محتوياتـه العلمية والأدبية والثقافية والتاريخية؛ ليشمل العـالم القـديم والوسـيط جغرافيـا وتاريخياً"[1].

والتاريخ القديم والواقع الحديث يشهدان بكثرة التراث المخطوط ومقاومتـه لعوامل الزمن وضياع الكثير منه ، وتوزعه أو بعثرته وتجاوزه لحـدود الـوطن العربي إلى العديد من دول العالم الإسلامية وغير الإسلامية ، وغيـاب الخطـط الهادفة إلى حصره وتوثيقه بصورة شاملة في ظل التعاون والتنسيق بين المراكز المتعددة والمتخصصة في قضايا المخطوطات بالدول العربية.

ولمتابعة مسيرة المخطوطات العربية في دول العالم ، نقرأ عـن الأخبـار المتعلقة بما وصل من هذا التراث إلى الهند ، حيث احتضنت هـذه الـبلاد آلاف المخطوطات العربية منذ الفتح الإسلامى لها ، ففيها مـثلا كمـا تـذكر بعـض الإحصائيات : مـائة وخمسون ألـف مخطوطة ، ما يقرب من نـصفها باللغـة العربية ، يرجع بعضها إلى القرن الهجرى الأول .

(١) المرجع السابق

وقد حفلت المراكز العلمية في الهند بالعديد من المخطوطات التي عكف بعض العلماء المسلمين على تحقيقها ، خاصة النشاط الحاصل في الجامعة العثمانية في حيدر آباد[1]،وجامعة عليكرة ، وفي أماكن أخرى كثيرة .

وتتعدد العلوم والفنون بهذه المخطوطات ، مثل: مخطوطات الطب الإسلامي ، ومنها: مؤلفات ابن سينا ، والرازى وغيرهما من علماء المسلمين في الطب.

وتتزاحم المخطوطات العربية في مكتبات باكستان وإيران، والبلدان العربية ، مثل : اليمن وعمان والكويت والسعودية ، وفي مكتبات كثيرة بمصر :كدار الكتب، ومكتبات الأزهر، والإسكندرية، ودير سانت كاترين ، وفي بلدان إفريقية متعددة مثل : النيجر، ونيجيريا، وموريتانيا، والمغرب، وتونس، وسراييفو، ولينينجراد، والمتحف البريطاني، وبرلين، وفي بعض الدول الأوربية الأخرى.

وقد وصلتنى صورة لمخطوطة عربية مسجلة في جامعة برن بسويسرا بعنوان (قصة سيدنا يوسف)، وأخذنى العجب من وصول هذه المخطوطة إلى تلك البلاد .

وتعد مكتبة اسطنبول ذات أهمية كبيرة بحق التراث العربي الذى عكف الأتراك العثمانيون على جمعه وحفظه وتحقيقه وطبعه، ونذكر في ذلك جهود البحاثة المتميز"فؤاد سيزكين[2].

---

(١) بولاية أندرا برادش
(٢) صاحب موسوعة (اخبار التراث العربي)

وقد تحدث الدكتور/ محمود حمدى زقزوق[1] عن جمع المخطوطات العربية من كل مكان في بلاد الشرق الإسلامي من خلال المستشرقين الأوربيين، وذكر أن بعض الحكام في أوربا كانوا يفرضون على كل سفينة تجارية تتعامل مع الشرق أن تُحضر معها بعض المخطوطات، وساعد الفيض الهائل من المخطوطات المجلوبة من الشرق على تسهيل مهمة الدراسات العربية في أوربا وتنشيطها، ولعل ذلك يفسر البعثات التى يرحل معها الباحثون العرب والإسلاميون إلى الدول الغربية؛ للحصول على المؤهلات العليا (ماجستير ودكتوراه)؛نظرا للتراث العربي الهائل الذى تحفل بها المراكز العلمية والتعليمية في هذه الدول .

ونذكر في هذا الصدد كلمة مليئة بالحسرة والتعجب للدكتور/ زقزوق ، قال: "وهنا كلمة حق يجب أن تقال ، وهى أن انتقال هذا العدد الهائل من المخطوطات إلى أوربا بوسائل شرعية ، أو غير شرعية قد هيأ لها أحدث وسائل الحفظ والعناية الفائقة ، والفهرسة الدقيقة .

وعندما أقول هذا أشعر بالأسى والحسرة لحال المخطوطات النادرة في كثير من بلادنا العربية والإسلامية ، وما آل إليه حال الكثير منها من التلف والتآكل ، وصعوبة أو استحالة الاستفادة منها [٢]".

ثالثا: حفظ المخطوطات وتحقيقها وطبعها

إن الرحلة الطويلة التى عاشتها المخطوطات العربية خلال عدة قرون تجعلها معرضة للتلف والهلاك ، خاصة في دور الكتب الكثيرة بالعديد من الدول الفقيرة ، وذلك يحتم بذل الجهود ، واستعمال الوسائل التى تحمى هذا التراث

---

(١) أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين جامعة الأزهر ، والعميد الأسبق للكلية ، ووزير الأوقاف المصرية السابق.

(٣) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ،كتاب الأمة ٦٢ طبع عام ١٩٨٣م.

وتحفظه من الضياع ، والانتقال به من خـــلال الـــصيانة والتـــرميم والفهرســـة والتحقيق إلى طبعه ونشره ، ذلك أن ملايين المخطوطات في عشرات الـــدول ، ومئات الدور للوثائق والمخطوطات تـــستوجب اســـتمرار المتابعـــة والرصــــــد والحفظ لما يزيد عن نصف المخطوطات العربية النادرة ، التي لم تتحقـــق منهـــا الاستفادة المرجوة حتى الآن ،إذ أن ما تم تحقيقه وطبعه مـــن المجمـــوع الكلـــي للتراث ربما لا يصل إلى عشرة في المائة من هذه الثـــروات المخطوطـــة ، وأن كثيرا من دور الكتب والمخطوطات تعمل بغير خطط منهجية ومنسقة فيما بينها، أو تنهض بنشاطـــاتها بلا خطط من الأساس، مما يستتبع إعادة النظر فـــي هـــذا التراث العقلي الفريد بما يستحقه من الحفظ والصيانة والتحقيق ، وصـــولا إلـــى ختام هذه الحلقات المتصلة ، أو درة العقد فيها ،وهي الطبع والتوزيع .

وأول ما ينبغي الانتباه إليه : هو صيانة الأوراق، أو الرقائق المدون عليها المادة العلمية، وقد ذكر الخبراء في هذا المجال أكثر مـــن ســـبعين نوعـــا مـــن الكائنات الحية تشكل خطـــرا بالغـــا علـــى المخطوطـــات العربيـــة، وان نـــسخ المخطوطات على الأوراق، وعلى ما يصلح بديلا عنها إحدى وســـائل الـــصيانة والحفظ، وأن اختيار الأحـــبار المناسبة للنسخ ذو أهميـــة فـــي إطالـــة عمـــر المخطوط؛ لترميمه بالوسائل المناسبة ضروري في إبقائه على حالته لفترة زمنية أطول، وأن وســـائل الحفظ متعددة، وتخضع للتطور والتجديد عاما بعد عام، ولا تقتصر على الأوراق والأحبار وطـــرق النسخ وتكنولوجيا المعلومـــات، وإنمـــا تمتد إلى حتمية التخلق بآداب النسخ والكتابة، والانتقال بـــالوراقين إلـــى مرحلـــة تتجمع فيها كل الأدوات الجيدة الخاصة بالنسخ والأوراق والأحبـــار، والـــوراقين الذين يشكلون بعض أدوات النجاح في حفظ المخطوط، وإطالة عمره وتجهيـــزه لمرحلة جديدة يمكن التعامل فيها بوسائل حديثة، يعبر عنها بالرقمنة، وهي نقـــل

المخطوط علي وسائل إلكترونية مثل الذى شاهدته في معهد المخطوطات العربية بالعاصمة المصرية، ويعبر عنه (بالميكروفيلم)،أو الذى انتقل إلى ما يسمى بالأقراص الممغنطة، أو المدمجة، وقد مورست الرقمنة في كثير من دور المخطوطات كما حدث في مكتبة الأمير عبدالقادر بالجزائر، وتتم عملية الرقمنة بنقل الوثيقة على وسيط ألكترونى ، وتتخذ شكلين أساسيين: شكل الصور ،وشكل النص .

وتعد الفهرسة إحدى الوسائل المهمة في إحكام السيطرة على المخطوطات وتبويبها وحصرها ، ومراعاة الأهم فالمهم منها ، وقد تفوق الأوربيون في هذا الشكل الإجرائي .

ومن أبرز المؤسسات في مجال الفهرسة: معهد المخطوطات العربية ،حيث طبع عشرات الكتب في فهرسة المخطوطات حسب الموضوع ،ومراعاة الأصول والمصورات منها ، وأوضحت نشرات المعهد إلى ما تبذله الدول والهيئات العربية وغير العربية من نشاط في هذا المجال[١].

وفيما يتصل بتحقيق النصوص ونشرها فقد أُلِّفتْ كتب عديدة في هذا الموضوع ، ويهدف معظمها إلى تحويل النص المخطوط إلى كتاب مطبوع يسهل تداوله وحفظه، ويحقق الفائدة المرجوة بأكبر قدر ممكن، ويخضع –ابتداء– إلى التثبت من النص المخطوط، والموازنة بين النسخ المخطوطة منها، وتحقيق العنوان والمؤلف، وتصحيح متن الكتاب وشرحه، ونسبة الأقوال المرسلة إلى أصحابها، وتصحيح الأخطاء، وضبط الآيات والأحاديث ،والأشعار والحكم والأمثال، والتعليق عليها، والإضافة إليها، والحذف منها

(١) تراجع النشرات العدد ١٣٠في يونيو م٢٠١١، والعدد ١٣١ في سبتمر ٢٠١١ م،والعدد ١٣٢ في ديسمبر ٢٠١١م وغيرها.

– في الهوامش ، وصنع الفهارس المتنوعة ، وتلك بعض القواعد التى تعارف عليها رواد التحقيق في كل مكان بالدول العربية والإسلامية وغيرها ،والانتقال بعد ذلك إلى الطبع والتجليد والنشر، ومن ثم النقد والتصويب لما يمكن أن يقع فيه المحقق من أخطاء مترتبة على السهو، أو الاندفاع والتسرع، وعدم المراجعة الدقيقة؛ سعيا إلى إثبات الحقائق، ودحض الأباطيل .

ومن أشهر الكتب الموجزة والمركزة ،والمغنية للباحثين في هذا الفن كتاب (تحقيق النصوص ونشرها) للأستاذ / عبد السلام محمد هارون .

وقد افتتح – رحمه الله – هذا الكتاب فقال:

"هذا التراث الضخم الذى آل إلينا من أسلافنا صانعى الثقافة الإسلامية العربية جدير بأن نقف أمامه وقفة الإكبار والإجلال ، ثم نسمو برؤوسنا في اعتزاز وشعور صادق بالفخر والغبطة والكبرياء " [1].

ولسوف نعود إلى هذا الرجل لكشف اللثام عن جهوده في التحقيق والتأليف، وخدمة التراث العربي المتناثر في كل مكان ، وفيما يتصل ببيان المقصود من التحقيق قال في تعريفه: " بذل عناية خاصة بالمخطوطات؛ حتى يمكن التثبت من استيفائها بشرائط معينة .

فالكتاب المحقق هو الذي صح عنوانه ، واسم مؤلفه ، ونسبة الكتاب إليه ، وكان متنه أقرب ما يكون إلى الصورة التي تركها مؤلفه [2] ويلزم لذلك ضبط أصول المخطوط ، والمقابلة بين النسخ ، وشرح النصوص والتعريف بالأعلام إلى غير ذلك من الضوابط الحاكمة لأصول هذا الفن .

---

(١) تحقيق النصوص ونشرها لعبدالسلام هارون ص ٥ طبع مؤسسة الحلبى عام ١٩٦٥م.
(٢) السابق :ص ٣٩

ومن أسبق الكتب التى نهض المستشرقون بتحقيقها :

١."الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدى"

وقد طبع هذا الكتاب لأول مرة في مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٢٨٧هـ ، وهى الأصل لكل الطبعات ، ومعظم الاعتماد فيما بعد على نسخة دار الكتب المصرية ، والكتاب في النقد الأدبي القديم ، وبه كثير من القواعد لهذا العلم الأصيل .

٢."كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة"

نهض المستشرق (دي غوية) بطبع هذا الكتاب في مدينة (ليدن)عام ١٧٨٥م ، ثم حققه فيما بعد/ أحمد محمد شاكر ، وطُبع في مصر عدة طبعات ، وموضوع الكتاب الترجمة لعدد كبير من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين ، فضلا عن المقدمة النقدية التى عرض لها ابن قتيبة في هذا الكتاب.

٣."معجم الأدباء لياقوت الحموي "

لقد طبع هذا الكتاب د .س "مرجليوت " وهو مستشرق بريطانى عن نسخة خطية محفوظة في مكتبة بوريل بجامعة أكسفورد ، وهو موسوعة ضخمة في الترجمة للأدباء ، وأصل الكتاب كان يسمى (إنباه الأريب إلى معرفة الأديب) وتحدثت عن هذا الكتاب وعرفت به في كتاب لي بعنوان (ياقوت الحموى أديباً وناقداً)

وقد علمت أخيراً بنبأ العثور على عدد من التراجم المفقودة من أصل هذا الكتاب الذى يعد ثروة حقيقية في علم الترجمة للرجال .

٤."معجم البلدان لياقوت الحموى "

كانت إحدي مخطوطات هذا الكتاب محفوظة في مكتبة استامبول ونهض بإعداده للطبع المستشرق الالمانى "وستنفيلد" بعد أن حقق النسخة (الأصل)

بمقابلتها على ثــلاث نسخ أخــرى محفوظــة فــي مكتبــات بــرلين وبــاريس وبطرسبرج، وعهد (وستنفيلد) إلى محققين عرب باعتبار أن ابن كل لغــة أوفــر علماً وأكثر خبرة ودراية من أبناء اللغات الأخرى .

رابعاً: جهود بعـض الـدول العربيـة في جمـع المخـطـوطـات وحـفـظهـا وتحقيقها:

لا شك في أن العناية بالمخطوطات تختلف من مكان إلى آخر داخل الوطن العربي وخارجه، وقد نقلَتْ على سبيل المثال – بعــض المواقـــع الإلكترونيــة وبعض الدراسات عن المخطوطات العربية في اليمن، وهي كثيرة ومهمــة فــي توثيقها لتاريخ اليمن وتراثه ومراحله ، لكن انتقال هذه المخطوطات إلى القــارئ ليس بالقدر المطلوب ومما ينم عن ضعف الاهتمام بتحقيق المخطوطات في هــذا البلد العربي ذى التاريخ الحضارى العظيم ،فلا يقبل أن يكون المحقق من التراث العربي – حتى الآن ثلاثمائة وسبعة وخمسين عنوانا، ونتمنــى أن يكــون ذلــك تاريخا صار قديما، وتم تجاوزه بالاستفادة من نوادر المخطوطات التــى ترصــد وتؤرخ للحضارة في جنوب الجزيرة العربية.

ومن أهم المؤسسات الحكومية في رعاية المخطوطات:

١. معهد المخطوطات العربية .

يعد هذا المعهد من أعظم المشروعات العربية في إحياء التراث العربــي ، ويتمثل ذلك في جمع المخطوطات عن طريق إرسال البعوث إلى الأماكن التــى توجد المخطوطات العربية بها ، وتصويرها ومعالجتها بشتى الوسائل.

وقد أنشئ المعهد في أبريل عام ١٩٤٦م ، وألحق بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بدءا من تأسيسها فى الخامس والعشرين من يوليو عام ١٩٧٠م.

وأجد نفسي محتاجا للتزود من مقتنيات هذا المعهد خاصة المخطوطات المصورة لديه ، والمحفوظة على الأشرطة الألكترونية ، فضلا عن جهود علمائه الأفذاذ في تحقيق المخطوطات النادرة ، وطّبع الكتب ذات البحوث المتميزة في التراث، إلى غير ذلك من نشاطات المعهد التى سوف نشير إليها.

وكان المعهد – ولا يزال – من أكثر المشروعات نفعا للعرب ولغيرهم من الباحثين في قضايا المخطوطات ، والمعنيين بالدراسات العربية والإسلامية في كثير من بلدان العالم ،ذلك أن الذى قدمه العرب من المؤلفات في عصور النهضة الإسلامية كان ضخما ومفيدا ، ولا نكاد نجد مثله عند أية أمة من الأمم الأخرى.

فهذا المعهد الذى يقترب عمره من السبعين عاما ما يزال يؤدى دوره بنشاط وتفعيل جيد لرسالته عاما بعد عام ، وقد زرته واستفدت به منذ ما يقرب من خمسة وثلاثين عاما ،وتابعت أخباره عند انتقاله إلى الكويت وتونس ، وبعد عودته إلى القاهرة ،وتطور أدائه بصورة ملحوظة ، ولم ينقطع عنه القاصى والدانى ، حيث ينهض برسالته ويقوم بعدة مهام في مسارات تتكامل نحو خدمة التراث ، وتحقيق أكبر قدر من الاستفادة من مخطوطاته.

فأول نشاطات المعهد وأهمها على الإطلاق :جمع المخطوطات الأصلية ، أو تصويرها حيثما وجدت ، وإخراج مجلة علمية نصف سنوية محكمة تعنى بشؤون التراث العربي ، ويشارك في بحوثها علماء من المعهد ومن خارجه ، وهى ذات أثر فعال في قضايا التراث ، ولا عيب فيها سوى ضعف توزيعها ،وعدم وصولها إلى الكليات الجامعية ، والمراكز البحثية المتخصصة ،وطبع الكتب التى تعالج قضايا المخطوطات مثل الكتاب الذي بين يدي وهو بعنوان (تجارة المخطوطات وطرق فحصها وتقييمها)[1]، وكتاب (مستقبل التراث) ،

---

(١) للدكتور/ عابد سليمان – طبع المعهد عام ٢٠١١م .

وهو بحوث ومداخلات المؤتمر الدولي الأول ، والذى عقدته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم[1].

أما رصد المخطوطات وإلقاء الأضواء عليها ، فيكون من خلال الكتب التى يطبعها المعهد لفهرسة المخطوطات المصورة ، حسب تصنيفها في اللغة والأدب والفلسفة والمنطق والتصوف والسياسة والاجتماع والجغرافيا والبلدان وغيرها[2].

ويصدر المعهد نشرة شهرية بعنوان (أخبار التراث العربي) من أجل تنسيق الجهود القائمة حول تحقيق التراث ونشره ، وقد اطلعت على أعداد كثيرة منها واستفدت بها .

٢. دار الكتب المصرية :

نقدم في هذا الاستهلال نبذة تاريخية موجزة عن نشأة دار الكتب المصرية ، فنثبت ما جاء في مفتتح كتاب دار الكتب المصرية بين الأمس واليوم والغد [3]، إذ قال صاحبه: "لقد ظهرت فكرة إنشاء مكتبة وطنية تجمع بين أركانها ما تبقى من تراث المخطوطات إلى جانب الإنتاج الجديد مما تخرجه المطابع في القرن الثالث عشر الهجرى / القرن التاسع عشر الميلادى، فأنشئت (الكتبخانة الخديوية) دار الكتب المصرية فيما بعد سنة ١٢٨٦هـ/ ١٨٧٠م ،والتى تعد أول مكتبة وطنية تنشأ على الطراز الحديث في الشرق الأوسط".

وقد كانت الفكرة نابعة من ذهن علي باشا مبارك، الذى حرص على جمع المخطوطات النفيسة التى تصل إليها يده ، وضم إليها المراجع والمجلدات في جميع التخصصات، التى وصل عددها آنذاك إلى عشرين ألفاً.

---

(١) التابعة لجامعة الدول العربية ، والكتاب طبع المعهد عام ٢٠١١م .
(٢) عنوان المعهد بالقاهرة ٢١ ش شهاب خلف نادى الصيد – الجيزة.
(٣) للدكتور/ أيمن فؤاد سيد ص ٨ طبع الدار المصرية اللبنانية .

وتعد المخطوطات العربية بدار الكتب من أنفس الذخائر، إذ أن ما لدى الدار أصول للمخطوطات ، وليس صورا لها ، كما هو الحال في معهد المخطوطات العربية مثلا ،وإذا كانت المخطوطات العربية قد تم الوصول إلى عدد تقريبى لها ، وهو ثلاثة ملايين مخطوط في مكتبات العالم حسب تقدير بعض المتخصصين، مع أنها من واقع الدلائل والاستنتاجات أكبر من ذلك بكثير، لكن نصف العدد المذكور يعد من المخطوطات النادرة والمهمة التى لم يتم تحقيق إلا قرابة عشرة في المائة من الإحصاء السابق ، و أما غير المحقق من هذا الفيض ، فلا زال رهينا في المتاحف، ودور الكتب والآثار في العديد من بلدان العالم ، ومنها بالتأكيد البلاد العربية والإسلامية .

وانتقلت دار الكتب بمصر إلى مقرها الجديد على النيل في القاهرة عام ١٩٧٤م ؛ لتكون بعيدة عن وسط العاصمة ، ومكانا سهلا للوافدين إليها .

ولم تتوقف الدار عن تنمية ثرواتها من أصول المخطوطات ، كما حرصت على توفير المادة العلمية للباحثين ، فعملت نسخا ميكروفيلمية أو مطبوعة من المخطوطات المقتناة في المكتبات الأخرى ، وذلك إما من مصر مثل : مكتبة الأزهر، ومكتبات أروقته، أو من مكتبات عالمية في استانبول وباريس ولندن وفيينا ودبلن، وذلك عن طريق اتفاقيات تبادل مع هذه المكتبات، أو من خلال معهد المخطوطات العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

ولا يتسع المقام لبسط القول في نفائس المخطوطات بدار الكتب ،ولا شك في أن الدار تسير وفق استراتيجية شاملة لاستخدام النظم الآلية في معالجة المخطوطات العربية، وإتاحتها من خلال فريق عمل من موظفي قسم المخطوطات بالدار.

وتحتفظ الدار بمجموعة مختارة من أقيم ما تحتويه من المخطوطات، التى تعد من أهم الإسهامات الفكرية الإسلامية في التراث الإسلامي، خاصة التراث الإنساني عامة ، وتتمثل في مخطوطات المصاحف الكوفية والحجازية والمملوكية ، فنشاطات الدار متعددة في حفظ المخطوطات وفهرستها وتحقيقها، وطبعها، وتحقيق القدر الأكبر من الاستفادة بها طوال حياة دار الكتب المصرية بالقاهرة .

٣. مجمع اللغة العربية بالقاهرة

أنشئ مجمع اللغة العربية بالقاهرة في عام ١٩٣٢م ونص في مرسوم إنشائه على أن ينشر المجمع – على الطريقة العلمية – من النصوص القديمة ما يراه لازماً لأعمال المعجم ودراسات فقه اللغة ، واتجهت عناية المجمع بالتراث اللغوى الذى لم ينشر من قبل .

وليس من رسالة هذا الصرح العظيم جمع المخطوطات ، كما لم يتقرر – ابتداء– إنشاء لجنة من لجانه لهذا الغرض ، إذ كانت العناية موجهة إلى المحافظة على سلامة اللغة العربية والحرص على وفائها بمطالب العلوم والفنون ، وتوحيد المصطلحات في اللغة، إلى آخر المهام المنوطة بالمجمع.

واتجهت العناية فيما يتصل بالتراث – إلى تحقيق المخطوطات وطبعها ونشرها على القراء من خلال اللجنة، التى استحدثت في مرحلة تالية لهذا الغرض وعرفت بلجنة إحياء التراث وأورد كتاب (المجمع وإحياء التراث) [١] أنها أرادت أن تنهض بكتابين هما (سر صناعة الإعراب) لابن جنّى ، و(أنيس الجليس) لزكريا بن يحيى المعافي ، فلم تجد في ميزانية المجمع ما يسمح لها بذلك.

---

(١) للأستاذ /مصطفي حجازى – عضو المجمع ومقرر لجنة إحياء التراث المطبوع عام ٢٠٠٧م.

وسارت الأيام إلي أن أكدت التشريعات ضرورة الإسهام في تحقيق التراث ونشره ، خاصة المخطوطات اللغوية، التى لم تنشر من قبل ، وبدأ ذلك في عام ١٩٦٣م بكتاب (عُجالة المبتدى وفُضالة المنتهى) في النسب لأبي بكر الحازمى[1].

واتسعت نشاطات المجمع في مجال تحقيق المخطوطات، التى لم تعد قاصرة على علوم اللغة وإنما اتسع مجال التحقيق ليشمل كتب النحو ودواوين الشعراء ، وأراجيز الرجاز ، وكتب النسب والأخبار وألقاب الشعراء وغيرها .

ومن أبرز المطبوعات المحققة: ديوان "رؤبة بن العجاج" الذى كتب عنه الأستاذ /مصطفى حجازى قائلا : "تحتفظ مكتبة المجمع بمصورة لمخطوطة في شرح ديوان رؤبة بن العجاج ، فقدت منها صفحة العنوان ، وبعض المقدمة ، فصارت مجهولة المؤلف ، وكثيرا ما رجعنا إليها في شروح الغريب من ألفاظ رؤبة في أراجيزه وما أكثره – فوجدنا فيها ما يجلو الغامض ، ويهدى إلى الصواب، وقد وجدت فيها نقولا كثيرة عن أبي عمرو – وهو يذكره هكذا غير منسوب – وظننته يعنى أبا عمرو الشيبانى ، وصدق ظنى حين استخرجت هذه النقول من كتاب.

"الجيم" لأبي عمرو الشيبانى ، وتقرر طبع الديوان في ثلاثة أجزاء ، بين يدى الجزآن الأول والثانى.

وتشهد مطبوعات المجمع بدقة التحقيق، وجودة الإخراج، وانتقاء المخطوطات التى تساير خطة المجمع .

(٢) المتوفي عام ٥٨٤هـ .

كما تتجلى هذه العظمة في المطبوعات المحققة الأخرى مثل كتاب (ما يعول عليه في المضاف والمضاف إليه) لمحمد الأمين المحبيّ ، وتم إنجاز جزءين منه يشملان الحروف من الهمزة إلي الشين .

وتتواصل مسيرة المجمع مع الحفاظ على اللغة العربية بما يصدر من مجلات وبحوث، وما يعقده من مؤتمرات وندوات من خلال لجانه المتعددة في التخصصات المختلفة .

خامسا : جهود بعض الأعلام في تحقيق المخطوطات

إن مما يؤسى له – في الوقت الراهن – أن يغيب عن الساحة العلمية علماء أفذاذ ، قضوْا أعمارهم في تحقيق المخطوطات وبعث التراث من مراقده، وطبعه وتيسيره لطلاب العلم، وصارت ملايين المخطوطات في حاجة إلى من يزيل التراب عنها ، ويميز فيها صحيح القول من زائفه ، لكن عصر العظام قد ولى، دون أن يتحقق المستهدف من المخطوطات العربية والإسلامية في الكثير من دول العالم .

وممن توارى تحت الثرى ، من علماء اللغة والأدب وتحقيق المخطوطات الأساتذة / أحمد أمين ، وعلي الجارم ، وحمد الجاسر ، وأحمد شاكر ، وغيرهم ، ونكشف في سطور قليلة اللثام عن بعض الأعلام الذين غابوا في متاهة النسيان ، وبقيت أعمالهم شاهدة على مجهوداتهم ونفتقد – للأسف الشديد – تلاميذ لهم يسيرون في دروبهم ، ويواصلون مسيرتهم ، وهذا قدرنا الذى ألم بنا ولله الحمد والمنة ، ومن هؤلاء الراحلين :

١. الأستاذ/ محمد محيي الدين عبدالحميد:

ولد – رحمه الله – في قرية كفر الحمام بمحافظة الشرقية عام ١٩٠٠م، ونشأ في كنف والده ، الذى كان عالما أزهريا متميزا في عمله بالقضاء والإفتاء.

وتعلم الشيخ محمد في الأزهر الشريف ، وحصل على شهادة العالمية ، وعمل بالتدريس في المعاهد الأزهرية ، ثم انتقل للتدريس في كلية اللغة العربية[1] إلى أن صار عميدا لها .

وكان عضوا بمجمع اللغة العربية ، وبمجمع البحوث الإسلامية ، ورأس لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، واعتنى بتحقيق التراث ، ومما أخرجة محققا ومطبوعا من كتب **النحو واللغة:** قطر الندى وبل الصدى – وشذور الذهب ، ومغنى اللبيب ، وأوضح المسالك ، وشرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ، والإنصاف في مسائل الخلاف .

كما حقق موسوعة (الأمثال) للميداني والإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، وسيرة ابن هشام، ومروج الذهب ، وتاريخ الخلفاء للسيوطي، وحقق كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني – وغيرها من كتب التراث، التي كانت ولا زالت محل الإعجاب والتقدير عند العلماء والباحثين عن المعرفة ، وبقي الشيخ/ محمد محيى الدين عبدالحميد – حاملاً للقلم بازلا للجهد ، ساعيا لإحياء التراث، إلى أن توفي في الثلاثين من ديسمبر عام ١٩٧٢م.

٢- عبدالسلام محمد هارون:

ولد العالم والمؤرخ والمحقق عبدالسلام هارون – بمدينة الإسكندرية في الثامن عشر من يناير عام ١٩٠٩م .

وتعلم بالأزهر ، وتخرج من دار العلوم ، وعمل – أولا – بالتدريس الابتدائي ، وزاعت شهرته في تحقيق التراث ، وانتقل مدرسا بكلية الآداب جامعة الإسكندرية ، ولعلها من العجائب أن ينتقل من التدريس في التعليم الابتدائي إلى التدريس الجامعي مباشرة، ثم عين في دار العلوم، وترقي بها،

---

(١) في القاهرة..

وانتدب للإسهام في إنشاء جامعة الكويت مع بعض رفقائه من العلماء الأفذاذ ، واختير – عضوا بمجمع اللغة العربية .

وأجد نفسي في حيرة، وأنا أكتب عن إسهامات هذا البحاثة في تحقيق المخطوطات، فماذا أختار له، وكيف أوجز كلامى عنه، وهو الموسوعة المتميزة الذى يلقب في الجامعات المصرية بجواهرجى التراث .

وأذكر – ابتداء– علامات نبوغه ، ومظاهر تميزه ، واتجاهه مبكرا إلى المخطوطات ، فقد حقق وعمره ستة عشر عاما (متن أبي شجاع) في فقه الإمام الشافعى .

وقد استمعت إليه وتحدثت معه عند مناقشته لإحدى الأطروحات الجامعية بمدرج العقاد في كلية اللغة العربية جامعة الأزهر بالقاهرة ، وكنت مزهوا بنفسى وسعيدا بوقوفي معه، وكأننى أقول للزمن: توقف كثيرا لعلني أسجل اللحظة، وأكتب أنفاسه إن كانت الأنفاس مما يكتب.

وكان الرجل هادئا بسيطا، ومتواضعا لطيفا، وحزينا ومهموما بتراث أمته وبما ضاع منه، وواصل حياته مع المخطوطات، وحقق للجاحظ كتبه: الحيوان، والبيان والتبيين، ورسائل الجاحظ وغيرها.

كما حقق معجم مقاييس اللغة لابن فارس، وتهذيب اللغة للأزهرى، ومجالس ثعلب ، وأمالى الزجاجى، وجمهرة أنساب العرب، وخزانة الأدب للبغدادى، وغيرها .

وأخرج محققا مجموعة المخطوطات التى أسماها" نوادر المخطوطات" وهى ثمانى مجموعات في مجلدين ،وقال في مقدمة المجموعة الأولي :" وإنه لمما يثلج الصدر أن تتجه جامعاتنا المصرية اتجاها جديدا إزاء طلابها المتقدمين للإجازات العلمية الفائقة، إذ توجههم إلى أن يتقدموا مع رسالاتهم العلمية تحقيقاً

لمخطوط يمت بالصلة إلى موضوع الرسالة .وعسى أن يأتى اليوم الذى يكون فيه الأمر ضريبة علمية لابد من أدائها[1].

واختير الشيخ عضواً بمجمع اللغة العربية، وحقق وألف أكثر من مائة وخمسة عشر كتابا، ونال جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب عام ١٩٨١م، وناقش أكثر من ثمانين رسالة للماجستير والدكتوراه.

ومن مؤلفاته: تحقيق النصوص ونشرها ، وقطوف أدبية ، وبحوث في اللغة والأدب.

وبقى أستاذاً في محراب العلم مؤلفا ومحققا ومحاضرا ومناقشا إلى أن توفي في السادس عشر من أبريل عام ١٩٨٨م ، وأصدرت عنه جامعة الكويت كتابا بعنوان "الأستاذ عبدالسلام هارون معلماً ومؤلفاً ومحققاً " رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

٣. محمود محمد شاكر:

إنه أبوفهر– محمود شاكر – أديب مصرى ،وقارئ متميز للتراث ، ومثقف متفرد ، نافح عن العربية ، في مواجهة التغريب ، واطلع على كم هائل من المخطوطات ، وحقق العديد منها.

وتعود أصول أسرته إلى أشراف جرجا في صعيد مصر ، وقد ولد بالإسكندرية في أول فبراير عام ١٩٠٩م، وانتقل في العام نفسه إلى القاهرة مع والده الذى عين وكيلا للأزهر الشريف وكان قبل ذلك شيخاً لعلماء الإسكندرية.

وانصرف محمود شاكر في طفولته إلى التعليم المدنى، وانتقل من مدرسة إلى أخرى، ثم التحق بقسم اللغة العربية في كلية الآداب ، واصطدم بأستاذه –

---

(١) نوادر المخطوطات– المجموعة الأولى – طبع الحلبى عام ١٩٧٢م ومن هذه النوادر الرسالة المصرية لأبى الصلت، وغيرها.

طه حسين – بسبب ما قاله عن انتحال الشعر الجاهلي ، وعجز عن مواجهتة ، فترك الشيخ كلية الآداب – غير آسف عليها، وهو في السنة الثانية ، لأنه لم يعد يثق بها .

وهاجر إلى السعودية، وعاد منها بناء على رغبة والده، وكتب في مجلة المقتطف حلقات مقالية عن المتنبى، ثم اكتمل تأليفه لكتاب عنه نال به جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب.

وهو ظاهرة فريدة في الأدب والثقافة، وشاعر مبدع بديوانه "اعصفى يا رياح" وبلغ الذروة في الإبداع الشعرى بقصيدته (القوس والعذراء) وهو محقق بارع ومؤلف متميز ، وكتبه كلها عالية الجودة والتميز .

ومن تحقيقاته كتاب :طبقات فحول الشعراء – لمحمد بن سلام الجمحى، وتفسير الطبرى (ستة عشر جزءا) ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى، وتهذيب الآثار للطبرى ، ولم يكن يحب أن يوصف بأنه محقق لنصوص التراث العربي ، وإنما يرغب في وصف نفسه بأنه قارئ وشارح لها.

وخاض معارك ضخمة مع الدكتورين : طه حسين ، ولويس عوض – ومن مؤلفاته : أباطيل وأسمار، و نمط صعب ونمط مخيف ،وقضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام ،ورسالة في الطريق إلى ثقافتنا ، وقد تلقيت عنه بعض الدروس ،وأفدت من علمه ومنهجه في البحث ، وحللت عليه زائرا بمنزله في مصر الجديدة يوم أن كان ابناه .. فهر وزلفى طفلين صغيرين يأخذان منه كل عطف ومودة وحنان، دون أن يتضح لديهما منهج أبيهما في التأليف والتحقيق والحياة، وتوفي في السابع من أغسطس عام ١٩٩٧م – رحمه الله – وأجزل له الثواب والعطاء نظير إخلاصه لدينه ولغته ومذهبه، تلك التى تحمس لها ودافع عنها ، طوال حياته.

سادسا: نتائج وتوصيات

١- التفعيل الإيجابي لجمع المخطوطات وتحقيقها مما يسهم في إحياء الألفاظ والتراكيب والآداب وسائر المعارف الإنسانية.

٢- ما زال الكثير من المخطوطات العربية بعيدا عن أيدى القراء ، وغير خاضع للفهرسة والتبويب في العديد من مكتبات الدول المختلفة :العربية ، والإسلامية وغيرها.

٣- حتمية توحيد الجهود وتحديد الأهداف ،ووضع البرامج ، للحفاظ علي المخطوطات العربية ، والاستفادة منها في دعم الهوية العربية والتراث الإسلامي ، ومراعاة التنسيق بين العديد من الدول .

٤- الاتساع في نشاطات المؤسسات الحكومية عن طريق الجمع والترميم والنقل؛ للحفظ على الوسائط الالكترونية، والتحقيق والطبع والتوزيع، مع رصد الميزانيات المناسبة؛ للوصول إلى النتائج المثمرة .

٥- إحياء اللغة العربية ، واستعمال الكلمات المهملة وتحقيق المخطوطات النادرة ، والمحافظة على أصالة اللغة ، وتأكيد هويتها ، وتصديها لكل محاولات التمزيق لأوصالها بالدعوة إلى العولمة ، وتغييب الهوية العربية الأصيلة .

٦- استخدام النظم الآلية في معالجة المخطوطات المعرضة للتلف، ووضع استراتيجية طويلة المدى، لصيانة التراث العربي من الضياع ، الرقمنة والفهرسة وترميم المخطوطات المعرضة للهلاك .

٧- دعم معهد المخطوطات العربية ، فلعله المنظمة العربية ، المؤهلة لحماية المخطوطات وحفظها ، وصيانتها وتحقيقها ،وتفعيل آلياتها، استناداً إلى الخبرة التى اكتسبها المعهد خلال رحلته الطويلة .

٨- توجيه الجامعات ومراكز البحوث اللغوية والعلمية والأدبية إلى بذل المزيد من الجهود المنظمة في تحقيق المخطوطات ، وطبعها مما يسهم في إحياء اللغة العربية ، والمحافظة على أصالتها وتأكيد هويتها ، وتصديها لكل محاولات تمزيق أوصالها ، وتغييب هويتها العربية الأصيلة.

٩- مما طالب به مجمع اللغة العربية ، في دورته عام ٢٠١٢م: التوصية لدى جامعة الدول العربية، والجامعات العربية، في أقطار الوطن العربي بتوجيه نظر الباحثين في مجال الدراسات العليا إلى مكتبات الجامعات في جمهوريات آسيا الوسطى؛ للقيام بتحقيق ما لديها من مخطوطات عربية وإسلامية ثمينة، ودراستها، للكشف عما تحتويه من نفائس وكنوز.

أهم المصادر والمراجع

أولاً: الكتب

١.**الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري**، د.محمود حمدى زقزوق – طبع كتاب الأمة ، صفر الخير عام ١٤٠٤هـ .

٢.**تجارة المخطوطات** –د. عابد سليمان ، طبع معهد المخطوطات العربية علم ٢٠١١م.

٣.**تحقيق النصوص وشرحها** –عبدالسلام هارون ، طبع مؤسسة الحلبي علم ١٩٦٥م.

٤.**تراثنا المخطوط من التأليف إلى الوراقة**- د. علي الخطيب – هدية مجلة الأزهر – محرم ١٤٠٤هـ .

٥.**شرح ديوان رؤبة بن العجاج** –طبع مجمع اللغة العربية جـ١، جـ ٢.

٦.**فهرسة المخطوطات العربية** د. عابد سليمان – طبع مكتبة المنار بالأردن عام ١٩٨٩م.

٧.**فهرس المخطوطات المصورة طبع معهد المخطوطات العربية**، الخاصة باللغة والتصوف، والفلسفة والمنطق والجغرافيا، والبلدان والسياسة والاجتماع.

٨.**في تراثنا العربي الإسلامي** د. توفيق الطويل – سلسلة عالم المعرفة بالكويت عام ١٩٨٥م .

٩.**اللمحات الشذية عن المكتبة الأزهرية** ، طبع مجمع البحوث الإسلامية – إعداد/ أحمد خليفة.

١٠.**المجمع وإحياء التراث**–مصطفى حجازى–طبع مجمع اللغة العربية عام ٢٠٠٧م .

١١.**مستقبل التراث** د. فيصل الحفيان – طبع معهد المخطوطات العربية علم ٢٠١١م.

١٢.**معجم المخطوطات المطبوعة** – د. صلاح الدين– المنجد – جـ٤ عام ١٩٧٥م . طبع دار الكتاب الجديد، بيروت عام ١٩٧٨م .

١٣.**الموجز فى الطب/لعلى بن الحزم القرشى** – طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية عام ١٩٩٧م .

١٤.**نوادر المخطوطات– اختيار وتحقيق عبدالسلام هارون** – طبع الحلبى الطبعة الثانية (مجلدان).

ثانياً: الدوريات

١٥.**أخبار التراث (نشرة) طبع معهد المخطوطات**. الأعداد (١٢٧ ، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢).

١٦.**الأزهر (مجلة)**. السنة ٨١ جـ٥ جمادى الأولى ١٤٢٩هـ .

١٧.**القافلة (مجلة) طبع شركة آرامكو بالسعودية** مارس ١٩٩٨م .

١٨.**مجلة مجمع اللغة العربية** العدد ١١٦ مايو ٢٠٠٩م .

١٩.**مجلة معهد المخطوطات** المجلد ٥٥ جـ١ ، جـ٢ .

ثالثا : موقع أليكترونية:

١. **موقع ويكيبديا**

٤- الوعي الديني لدي طلاب المرحلة الابتدائية
ومدي الاستفادة من برامج العلوم الدينية
في التعامل والسلوك اليومي بالمدرسة(*)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علي أشرف المرسلين، محمد بن عبد الله الذي خاطبه ربه فقال: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(١).

لم أكد أرجع إلي بعض الكتب لدي في التربية الإسلامية حتى انثالت علي أفكار رائعة وعظيمة، وتأكدتُ من جديد صواب المنهج الإسلامي في التربية، وصلاحيته لكل المجتمعات، وعلمت أن بعضا- بل كثيرا- من جزئيات هذا المنهج قد تأثر به الغربيون، وأيقنوا بجدواه، بعد أن اطلعت علي بعض ما كتبوا في هذا الجانب، مع الاختلاف البين في النظرية والتطبيق، وإن كانت هذه المسألة لا تشكل لنا أهمية كبيرة ما دمنا مؤمنين بديننا وسمو عقيدتنا، وصدق دعوتنا.

ولقد استفدت في هذه الدراسة بكتاب أصدرته وزارة المعارف بعنوان " نحو تربية إسلامية " للكاتب أحمد محمد جمال إلي جانب غيره من المراجع التي سوف أذكرها في النهاية. كما حاولت أن أجعل كل ما ذكرته من نظريات تربوية مقرونا بالواقع، ومطبقا علي واحدة من مدارس الطائف وهي مدرسة عروة بن مسعود الابتدائية، فاتصلت بالقائمين عليها، واطلعت علي خطط وزارة المعارف الإدارة العامة لمناهج الشريعة الإسلامية فيما يخص المرحلة الابتدائية، وتابعت عناية الوزارة بتشكيل الجماعات الإسلامية بمدارسها.

والتقيت ببعض المدرسين الذين يقومون بالتدريس في مجال التربية الدينية، وتعرفت علي بعض الأنشطة الأخرى، ووجدت معاني رائعة وواقعا باهرا،

(*) أعد هذا الموضوع في رجب ١٤٠٧هـ(مارس ١٩٨٧م) وقدم للطلاب والدارسين في كلية إعداد المعلمين بالطائف خلال التاريخ المذكور.

(١) سورة القصص: (٥٦).

ربما لا يقتضي المقام أن أرصده كله في هذه الدراسات، التي تهدف في المقام الأول إلي تحديد الوعي الديني ودلالاته عند التلاميذ وبيان أثر هذا الوعي، وانعكاسه علي السلوك الفردي، والتعامل الجامعي في المدرسة الابتدائية. وأقر بأن هذا الموضوع قد راق لجميع من تحدثت معهم حوله، ولكل من ناقشتهم في أهميته.

وآمل أن يوفقني الله في تقديمه بالصورة التي أرضي بها الله سبحانه وتعالي أولا، وأرضي به نفسي ثانيا من واقع الأمانة التي حُمّلناها والمسئولية التي كلفنا بها.

ولذا فإني سوف أعتزبه لما فيه من ذكريات صادقة، وأحلام متوثبة، وخطوات متقدمة...... دوما إلي الإمام، والله من وراء القصد وهو نعم المولي ونعم النصير،،،

أولا: خصائص التربية الإسلامية:

ليس الهدف من دراسة المواد الدينية هو تحفيظها للتلاميذ، حتى يتقنوها ويرددوها، وإنما الهدف الأسمى هو ربط ما في هذه المواد من معان رائعة بمواقف الحياة المختلفة، وإذا حدث مثلا أن حفظنا التلاميذ بعض الآيات التي تحض علي البر، وتدعو إلي المعروف ومساعدة المحتاجين من غير أن نبرهن للصغار علي صور ذلك في الحياة بكل مناحيها...... لوحدث ذلك لذهب الأثر الحميد والهدف السامي من التحفيظ والشرح والتعب أيضا.

ولقد نظر مفكرو المسلمين إلي التربية الإسلامية نظرة عناية واهتمام، وساعدهم في ذلك اكتمال المنهج الإسلامي، ووضوح رؤيته لكل مخلص جاد في التبصير بالوعي الديني من المنظور الإسلامي، اعتمادا علي القرآن الكريم؛ وهو المصدر الرئيسي في التشريع، وعلي السنة النبوية الصحيحة، وعلي أعمال الصحابة الأجلاء.

ولقد حدد الأستاذ محمد قطب خصائص المنهج الإسلامي في التربية فقال: طريقة الإسلام في التربية هي معالجة الكائن البشري كله معالجة شاملة لا تترك

منه شيئا، ولا تغفل عن شئ، جسمه وعقله وروحه، حياته المادية والمعنوية، وكل نشاطه علي الأرض.

إنه يأخذ الكائن البشري كله، ويأخذه علي ما هو عليه، بفطرته التي خلقه الله عليها، ولا يغفل شيئا من هذه الفطرة، ولا يفرض عليها شيئا، ليس في تركيبها الأصيل. ويتناول هذه الفطرة في رقة بالغه، فيعالج كل وتر منها، وكل نغمة تصدر عن هذا الوتر فيضبطها بضبطها الصحيح»[1].

فهذا الشمول في التربية هام وضروري لبناء الجسم والعقل والروح، وصهرها في كيان واحد، علي أن يقدم هذا المنهاج التربوي بنسب وجرعات ملائمة، وبذلك تكتمل رؤيته، وتتضح معالمه، ويتحول الإنسان المسلم إلي صرح قوي وبناء مشيد، ويتجاوب مع الحياة أخذا وعطاء.

تنهض التربية في هذا العصر بدور كبير ذلك لأنها : «قوة خطيرة ومؤثرة في حياة الأمم، يتقرر بها نوعية الحياة واتجاهاتها. فهي أداة المجتمع- أي مجتمع- في المحافظة علي مقوماته الأساسية، وفي استثمارها وتعبئتها». [2]

وإذا كانت هذه هي التربية فما بالك لو اتصفت بالإسلام، وصَبَغَها بصيغته وشكلها بمبادئه، وزينها بدستوره السماوى المجيد.

والمعروف لدي العلماء ورجال التربية مقدار العناية التي تسعي إليها الدول تجاه أطفالها بما يتلاءم مع إمكاناتها وخططها في التربية. وقد اعتبر عام ١٩٧٩م عام الطفل، وعُقدت مؤتمرات كثيرة في بلدان مختلفة لدراسة أحوال الأطفال في دول العالم[3].

---

(١) منهج التربية الإسلامية (الجزء الأول) ص ١٨ دار الشروق.
(٢) في أصول التربية- محمد الهادي عفيفي- الأنجلو المصرية ص أ
(٣) أنظر كتاب (نحو تربية إسلامية) أحمد محمد جمال وزارة المعارف بالسعودية ص ٢٠.

وبمقدار ما يتاح لنا من الإمكانات يجب أن نسعى في إخلاص إلي العناية بتربية الجيل الجديد والاهتمام به، وأول مظاهر هذه العناية أن نطبق المنهج الإسلامي بكل سموه ورقيه علي الأطفال، وبخاصة من انسلك منهم في صفوف التعليم.

لقد اعتني ديننا الحنيف بالطفل من قبل أن يولد، عند ما كان جنينا في بطن الغيب، وأوصي به بعد ولادته أيضا فقال (ﷺ): ﴿ الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم﴾ **وقال أيضا: ﴿حق الولد على والده أن يحسن اسمه وأدبه، وأن يعلمه الكتابة والسباحة والرماية ،وألا يرزقه إلا طيبا... الحديث﴾.**

وكان رسول الله (ﷺ): ﴿إذا مر بالصبيان سلم عليهم﴾ [1]. وتعددت الآيات القرآنية التي ترعي حقوق الأطفال، وبخاصة من حُرم منهم رعاية الآباء، قال تعالي:﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾[2].

وكان الصحابة الغر الميامين يحفظون آيات القرآن عشر آيات عشر آيات، ولا ينتقلون من عشر آيات منها إلا إذا ترجموها إلي واقع حي ملموس، وسلوك عملي ينتقلون بعدها إلي الآيات العشر التالية.

ولا بد من الحرص دوما علي الرقى بالتربية، والانتقال بها إلي درجات أسمي في التعامل والتعايش مع الواقع، حتى لا تنفصم العُرا بين الجيل الجديد ومنابع دينه.

ولا ينبغي أن نقلق إذا تأخرت النتائج الإيجابية في التربية الإسلامية لدى الأطفال، إذ ليس مَن السهل ابتداء أن ينتقلوا من عالم المحسوسات بما فيه من جاذبية وانبهار إلي عالم المعاني المجردة، حيث تبدو للناشئة وكأنها أوهام أو ألغاز وأحاجي.

---

(١) متفق عليه.
(٢) الضحي: (٩)

ومن خصائص المنهج الإسلامي اعتماده علي العبادة بما فيها من مادة ومحسوسات وروح وغيبيات، ولا يليق أن نكلف الطفل بتطبيق المنهج بالصورة التي نطالب بها الكبير إذ أن للتكليف سنا معينة عندها يحاسب الصغير علي ما قدم من خير أو شر « ولكن العبادة في هذا المنهج تحتاج إلي توضيح، فهي ليست قاصرة علي مناسك التعبد المعروفة من صلاة وصيام وزكاة» وإنما هي معني أعمق من ذلك جدا « إنها العبودية لله وحده..... والتلقي من الله وحده في أمر الدنيا والآخرة كله، ثم هي الصلة الدائمة بالله في هذا كله »[1].

ثانيا: تكامل المنهج الإسلامي في التربية:

اعتنى الإسلام في منهجه المتكامل بالتربية، ذلك التكامل الذي صار الالتزام به والدعوة إليه هدفا لكل مخلص غيور، ونعتقد أن العناية بالروح هدف سام، وغرض نبيل في الإطار العام لهذا المنهج ذلك؛ لأن الروح طاقة مجهولة لم نتعرف علي حقيقتها وكنهها، وليس لدينا إلا ما ذكرته الشريعة في ذلك، - في عمر معين - ببعض ما قيل عنها بما يخدم الوعي الديني لديهم، وبقدر يتأكدون معه من طبيعة الصلة الكائنة بين الله والأرواح.

وتعد الروح مقدمة للارتقاء بالقوة العقلية؛ حتى لا يغرق الأطفال في بحور الغيبيات. ولا يخالجنى شك في قيمة هذه القوة، ومن المفيد علمياً وتربويا تنميتها وتغذيتها بأمور كثيرة كالتعرف علي مظاهر الطبيعية بالارتحال في الأرض والتفكير في ملكوت الله، ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (*) هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[2].

ولم تكن عناية الإسلام بالروح والعقل علي حساب الجسم والتربية البدنية، ولنتدبر الحكمة في أن تُمنح كل من الحامل والمرضع بعض الرخص في العبادة. ولننظر كيف جعل القرآن – بصفته مصدراً للتشريع- الرضاعة حولين كاملين،

---

(١) منهج التربية الإسلامية جـ١ ص ٣٤.
(٢) آل عمران: (١٣٧، ١٣٨).

وأوجب نفقة للنساء والمطلقات، نظير الرضاعة؛ واعترافا بما يحصل عليه الطفل من أمه كالعطف والحنان، والمودة ولين القلب مما لا توفره الرضاعة الصناعية، التي وفدت إلينا فأصابت كثيرا من أطفالنا بأذى وشر كبير.

كما أنه لا بد من العناية بالجانب النفسي الذي يشمل المداعبة والملاعبة، لتهدأ نفس الطفل وتسمو روحه، وتنتظم غرائزه ففي الأثر: «لاعب ابنك سبعا، وأدبه سبعا، وآخه سبعا»، ونستطيع – كما ذكرت سلفا- أن نستوضح جزئيات هذا المنهج من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية وسلوك الصحابة الأجلاء.

ثالثا: الوعي الديني عند التلاميذ

إذا أردنا أن نربي أبناءنا تربية إسلامية قوية، وأن ننمي الوعي الديني لديهم فلا بد من أن يكون لدينا البيت المسلم والمدرسة المسلمة والشارع المسلم والمجتمع المسلم، ونحن ولله الحمد في دولة مسلمة، ولذا من الممكن أن تكون آمالنا في تربية الأطفال وفي المنهج الإسلامي محققة، أو قريبة من الهدف المنشود، علما بأن بعض الأطفال لا يستجيبون للوعي الديني بالصورة المرغوبة، لأسباب ليس من مهمة هذه الدراسة تعقبها والبحث عنها. ومع التطور الحديث في العلوم والتقنية صار الأطفال نهبا لمؤشرات كثيرة يأتي في مقدمتها وسائل الإعلام المرئية التي تحرك النشأ إلي أمور كثيرة جدا، ومن هنا يأتي دور الأسرة والمدرسة؛ ليكتمل مع البيئة (المجتمع) كل تأثير علي الأطفال إيجابا وسلبا.

(١) دور الأسرة في تنمية الوعي الديني:

إن تربية الأبناء والإشراف عليهم مسئولية أمام الله سبحانه وتعالي، ولذا قال الرسول صلي الله عليه وسلم : ﴿ كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته﴾[١].

وعندما يترك الآباء والأمهات تربية أبنائهم إلي الخادمة، أو ينشغلون عنهم بأعمالهم الخاصة، أو يقع الأبناء ضحية للصراع بين أفراد الأسرة، عند ذلك يعم

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

لتشتت كيان البيت، ويفتقد الأبناء قدرا كبيرا من الحنان والمودة والشعور بالعطف، وينعكس هذا بالتالي علي سلوكياتهم، ويفتقدون الوعي الديني، الذي يهذب من تصرفاتهم، ويؤثر أيضا علي نتائجهم في الامتحانات، وتخسر الأسرة بهذا أشياء كثيرة. وعن دور الأبوين في توجيه الأبناء إلي العبادة قال الرسول صلي الله عليه وسلم: ﴿ما من مولود إلا يولد علي الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه﴾ (١).

« أي أنه يولد علي الفطرة الأصيلة، وأبواه يجعلان هذه الفطرة مستقيمة علي طبيعتها السوية، أو يعملان علي انحرافها، وذلك حسب التوجيه الذي يوجهانه به أو التربية التي يربيانه عليها»(٢).

ونؤكد علي دور الأب والأم (بالذات) في تنمية الوعي الديني، ولا أظن أن طفلا لا يتجاوز عمره عدد أصابع اليد الواحدة أو حتى أصابع اليدين يمكن أن ينمو هذا الوعي لديه إذا كان الأب سيئا، أو كانت الأم تفتقد هذا الوعي، وكما قيل: فاقد الشئ لا يعطيه، فلا بد أن يتحسس الأبوان قيمة دورهما تجاه الأبناء، وقيمة الأبناء أيضا بالنسبة لهما، فقد قال الشاعر:

فإنما أولادُنا بيننَا *** أكبادُنا تمشي علي الأرضِ

وقد أكد الشاعر حافظ إبراهيم علي دور الأم في التربية فقال:

الأمُّ مدرسةٌ إذا أعددتَها *** أعددتَ شَعْبا طيِّبَ الأعْراق(٣)

واعتني القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بدور الأبوين في تربية الأبناء، وتنمية الوعي الديني لديهم، قال تعالي: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ

(١) متفق عليه.
(٢) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – ج ٢ ص ٨٨
(٣) ديوان حافظ جـ١ صـ ٢٨٢ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، والأعراق ..الأصول.

وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾[1] وقال: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾[2].

وقال الرسول (ﷺ): ﴿ما نحل والد ولده نِحلةً أفضل من أدب حسن﴾ [3] وقال: ﴿لأن يؤدب الرجل ولده خيرٌ من أن يتصدق بصاع﴾[4]. ومما قاله عن دور الأبوين في العبادة: ﴿مروا أولادكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع﴾[5]. ويجب أن يكون تبصير الأبناء بالقيم الدينية متماشيا مع قدراتهم العقلية، وذلك الدين عند الطفولة: «دين فطري محدود بعقلية الطفل، وأفكاره المحدودة، وعجزه عن تقدير المشكلات التي يقدرها عقل الشباب»[6].

وأريد أن أنبّه هنا إلي شئ مهم وهو القدوة، سواء في مجال التربية بالمنزل أم غيره، فالطفل قابل في سنواته الأولي للتأثر بمن حوله، وبعض الناس يفعل أحيانا نوعاً من التصرفات أمام الأطفال ظانا أنهم لا يفهمون ما يفعله، ولكن هذا خطأ كبير؛ لأن الطفل يبدأ في التقليد في مرحلة سنية متقدمة، أليست الألفاظ التي يتعلمونها في السنتين الأولي والثانية من أعمارهم إلا تقليدا لمن حولهم، وصدق الرسول في قوله لتلك الأم التي قالت لولدها: ﴿تعال لأعطينك ثمرة... قال لها: أما أنك لو لم تعطه لكتبت عليك كذبة﴾، وبذلك اتضح لنا دور الأسرة، وبخاصة الأب والأم، لقربهما الشديد من الأطفال.

ويمتد دور الأبوين؛ ليشمل مسئوليتهم عما يختارونه للأطفال من برامج المرئي (التليفزيون) أو الأجهزة الأخرى، فلا يليق بالأبوين وبقية أفراد الأسرة للكبار أن يتركوا الأبناء نهبا لكل ما ينشر ويذاع، والذي يصلح الكبار لا يصلح

---

(١) التحريم: (٦).
(٢) الطور: (٢١).
(٣) أخرجه الترمذي والحاكم والسيوطي.
(٤) رواه الترمذي.
(٥) رواه أحمد.
(٦) الطرق الخاصة في التربية – محمد عطية الإبراشي – ص ٢٤٧.

بالضرورة للصغار، كما تنهض الدولة بدور كبير في ترشيد هذه الوسائل لما في التعامل معها بإسراف من خطورة علي الأبناء، وبخاصة في مرحلة الطفولة.[1]

(٢) دور المجتمع:

عندما يخرج الطفل من المنزل إلي المدرسة فإنه يبدأ في احتكاكه بالمجتمع سواء في ذهابه إلي المسجد، أم في تعرفه علي الأقارب والأصدقاء، أو في زيارته للجيران. إذن فالمجتمع دائرة أكبر وأوسع من محيط الأسرة يبدأ الصغير في مشاهدة أنماط من السلوك، ربما تختلف عما شاهده، وتعرف عليه في نطاق أسرته.

إذن من الأفضل أن يحدث التقارب بين الذى يشاهده الطفل، ويتعرف عليه في الشارع أو غيره من جوانب البيئة، وبين الذي تعمله، وتعود عليه في نطاق أسرته، حتى لا يحدث التناقض في مرئيات الطفل فيرتد عليه بانتكاسات كبيرة في تصرفاته السلوكية.

ويمكن أن تضيع مجهودات الآباء، وتذهب سدي إذا أفسد المجتمع ما بناه الآباء، وندعو الله ألا نصل إلي ذلك، كما نستعيذ بالله أيضا أن تهدم الأسرة ما ينهجه المجتمع أو ما تؤسسه المدرسة (علي ما سوف نذكر). وينبغي للأبوين أن يغرسا عاطفة الحب في الله عند الناشئين؛ لتشمل تصرفات الناشئة نحو المجتمع كثيرا من العادات الحميدة مثل احترام الكبار من منطلق قول الله تعالي: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2] والصدق في القول والعمل- فالطفل الذي افتقد الصدق في أبويه يصعب أن نجده صادقا في تعامله مع سائر الناس، ومن خلال الوعي الديني الذي يشمل الأطفال تتجسد بعض المعاني لديهم مثل زيارة المرضي والعطف علي الفقراء والمحتاجين ومساعدة الضعفاء والمرضي والاستئذان عند الدخول علي الناس، إلي غير ذلك من الآداب الإسلامية الحميدة، مصداقا لقول

---

(١) أكد لي وكيل مدرسة عروة بن مسعود علي استجابة التلاميذ الذين نشأوا في بيئة دينية للوعي الديني، وذكر ناظر المدرسة أن تلميذا واعيا لدينه يراه ذاهبا قبله إلي المسجد في صلاة الفجر وينعكس هذا علي سلوكه بالمدرسة.

(٢) الحجرات: (١٠).

الله تعالي: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[١] **وقول الرسول** ﴿ﷺ﴾: ﴿تري المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكي منه عضو تداعي له سائر جسده بالسهر والحمي﴾[٢].

وفي مقام اختيار الأصدقاء قال الرسول ﴿ﷺ﴾: ﴿لا تصاحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقي﴾ [٣].

وإذا كانت بعض هذه النقول من الكتاب والسنة لا تتحدث إلـي الصغار مباشرة وكانت الحكمة فيها - كما يبدو- مساقة إلـي الكبـار، فلأنهـم القـدوة والمسئولون عن تنشئة الأجيال الجديدة.

(٣) دور المدرسة:

لقد حرصت علي أن أتحدث عن البيت والمجتمع قبل المدرسـة، وذلـك لخطورة دور البيت؛ ولأن التلميذ يواجه نماذج من المجتمع قبـل مجيئـه إلـي المدرسة، وكنا لا نزال نكرر تلك المقولة: «البيت قبل المدرسة والتربيـة قبـل التعليم» وأحببت أن أؤخر الحديث عن دور المدرسة؛ لأن هذه الجزئيـة ينبنـي عليها صلب الموضوع الذي نحن بصدد الكتابة عنه.

وقد حدد الأستاذ محمد قطب دور المدرسة فقـال: « والمفـروض فـي المجتمع المسلم الذي يتحاكم إلي شـريعة الله، ويطبـق مـنهج الله وأن تكـون المدرسة إسلامية بمعني أنها تربي تلاميذها ليكونوا مسلمين صـالحين، وتتمـشي مع التربية الإسلامية التي بدأها الطفل في المنزل، وتسير بها خطوات جديدة نحو الاكتمال، بل المفروض- وفيها مدرسون متخصصون في التربية- أن تـصحح وتقوّم ما عسى أن يكون البيت المسلم قد نسيه، أوْ لَمْ يحسن التوجيه فيه. فلـيس كل الآباء موهوبين في فن التربية، وليس كلهم علي المستوي المطلوب من حيث

---

(١) آل عمران: (١٠٤).
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه ابن حيان في صحيحه.

التصرف وسعة الإدراك، والمرونة لعملية التربية»[1] وتتنوع جهة المسئولية علي التربية بين المدرس من جهة، والإدارة المدرسية من جهة أخري.

أ- دور المدرس:

يعد دور المدرس أهم الأدوار في العملية التعليمية، وفي تنمية الوعي الديني بخاصة، ولا يمكن أن يؤدي المدرس دوره في تنمية هذا الوعي، إذا كان هو نفسه مفتقدا لهذا الوعي، وقد نبه الأستاذ محمد عطية الإبراشي إلي هذا الشرط فقال: « ولكي ينجح المدرس في دروسه يجب أن يكون متدينا، واثقا بالله كل الثقة، معتقدا في دينه بقلبه ولسانه، يثق بالله ووحدانيته وقدرته ».[2]

ويجب أن يكون المدرس قدوة لتلاميذه، حتى لا ينطبق عليه قول الشاعر:

لا تَنْه عن خلق، وتأتيَ مثله * عارٌ عليك - إذا فعلتَ- عظيمُ**[3]

ولا يليق بالمدرس أن يكون تدينه ظاهريا، إذ أنه لا يلبث أن ينكشف علي حقيقته، وهنا تكون النتيجة سيئة للغاية؛ لأن التلاميذ سيُصْدمون صدمة عنيفة عند كشف هذا الزيف ولهذا " يجب أن يكون مدرس الدين عظيم التدين، قوي الإيمان، متمكنا من دينه في نصوصه وأحكامه وفقهه، مقتنعا بما جاء فيه، عاملا طبق أوامره ونواهيه، قادرا علي تقريب دروسه إلي أذهان تلاميذه؛ حتى يحسنوا فهمها والعمل بها"[4].

كما لا يكفي من المدرس أن يكون متدينا من غير أن يحول تدينه إلي سلوك حسن يبدو به أمام تلاميذه، وهنا نؤكد أن : « لخلق المدرس أثر كبير في

---

(١) منهج التربية الإسلامية – جـ٢–ص١٧٣.
(٢) الطرق الخاصة في التربية – ص ٢٥١.
(٣) هذا البيت لأبي الأسود الدؤلي – راجع تحقيقه في شرح قطر الندي لابن هشام.
(٤) الطرق الخاصة بتدريس اللغة العربية والدين– حسن حريري وآخرون.

أخلاق تلاميذه، فهو قدوة لهم يحاكونه في أقواله وأفعالــه وحركاتــه وســكناته، فيجب أن يكون متمسكا بدينه متحليا بالفضيلة، متجنبا كل رذيلة ». [1]

ولا بد أيضا أن يكون المدرس إلي جانب الدين والعلم ملما بفنون التربية، وذلك " ليتمكن المدرس من دراسة نفسية الطفل والنزول إلي مستواه، والاتصال العاطفي به؛ ليكون ذلك جسرا يوصل خلاله العلم إلي عقل التلميذ. [2]

ويجب أن يحرص المدرس علي ربط الدين بمواقف الحياة المختلفة، أمــا حكاية الوعظ والإرشاد، التي يكتفي بها بعض المدرسين، فلا يخالجنا شــك فــي التأكد من عدم جدواها.

كما يجب أن يختار المدرس لتلاميذه الصغار المسائل البسيطة، سهلة الفهم والتقبل، كثيرة الحدوث في حياة الناس. ونتيجة لسرعة التأثر من قبــل تلاميــذ المرحلة الابتدائية كان دور المدرس في هذه المرحلة مــن أخطــر الأدوار فــي المجال التربوي فضلا عن دور معلم التربية الدينية بخاصة.

ب- دور الإدارة المدرسية:

أقصد بالإدارة المدرسية ناظر المدرسة ووكيلهــا والمــوجهين ومــدراء المناطق التعليمية وغيرها، وهؤلاء جميعا عليهم دور كبير في تشجيع المــدرس علي تأدية عمله، وتقديم الحوافز له؛ حتى ينهض بمهامه، وعليهم أيضا التعــاون مع المدرس في تنمية الوعي الديني لدي التلاميذ في ضوء ما يخوله لهم النظــام القائم، وعليهم أيضا مساءلة المدرس عند التقصير والإهمال.

والإشراف الإداري والتربوي مهم جدا؛ لأن النفس الإنسانية تأمر- أحيانا- بالسوء، ومن أعظم السوء أن يركن المدرس إلي الدعة والتكاسل، أو أن يــؤدي

---

(١) الطرق الخاصة للأبراشي – ص ٢٥٠.
(٢) تاريخ التربية الإسلامية – د. أحمد شلبي – ص ٢١٠.

عمله بتراخ، ولهذا كان منطق الجزاء والعقاب منطقا مقبولاً وبخاصة مع مدرسي المرحلة الابتدائية؛ لخطورة دورهم، ولصغر التلاميذ في تلك المرحلة.

ويجب علي الإدارة أن تهيئ للمدرسين ما يمكنهم من أداء أعمالهم بإتقان، وأن تحرص علي حل مشكلاتهم، وأن تقرر لهم الحوافز أو العلاوات بما يشجعهم علي بذل الجهد وأداء العمل بأمانة وإخلاص.

وفي ضوء ما سبق يتضح المنهج الإسلامي في التربية وهو منهج يتعهد الطفل بالرعاية والمتابعة، ليقدم منه في النهاية إنسانا سويا معتدلا صالحا، يعتمد عليه في أراء دوره بالمجتمع بالصورة المثلي المبتغاة.

رابعاً: أثر العلوم الدينية في التعامل والسلوك اليومي بالمدرسة:

سبق أن أشرت إلي ضرورة تحويل المعارف الدينية إلي سلوك ينعكس علي تصرفات التلاميذ وتعاملهم اليومي بصفة عامة، وفي المدرسة بصفة خاصة، حيث يجتمع الأطفال ويتأثرون ويؤثرون في بعضهم البعض من ناحية السلوك والعبادة والعواطف والمشاعر أيضا. ولننظر في القرآن الكريم والعلوم الدينية المختلفة في ضوء البرنامج المقرر علي تلاميذ المرحلة الابتدائية، ونتابع أثر هذه العلوم علي التعامل والسلوك بالمدرسة.

١- القرآن الكريم:

يُكلّف التلاميذ في الصفوف الابتدائية بتلاوة قدر كبير من أجزاء القرآن الكريم، فقد أطلعت علي مقرر السنوات الست فوجدته يتجاوز ثلث القرآن وهو اثنا عشر جزءا وربع الجزء باستثناء بعض السور القصيرة، التي تَقَرَّر حفظها في السنة الأولي(ابتداء من سورة التكاثر وانتهاء بسورة الفرقان) وهو قدر ملائم لأعمار التلاميذ، ويعبر عن أهمية كتاب الله بالنسبة للأطفال في هذا العمر.

وينهض المدرسون بقراءة مقرر التلاوة في كل سنة دراسية، ويكلفون بإيضاح الكلمات التي ينغلق معناها علي التلاميذ. وليس للوزارة كتاب مقرر أو جزء من كتاب مقرر في هذا المقدار من منهج القرآن الكريم بالصفوف الابتدائية، ولذلك يسعي المدرسون[1] إلي شراء بعض الكتب أو المراجع، التي تعينهم علي إيضاح بعض المفردات للتلاميذ، فيما يختص بمقرر القرآن الكريم من التلاوة، ومن الحفظ أيضا.

أما منهج الحفظ علي السنوات الدراسية الست فهو قليل من وجهة نظري، إذ يكلف التلاميذ بحفظ جزءين فقط ابتداء من سورة الناس وانتهاء بسورة الملك مع العناية بدرجة أكبر من حيث شرح المفردات، وبيان المعني، وتحديد الأهداف.

وفي هذا القدر المطلوب حفظه نري كثيرا من التوجيهات الدينية التي يمكن أن يستفيد منها التلاميذ وتنعكس علي سلوكهم في المدرسة بالذات.

ويمكن أن يتعرف التلاميذ في السنة الأولي علي بعض التوجيهات في ضوء المنهج المقرر مثل احترام الآخرين، وعدم الإساءة إليهم من خلال قوله تعالي: ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾[2] ومثل الإيمان الحقيقي بالله الذي ينعكس علي تصرفات التلاميذ، فيوصون بفعل الخير والنصح للآخرين، من خلال ما جاء في سورة العصر.

ومثل ترك الحسد وكراهية الآخرين (سورة العلق) ومثل العطف علي الضعفاء واليتامى (سورة الماعون) والمعروف أن التلاميذ الصغار يحبون القصة حيث تجذب انتباههم، وتسحر نفوسهم، وتؤثر في سلوكياتهم إيجابا وسلبا، وفي السور المقرر حفظها علي السنة الأولي قدر كبير من هذا القصص مثل

(١) كما قال أحد مدرسي التربية الدينية بمدرسة عروة بن مسعود الابتدائية بالطائف.
(٢) الهمزة: (١).

أصحاب الفيل (سورة الفيل) ورحلات القرشيين في الشتاء والصيف (سورة قريش) وقصة الرسول مع الكفار (سورة الكافرون) وقصة فتح مكة (سورة النصر) وقصة أم جميل زوجة أبي لهب والملقبة بحمالة الحطب (سورة المسد).

وتوجد كتب كثيرة حول القصص القرآني، وبعضها كُتب بلغة خاصة بالأطفال (في سن معين)، وبعضها كتب بلغة خاصة بالكبار، يمكن أن يستفيد منها السادة المدرسون ويعتنون بما فيها من أهداف ومقاصد.

ونجد قدرا كبيرا من المعاني الأخلاقية والسلوكية فيما تقرر حفظة علي تلاميذ الصف الثاني (من أول سورة الضحي إلي آخر سورة التكاثر).

لقد تحدثت هذه السور بما فيها من آيات بينات عن اليوم الآخر **قال تعالي:** ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا.......﴾[1]. **وقال تعالي:** ﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾[2] ويتخذ القبر مدخلاً إلي الحديث عن اليوم الآخر، قال تعالي: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾[3]. وقال تعالي:﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[4].

ويستطيع المدرس أن يحث التلاميذ علي العلم عند حفظهم لقوله تعالي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (*) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (*) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (*) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (*) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[5].

وفي هذه السور بعض القصص القرآني الجميل مثل قصة الرسول (سورتا الضحى والشرح) وقصة نزول القرآن (سورتا القدر والعلق).

---

(١) الزلزلة: (٩)
(٢) القارعة: (١-٣)
(٣) العاديات: (١).
(٤) التكاثر: (١-٢).
(٥) العلق: (١-٥).

وفي مقرر الحفظ للصف الثالث من أول سورة الليل إلى آخر سورة المطففين، نجد كثيرا من المعاني الأخلاقية والسلوكية التي يمكن أن يوجه إليها التلاميذ. مثل البذل والإنفاق أخذا من قوله تعالى:﴿ فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾[1].

والصدق في القول والعمل وترك الكذب والإثم أخذ من قوله تعالى:﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى * لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾[2] وترك التجاوز والظلم، عملا بقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾[3] والجانب القصصي متواجد في هذه السور أيضا مثل قصة نبي الله صالح (سورة الشمس) وقصة أصحاب الأخدود (سورة البروج) وغيرها.

وفي منهج الصف الرابع (من أول سورة الانفطار إلى آخر سورة الإنسان) قدر كبير من السلوك والقصص الذي يتلاءم مع أعمار التلاميذ في هذا الصف، ويقدم لهم أيضا إلي جانب المقرر من القرآن الكريم مبادئ علم التجويد مطبوعا كجزء من كتاب العلوم الدينية المسمي (مقرر التوحيد والفقه والتجويد). وبهذه المبادئ يستطيع التلاميذ أن يخطوا بعض الخطوات نحو الإجادة في التلاوة والحفظ. أما المعاني الأخلاقية ، والصفات السلوكية المفيدة فنجدها في العديد من السور **قال تعالي:** ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَن جَاءهُ الْأَعْمَى ﴾[4] **وقال تعالي:** ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾[5] ، **وقال تعالي:** ﴿ عَمَّ يَتَسَاءلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾[6].

---

(١) الليل: (٥– ٧).
(٢) الليل: (١٤–١٦).
(٣) الفجر: (١١–١٢)
(٤) عبس: (١–٢).
(٥) النازعات: (١٥).
(٦) النبأ: (١– ٢)

وقد اشتملت السور في هذا المنهج علي بيان موسع للجنة والنار بما فيهما مما يخص المؤمنين، ويخص الكافرين أيضا. مع ضرورة تقديم هـذه الغيبيـات بصورة محببة للتلاميذ، وبالأسلوب القصصي الذي يستهويهم ويعجبهم.

وفي الصفين الخامس والسادس يكون عقل الطفل قد نما وكبر، ولذا يُتوسع معه في بسط بعض الحقائق بالقدر الملائم أيضا. وفي منهج هذين الصفين مـن القرآن الكريم كثير من المعاني والسلوكيات، التي يمكن أن تنعكس علي التلاميذ بالصورة التي يجب علي المدرس المسلم أن يتابعها ويرصدها، سواء في ساعات النشاط، أو في أوقات الفراغ (أو عند دخول الفصول) أو عند الخروج منها؛ لأن نقل المعاني والتوجيهات القرآنية إلي سلوكيات في اليوم المدرسي مسألة خطيرة لا ينبغي أن تُترك لهوي الصغار وميلهم إلي العبث أحيانا. وليس معنـي تـأثر التلاميذ بالسلوكيات الإيجابية من خلال حفظهم وتلاوتهم للقرآن الكريم أن تحوّل حيواتهم أو أيامهم المدرسية إلي جِدٍّ وبحث وصرامة مستحكمه؛ لأن اللعب واللهو من حق التلميذ في أوقات محددة. وأعتقد أن تاريخ الرسول صلي الله عليه وسلم في عنايته بالصغار، وحرصه علي مداعبة الكثيرين منهم مما كانوا قريبين منـه خير شاهد علي أهمية المعاني السابقة.

٢- الحديث النبوي:

ينهض حديث الرسول بدور كبير في التربية الدينية، فقد اشتمل علي كثير من التوجيهات الأخلاقية التي سيقت في أساليب إسلامية رائعة، وقصص نبوي جميـل، مثل صلة الرحم وزيارة الأقارب وحسن الخلق، وترك الغضب والنظافة، والرأفـة بالحيوان، ومراعاة آداب الإسلام في الأكل والشرب وغيرها (من مقـرر الـصف الخامس). ومثل الصدق في القول والعمل وحفظ الأمانة، والوفاء بالعهد، والحفـاظ علي أموال الآخرين وأعراضهم ودمائهم، وترك البدع والمنكرات، واختيار الجليس

الصالح، وإطاعة الوالدين وبرهما بعد موتهما، والترغيب في طلب العلم، والحفاظ علي الطريق وإعطائه حقه مثل غض البصر، وكف الأذى ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحب في الله، والتراحم والتعاطف بين المسلمين والإخلاص في النصيحة، وزيارة المرضي، والسلام علي المسلمين[1].

ولعل أهم الأهداف من دراسة أحاديث الرسول تتضح فيما جاء بكتاب الصف السادس عند التقديم للمنهج المقرر قال مؤلفو الكتاب: «إن الأهداف والغايات التي نرمي إليها من دراسة العلوم الدينية هي أن تكون جميع أقوال الإنسان وأعماله موافقة للشرع المطهر، ومستمدة من الدين الحنيف وأن يكون الدين عقيدة راسخة متغلغلة في دمه وأعصابه، له مظاهره العملية التي تبدو في أخلاقه وسلوكه وألوان معاملته وتصرفه، وأن يفهم التلاميذ حقائق الدين الإسلامي، ويقفوا علي مبادئه السامية وتعاليمه السمحة، ويعرفوا ما يجب عليهم نحو ربهم وأنفسهم وأمتهم من حقوق»[2].

وما ذكرناه في حديثنا عن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف يمكن أن يُذكر أيضا في علمي التوحيد والفقه، حيث إن هاتين المادتين تستمران مع تلاميذ الابتدائي طوال السنوات الست، وفيها من المعاني الأخلاقية والسلوكية مما يتأثر به التلاميذ في هذه المرحلة قدر كبير. وأعود لأؤكد أهمية الجانب التطبيقي، فمثلا في مادة (التوحيد) لا بد أن يتعرف التلميذ علي دلائل وجود الله من خلال الآيات الظاهرة كالليل والنهار والشمس والقمر والسموات والأرض وغيرها.

ولا بد أيضا من تحويل دراسة الفقه إلي واقع عملي، إذ لا قيمة كبيرة لمعرفة التلميذ لأركان الوضوء وسننه وكيفية الصلاة ما لم تتحول هذه المعارف

(١) من موضوعات الأحاديث النبوية في مقرر الصف السادس.
(٢) كتاب العلوم الدينية للصف السادس – ص ٦٧.

إلي تطبيق عملي يجتمع فيه المدرس مع تلاميذه علي الوضوء وفي الصلاة، ويعرفهم كيفية الأذان، والإقامة وأركان الصلاة وسننها، ويفرق لهم بين صلاة الفرد وصلاة الجماعة في الأداء والثواب.

وتستكمل دراسة الفقه في الموضوعات الأخرى كالصوم والزكاة والحج بالطريقة التي تتحول فيها معارف التلاميذ ووعيهم الديني إلي سلوك حميد، وتعامل مهذب في اليوم الدراسي كله.

خامسا: خاتمة

١) نحن نعلم أن نزعة التدين نزعة فطرية في الإنسان، لذلك يجب العناية بتدريس المواد الدينية في المرحلة الابتدائية، التي تواكب تفتح أنظار الأطفال علي المجتمع، وكل مناحي الحياة. وينبغي إعداد المدرس إعداداً جيدا؛ حتى ينهض بالمسئولية الخطيرة المكلف بها، فالمعروف أن التلاميذ في هذه المرحلة شديدو التأثر والتقليد بمن حولهم، خاصة إذا طالت مدة تواجدهم مع مدرسهم، الذي يقترب منهم، ويقدم لهم معارفه وتجاربه، وبخاصة ما اتصل منها بالجانب الروحي والجانب المعنوي. وحول الذي أقصده قال الأستاذ محمد عطية الإبراشي: "إن الغرض من تدريس الدين هو غرس الشعور الديني في نفوس التلاميذ؛ ليكون ذلك خير عاصم لهم من الانحراف في السلوك، وتزويدهم بثقافة دينية مستمدة من القرآن الكريم والحديث الشريف"(١).

٢) يشتمل منهج القرآن الكريم علي كثير من المعارف المحببة إلي نفوس التلاميذ، وأتمنى أن يزداد القدر المقرر حفظه في المرحلة الابتدائية، لأهمية القرآن الكريم سواء من ناحية السلوك أم من ناحية المعرفة، وأيضا

---

(١) الطرق الخاصة – ص ٢٥٠.

في أمور أخري أقربها وأظهرها معرفة التلاميذ للغة القـرآن، وتعـرفهم علي أسلوبه وبيانه وقصصه الرائع...... .

وحول أهمية التوجيهات القرآنية قال الأستاذ محمد قطـب: " لقـد أحسـست بطبيعة الحال أن في القرآن توجيهات تربوية كثيرة، وأن لهذه التوجيهات أثرا في النفس، وأن الإنسان حين يتدبرها، ويتأثر بها يصبح له سلوك معـين وشـعور معين، هو أقرب إلي الصلاح والتقوى، ويصبح الإنسان أكثـر شـفافية وأكثـر إنسانية"[1].

وأعتقد أن وزارة الحج والأوقاف وبعض الجمعيات الإسلامية تستطيع –إن شاء الله تعالي– أن تسهم بدور كبير في المعاونة علي تحفيظ التلاميذ للقرآن الكريم، مع وزارة المعارف فتُكثر من مجالس التحفيظ بالساجد فـي الفتـرة المسائية، ومن إقامة المسابقات المختلفة في التلاوة والحفظ. وقد سررت أيما سرور من حفظ كثير من التلاميذ[2] لسور قرآنية وتزيد عن المقرر حفظه من قبل وزارة المعارف.

٣) للنشاط المدرسي دور كبير في تقريب التلاميذ بعضهم من بعض، وتحويل معارفهم الدينية إلي سلوك حميد، ومن أمثـال ذلـك النـشاط: الجماعـة الإسلامية في مدرسة عروة ابن مسعود فقد اشترك فيها إلي جانب بعـض الأعضاء من هيئة المدرسة بعض أولياء الأمـور، إلا أن عـدد التلاميـذ المشاركين في هذه الجمعية قليل من واقع ما اطلعت عليه من اجتماعـات هذه الجمعية وأنشطتها، وتوجد أنشطة أخرى يمكن أن تـنهض بـبعض الأدوار الايجابية كعقد حصة أسبوعية (إضافية وخاصة) لتحفيظ القـرآن

---

(١) منهج التربية –جـ١ – ص ٧

(٢) من مدرسة عروة بن مسعود (في حي الشهداء) ومدرسة الطائف (بالعقيق) وهمـا مـن مدارس الطائف.

الكريم وتجويده، وإلقاء الأحاديث الدينية في إذاعة المدرسة، وإقامة الندوات الإسلامية؛ للتعريف بالدين، والمواظبة علي صلاة الجماعة بالمدرسة... « إن علينا أن نوسع ذهن الطفل رويدا رويدا، بحيث ندخل فيه بالتدريج فكرة الجماعات الاجتماعية التي يسهم فيها الآن، أو يندمج فيها في المستقبل، وأن نستعين بالتكرار؛ لكي نربط تلك التصورات رباطا وثيقا بأكبر عدد ممكن من الحالات الذهنية. بحيث يسترجعها العقل وتستحضرها الذاكرة علي الدوام، ويصبح لهما في الذهن مكانة تلزم الطفل بحفظها، والحرص عليها من كل ضعف أو نقصان»[١].

٤) للرسم وليس الصورة أهمية كبيرة في تقريب المعاني لدي التلاميذ، ونري أن تشتمل الكتب الدينية – ولو في الصفوف الثلاثة الأولي – علي بعض الرسومات الموضحة مثل التي قُدِّمت إلي تلاميذ الصف الرابع عند بيان الجهات الأربع لتحديد القبلة[٢] وأود أيضا أن تشتمل المعارف الدينية المقدمة إلي الصفوف الابتدائية علي جزء– ولو بسيط– من السيرة النبوية في الصفين الخامس والسادس؛ لتسهم هي الأخرى في توجيه التلاميذ إلي السلوك الحميد والتعامل المهذب، وهم بين زملائهم أثناء اليوم المدرسي بصفة خاصة، وفي كل حياتهم بصفة عامة.

---

(١) التربية الأخلاقية– إميل دور كايم– ترجمة – د. السيد محمد بدوي ص ٢٢٥ – دار مصر للطباعة

(٢) الكتاب المقرر صـ ٢٩.

أهم المصادر والمراجع

١) أصول التربية الإسلامية –د. سعيد إسماعيل علي –دار الثقافة بالقاهرة عام ١٩٧٦م.

٢) أصول التربية الإسلامية وأساليبها – عبد الرحمن النحلاوي –دار الفكر بدمشق.

٣) الأصول الحديثة لتدريس اللغة العربية والتربية الدينية – علي الجمبلاطي وأبو الفتوح التوانسي– دار نهضة مصر للطباعة والنشر.

٤) تاريخ التربية الإسلامية – د. أحمد شلبي – النهضة المصرية.

٥) التربية الأخلاقية – إميل دور كايم ترجمة د/ السيد محمد بدوي – مكتبة بمصر.

٦) التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا –د/ يوسف القرضاوي– مكتبة وهبة– مصر.

٧) الطرق الخاصة بتدريس اللغة العربية والدين– حسن حريري وآخران – مكتبة دار مصر للطباعة.

٨) الطرق الخاصة في التربية لتدريس اللغة العربية والدين – محمد عطية الإبراشي– مكتبة الأنجلو المصرية طبعة ٢ عام ١٣٧٤ هـ (١٩٥٥م).

٩) ديوان حافظ إبراهيم – طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٠) شرح قطر الندي لابن هشام–تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد–طبع دار الفكر.

١١) فقه السيرة – محمد الغزالي – دار القلم بدمشق.

١٢) في أصول التربية – محمد الهادي عفيفي – الأنجلو المصرية.

١٣) في التربية الإسلامية–د. عبد الغني عبود –دار الفكر العربي طبعة أولي عام ١٩٧٧م.

١٤) منهج التربية الإسلامية (الجزء الأول) محمد قطب – دار الشروق.

١٥) منهج التربية الإسلامية (الجزء الثاني) محمد قطب – دار الشروق.

١٦) نحو تربية إسلامية – أحمد محمد جمال– طبعة وزارة المعارف السعودية عام ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م).

****

الفصل الثالث

قضايا متنوعة

١. التعريب والترجمة: مشكلات وحلول.
٢. واقعية البحث العلمى فى مواجهة الجودة والضمان بالتعليم العالى.
٣. سرقات المتقدمين من المتأخرين.
٤. ضوابط الحوار الإسلامى.

١- التعريب ...... والترجمة
مشكلات وحلول(*)

أولاً: توطئة:

ترجع بدايات التفكير فى هذا الموضوع واختياره إلى دعوة كريمة تلقيتها من الجامعة الأردنية فى عمان بالمملكة الأردنية الهاشمية، للاشتراك فى ندوة بعنوان: (اللغة العربية: لغة البحث العلمى) تلك التى كان محدداً لها أن تُعقد أيام الخامس إلى السابع من مايو (آيار) عام ألفين وثلاثة من الميلاد، غير أن الحرب العراقية التى اندلعت فى العشرين من مارس ألفين وثلاثة أجهضت محاولتى، للاشتراك فى هذه الندوة؛ لأن هموم الأمة آنئذ لم تكن فى حاجة إلى زيادتها بالتفكير، لإقامة ندوة عن اللغة العربية وهمومها، وأنها لغة صالحة للبحث العلمى، وأنها من أقوى السبل لتقوية أواصر المودة والقربى بين البلاد العربية، إلا أن الفكرة لم تمت فى ذاكرتى، وإنما سعيت إلى الإعداد لها، وتنفيذها لعل وعسى أن يأتى الزمن، محملاً بلقاء قريب أو ندوة أُقدم فيها هذه الدراسة المزمع تكوينها، وطال الزمن، واتسع البحث، واستقر موضوعه على الشكل المثبت فى أعلاه، لكننى لم أرغب قصره على ذلك، وإنما كنت راغباً فى الاتساع به، وحسن التعامل معه، من خلال عدة محاور أو طرق؛ للوصول إلى النتائج والتوصيات التى أود البوح بها، خاصة أن الموضوع كله بسائر تفصيلاته يمثل أهمية كبيرة بالنسبة لى؛ لأن السنوات السبع السابقة قد شهدت تطويراً لآليات

(*) البحث بعنوان: (التعريب والترجمة ... مشكلات وحلول) والذى سوف نتقدم به إلى المؤتمر الدولى الثانى بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر بالزقازيق، تحت عنوان: (معالم التلاقى بين علوم اللغة العربية، والعلوم الإسلامية) والمزمع عقده فى المدة من (٢٠-٢٢) من أبريل عام ٢٠١٠م وذلك ضمن موضوعات المحور الرابع، وعنوانه (معالم التلاقى بين فقه اللغة العربية، والأصوات والعلوم الإسلامية).

البحث فى قضايا اللغة العربية، داخل الوطن الصغير، والعالم العربـــى الكبيـــر، وأقصد بذلك ما يتصل بقضايا العولمة، وأزمة الهوية، ولغة البحث العلمـــى فـــى الجامعات العربية، وقيمة لغتنا الفصحى بين لغات العالم، ومهمتهـــا فـــى تقويـــة أواصر القومية العربية، تلك التى تمثل اللغة العربية جزءاً كبيراً مـــن تكوينهـــا، وأن هذه اللغة من أعمدة الصيانة والحفاظ على هوية الأمة، أو على الأقـــل مـــا تبقى من هويتها، وقد نَهَضْتُ لاقتحام هـــذا الموضـــوع باســـتطلاع لآراء مائـــة وخمسة من أساتذة الجامعات المصرية والعربية وبعض العلماء، ولم أقتصر فـــى هذه الاستبانات على قضية تعريب العلوم التجريبية كالطب والهندسة وغيرهمـــا، وإنما توسعت فى بحث العديد من القضايا المتواصلة أو المتشابكة، مع موضوعنا الأساسى، الذى نهضت ببحثه وإتمامه، ولم أكتف بذلك، وإنما رجعت إلى معرفة آراء الكثيرين من العلماء فى داخل مصر وخارجها؛ لأن القضية لا تقتصر علينا هنا، وإنما هى همّ مشترك، يلتف حوله إخواننا فـــى المـــشرق والمغـــرب علـــى السواء، وعلى جانب منه تكاد عاميات الشعوب العربية تصيب أبناء اللغة العربية فى مقتل، وكل جماعة فى إقليم تزعم أن عاميتها هى الأقرب إلى اللغة العربيـــة الفصحى، مع أنها كلها تخرج على المقاييس التى ارتضاها العرب لحماية القرآن الكريم للغتهم، وبقائها ببقائه، مع أن انهيارات كثيرة تخترق جسد اللغة، إما مـــن وافد لغوى أوربى، أو من خلال استمرارية التدريس للأبناء الصغار فى المراحل التى تسبق التعليم الجامعى بلغات أوربية، نحن نحتاجها بكـــل تأكيـــد، ولكـــن لا نرغب فى أن تسيطر على توجهاتنا وهويتنا وبقايا تراثنا، الذى نعتز ونتمسك بـــه بكل تأكيد، ولذلك كانت الحاجة ماسةً إلى استطلاع آراء العلماء المثقفين (الكبار) فى واقع اللغة العربية، خاصة مع قضية تعريب التعليم الجـــامعى فـــى مـــصر وبعض البلدان العربية.

وقد أصدرَتْ مجلة عالم الفكر[1] عدداً خصصته لبحث إشكالية اللغة العربية، ورأيت أن موضوعاً عنوانه: (تعريب التعليم الجامعي، أضواء على تجربة) من إعداد الباحثة السورية الدكتورة/ تغريد نصر يمكن أن يقدم بعض الإضاءات عن تجربة كلية الطب في حلب بسورية، والتي يتم التدريس فيها باللغة العربية، مع أن هذه التجربة قد زاد عمرها عن عشر سنوات، من يوم إعداد ذاك البحث إلى الآن[2] لكن المتغيرات من خلال الرؤية والمتابعة ليست كثيرة؛ لأن بداية التعريب كانت بقرار سياسي عام ١٩٦٦م مما يجعل نمو التجربة يبدو هادئاً، وغير مثير للدهشة في ظل الآراء الموافقة والمعارضة لهذه التجربة في حلب أو في غيرها من البلدان العربية.

ثانياً: التعريب والترجمة بين الماضي والحاضر:

ينبغي الحفاظ على اللغة العربية الفصحى فى كل زمان ومكان، خاصة فى الوقت الراهن الذى تُواجه لغة القرآن بكثير من الإسفاف والتردى والمقاومة؛ لانتشارها خاصة ممن يأخذون الجوانب الرديئة والمسفة من العولمة، ومن سائر الراغبين فى التعلق بفلسفة الدول الغربية وحضارتها، إلى غير ذلك من الجوانب التى نعتبرها معادية للغة القرآن الكريم وأدب العرب.

وتتشكل الدوافع الإيجابية لحماية الألفاظ العربية وحراستها من الطغيان اللغوى غير الصحيح كالعامية، والكثير من الكلمات الأجنبية القديمة التى لم تُعرّب، والكلمات الأجنبية الحديثة التى ينتشر استعمالها بدرجة تضيع فيها الفواصل بين لغة القرآن الكريم، واللغة التى تجرى على الألسنة دون تحديد واضح لهويتها، وبيان ما فيها من خروجات على مقاييس اللغة الصحيحة، تلك

---

[1] التى تصدر فى الكويت الشقيقة – المجلد الثامن والعشرون – العدد الثالث يناير – مارس ٢٠٠٠م.

[2] أوائل أبريل عام ٢٠١٠م.

التي تكشف في الاستعمالات الشفهية والمكتوبة عن فقدان اللسان العربى لكثير من هويته وعروبته، ذلك أن اللغة التى ينبغى أن تنطق بها كل الشعوب العربية تعد مكوناً أساسياً لوحدة الأمة، وتقوية أواصر الصلة بين الشعوب الناطقة بها.

إن التعامل مع الفصحى ينبغى أن تُدار حركتهُ على أساس معرفي، ويشمل ذلك معرفة الدخيل والمُعَّرب من الألفاظ، وما أقرته مجامع اللغة العربية فى العصر الحديث، وليس معنى ذلك الحكم النهائى بإعدام اللهجات العامية والمتصرف منها مما يستعمله اللسان العربى خارجاً عن نطاق مقاييس اللغة، ذلك لأن المجتمعات العربية لا زالت تتغنى بأناشيد الحماسة وأغانى الحب، وسائر الوسائل الإعلامية، التى تتحدث باللهجات العامية فى كل الأوطان العربية، وقد شَهِدتُ ذلك بنفسى من خلال زيارتى لدولتين إحداهما فى الشرق وهى الأردن، والثانية فى الغرب وهى المملكة المغربية، وقد لوحظ أن بعض العاميات تقترب من بعضها مثل كلمة (بالزوفة) التى تستعمل هنا فى مصر، وكلمة (الزاف) التى تنطق بها شعوب دول المغرب العربى، كما أن كثيراً من آلاف الكلمات توشك على الموت، وذلك بالإهمال وعدم الاستعمال، وإنما يتطلب إحياؤها بالوسائل المختلفة، كالنشر ووسائل الإعلام، ومعاهد العلم ومجامع اللغة، والتى يلزم منها أن تُقَدِّم للناطقين بالعربية قدراً كبيراً من الألفاظ والمصطلحات، وذلك للتعامل بها وبث روح الحياة فيها بالتعايش معها، ولا يجب إيقاف اللغة عند حدود معينة فلا خير من الإضافة إليها، والاتساع فيها بالمعايير التى اهتدى إليها السابقون، وتبعهم اللاحقون ولا تغيب عنا كلمة الدكتور/ طه حسين، التى ذكر فيها (أنّ لغتنا العربية يسر لا عسر ولنا أن نضيف إليها من ألفاظ لم تكن مستعملة فى العصر القديم)، ويجرى ذلك ابتداء فى حدود الكلمات المفردة، أما الاستعمال الكَّمى للجمل، والتعبيرات المنقولة إلى الآداب والعلوم والفنون، فهذا

شيئ آخر، ينبغى أن يوضع فى الاعتبار، ويحضرنا هنا ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله (ﷺ): ﴿أحِبُّوا العرب لثلاث؛ لأنى عربى، والقرآنُ عربى، وكلامُ أهل الجنة عربى﴾[1].

وقد ورد فى معاجم اللغة أن المعرَّب هو اللفظ الأجنبى، الذى عبَّر به العرب بالنقص أو الزيادة أو القلب، أو الذى غيره العرب نقصاً أو زيادة أو قلباً، وأن القدماء قد وضعوا تعريفات متعددة للمصطلحات المتجددة لكلمة المُولَّد، ذلك اللفظ القديم الذى استعمله الناس بعد عصر الرواية، وهو الذى أوجده المولدون، الذين لا يحتج بألفاظهم مثل (القحبة) والمقصود بها الفاجرة، وقد تعربت الكلمات الدخيلة، وصارت ذات شرعية لغوية.

واللفظ الدخيل الذى دخل العربية دون تَغيير مثل (التليفون) وقالوا: أعرب فلان أى كان فصيحاً فى العربية، وإن لم يكن من العرب، وأعرب الكلام بيَّنه، وأتى به وفق قواعد النحو العربى.

إذاً فالتعريب فيما يتصل بالكلمة هو، صبغها بصبغة عربية، عند نقلها بلفظها الأجنبى إلى اللغة العربية.

وقال الجوهرى فى الصِحَاح: ((تعريب الاسم الأعجمى معناه: أن تتفوه به العرب على منهاجها، تقول عربته العرب أو أعربته أيضاً، ومن أمثلة كلام العرب اللفظ المعرب (الكوز، الجَرّة، الإبريق، الكعك، الفردوس، البطاقة) وغيرها كثير.

وقد اختلف الناس فى حقيقة وجود كلمات أعجمية فى القرآن، حيث رَوى كثيرون من الكلمات الأعجمية مثل (اَليَمّ، الطُّور) من السريانية، و(هَيْتَ لك)

---

[1] ذكره ابن عساكر ... فى ترجمة زهير بن محمد بن يعقوب، وقد ورد هذا فى مقدمة لسان العرب لابن منظور جـ١ صـ١١ طبعة دار المعارف بمصر.

بالحورانية و(الصراط، القسطاس، الفردوس) من الرومية و(مشكاة، كِفْلين) بالحبشية، وذكر أبو عبيد القاسم بن سلاّم أن هذا هو قول أهل العلم من الفقهاء، كما قال ؛ وزعم أهل العربية أن القرآن ليس فيه من كلام العجم شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾[1] وقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[2].

وذكر السيوطى فى كتابه، المزهر فى علوم اللغة وأنواعها، الرؤية التوفيقية لأبى عبيدة الذى قال: "والصواب عندى مذهب فيه تصديق القولين جميعاً، وذلك أن هذه الحروف أصولها أعجمية، كما قال الفقهاء، إلا أنها سَقَطَتْ إلى العرب فأعربتها بألسنتها، وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها، فصارت عربية ثمَّ نزل القرآن، وقد اختلطت هذه الحروفُ بكلام العرب، فمن قال إنها عربية فهو صادق ، ومن قال عجمية فهو صادق"[3].

ولا يقتصر الحديث فى التعريب على الكلمة المفردة، وإنما يتحتم أن يمتد ويتسع؛ ليشمل النصوص القصيرة والأبحاث الطويلة والمؤلفات المتنوعة، ولذا أكاد أفهم أن معنى التعريب هو نقل العلوم والثقافات وسائر المعارف العامة من لغاتها المختلفة إلى اللغة العربية، وهذا وضع قديم وأصيل لهذه اللغة، منذ أن قويت حركة الترجمة فى القرن الثانى الهجرى، وإنشاء المأمون لبيت الحكمة عام مائتين وسبعة عشر من الهجرة، فقد نُقلت إلى ساحة اللغة العربية كثيرٌ من الثقافات المتعددة والمتنوعة، والتى كانت من نتاجات الثقافات القديمة من ناحية الغرب، وكذلك من ناحية الشرق، إذ تم نقل العديد من الحكايات والأساطير والمعارف والعلوم من اللغات الصينية والهندية والإيرانية إلى حيز اللغة العربية،

---

[1] سورة فصلت الآية: ٣.

[2] سورة الشعراء الآية: ١٩٥.

[3] المزهر فى علوم اللغة وأنواعها، للعلامة جلال الدين عبدالرحمن السيوطى، شرح محمد أحمد جادالمولى وآخَرَيْن ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية جـ١صـ٢٦٩.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، وإنما دخل إلى الساحة العربية علماء مسلمون مثقفون كبار أتقنوا لغاتهم الأصلية (غير العربية) وأضافوا إليها معرفتهم باللغة العربية، وعليه فقد صار هؤلاء بمثابة حلقات للتواصل والتأثير والتأثر بين اللغة العربية ولغات الأمم الأخرى، فى الشرق والغرب على السواء، كما يتجلى ذلك فى تأثير الحضارة الأوربية، هذه التى جاءت تالية لتلك فى عمر الزمن، هذا وقد قدم الأديب والمفكر الكبير (عباس محمود العقاد) كتاباً متميزاً يشهد بمدى تأثير العرب والمسلمين فى الحضارة الأوربية[1]، وليس ذلك فى علم واحد، وإنما فى فنون متعددة، ولذلك عندما نتحدث عن واقع اللغة العربية فى الوقت الراهن لا ينبغى أن نفصل هذا الواقع عما عاشته لغتنا العربية فى القرون الأولى للإسلام، التى شهدت تحولات كثيرة، وتأثيراً وتأثراً فيما بين هذه اللغة واللغات الأخرى، ونذكر فى هذا الصدد جهود بعض علمائنا العظام، الذين خلَّفوا للبشرية زاداً علمياً وتراثاً زاخراً، لا يزال محل العناية والرعاية بين الأمم المختلفة فى الوقت الراهن.

وتبرز فى تاريخ اللغة العربية عوامل القوة والضعف، ففيها شخصية الباحث العلامة ابن سينا، هذا الذى كان يكتب باللغة العربية مؤلفاتِه فى العلوم والمعارف، فإذا ما اتجه إلى الحديث عن المشاعر والعواطف والأحاسيس صاغها باللغة الفارسية، وإذا كان التعريب للفظ أو للأسلوب ينحصر فى النقل إلى اللغة العربية فإن الترجمة أعم وأشمل، إذ أن المعنى هو إزالة الجهل وعدم التفهم والتشرب للنص، وذلك بترجمته إلى اللغة العربية بعد أن كان مكتوبا بلغة أعجمية أى غير عربية، كما أن معنى الترجمة يتسع أيضاً، ليشمل تحويل النص العربى إلى لغة غير عربية، وذلك واقع ملموس فى حركة التأليف والترجمة بين

([1]) هو كتاب: "أثر العرب فى الحضارة الأوربية.

لغة وأخرى، وعلى ذلك تصير الترجمة أعم وأشمل؛ لأن التعريب يقتصر على النقل والتعبير باللغة العربية الفصحى.

ونجد في العصر الحديث أن حركة نقل الآداب والعلوم وسائر المعارف الأجنبية إلى اللغة العربية أقوى بكل تأكيد من التحرك المقابل لذلك، وهو نقل ما كتب فى سائر العلوم والآداب من لغته العربية التى صيغ بها، لينقل إلى اللغات الأجنبية (الحَيَّة) فى العصر الحديث، والنقل من العربية أو إلى العربية، ذلك ما نود الكشف عن بعض جوانبه ونتائجه، تلك التى تفوقت عما حدث من نشاطات فى هذا الأمر بالقرن الثانى الهجرى، وما بعده، كما أن حركة المد المعرفى والتلاقى الثقافى فى الوقت الراهن قد جاء امتداداً وتواصلاً مع البعث الإحيائى للغة العربية من خلال تأثرها باللغات العالمية منذ عصر محمد على، بل ربما قبله بقليل فى زمن الحملة الفرنسية على مصر وسورية، وأصبحت الثقافات العالمية قريبة من القارئ العربى، أيا كانت هويته وتوجهاته.

وزادت فعاليات ذلك بكثرة وسائل الاتصال بين الشعوب ومنها – بكل تأكيد – شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) ولذا فإن اللغة العربية فى ظلال الحاضر ينبغى أن تُصان، وأن تُحفظ من كل تلوث لغوى، أو اضطراب فى قواعدها ونظمها المتوارثة عبر الأجيال، ونذكر أيضاً أن القرآن الكريم بألفاظه المتسعة، ومواده الشاملة يعطى اللغة زاداً متجدداً لا ينفد، ولذا ينبغى العناية به، ومعرفة القراءات الصحيحة التى تتلى بها، وعدم الغفلة عن دوره فى صيانة اللغة العربية وتجديد شبابها وإعطائها مزيداً من قوى الدفع الذاتى بين وقت وآخر.

ونؤكد أيضاً أن مجالات اللغة العربية وإمكاناتها التى توظف لها فى الوقت الراهن قد تعددت وتوسعت، وأصبحت ذات قيمة رائعة ومتميزة فى حياتنا

المعاصرة، وليس أدل على ذلك من إقرارها والاعتراف بها لغة من اللغات التي يتعامل بها بصفة رسمية ومعتمدة في هيئة الأمم المتحدة، وهي اللغة السادسة، وقد أسفرت قوة اللغة العربية وزيادة مفرداتها على وجود تعامل حيوى مُفعّل في البيئة العالمية، وما كان للأديب المصرى (نجيب محفوظ) أن يفوز بجائزة نوبل في الأدب عام ١٩٨٨م إلا بَعْد أن ترجمت أكثر أعماله الإبداعية في القصة والرواية، وتعرف عليها القارئ الأجنبى فى دول متعددة.

ولا يخفى على سائر المثقفين والمبدعين والعلماء المتخصصين أن التعريب أو الترجمة لا تقتصر مجالات الإفادة والتأثير والتأثر بها على لغة دون أخرى، فبالترجمة يستطيع القارئ العربى أن يقرأ للأدباء العالميين مثل (فيكتورهوجو) و (جوستاف فلوبير) ، فى الأدب الفرنسى، و(شكسبير، تشارلز ديكنز) في الأدب الإنجليزى و(جوتا) ، (برخت) في الأدب الألماني، و(تولستوى، ديستوفيسكى) فى الأدب الروسى، وبعض الأدباء الصينيين الذين لم يكن أحد يتصور أن تأتى إبداعاتهم الأدبية ومؤلفاتهم العلمية؛ لتقرأ وتدرس في بعض الجامعات المصرية.

وتبقى اللغة العربية حية متجددة تروق وتُعجِب ولا تموت كلماتها وتَهلك، وإنما تغيب عن اللسان العربى، ثم تأتى إليه رشيقة متجددة، ذلك ما يذكرنا به شاعر مصر حافظ إبراهيم رحمه الله، الذى يتحدث بلسان اللغة العربية التى تنعى حظَّها بين أهلها قال:

وَسِعْتُ كتابَ الله لفظاً وغايةً *** وما ضِقْتُ عن آىٍ به وعِظاتِ

فكيف أضيقُ اليومَ عن وصفِ آلةٍ *** وتنسيقِ أسماءٍ لمخترعاتِ

أنا البحرُ فى أحشائه الـدُرُّ كـامنٌ *** فهل سألوا الغوّاص عن صدَفاتى

فيا وَيْحَكُمْ أبْلَى وتَبْلَـى محاسِنِى *** ومنكُم وَإنْ عَزّ الدّواءُ أساتى[1]

ثالثاً: لغة تدريس العلوم كالطب والصيدلة وغيرهما:

لقد أثيرت فى السنوات الأخيرة نقاشات ومجادلات كثيرة حول قضايا التعريب والترجمة، بين اللغة العربية وغيرها من اللغات، خاصة اللغة الإنجليزية، وإذا كانت الحاجة إلى التعريب ملحة وضرورية فى الزمن القديم (العباسى) مثلاً فإن الاحتياج إلى الترجمة والتعريب فى الوقت الراهن أكثرُ أهمية من ذى قبل، فى ظل متطلبات العولمة، التى يتحدث عنها بعشق وهُيام كثير من الذين ابتعثوا للدراسة فى أوربا، وأخذوا يبثون آراءهم بحرية وجرأة، خاصة فيما يتصل بمستقبل الثقافة فى مصر، وبعض البلدان العربية الأخرى.

وصار من المحتم فى العصر الحديث أن نَخْطُو باللغة العربية خطوات أوسع، ولمسافات أكبر نحو شبكة المعلومات الدولية، وتسخيرها لخدمة اللغة العربية، والتصدى لإهانتها، أو الإغارة عليها، وتوجيه إمكاناتها التعبيرية ومفرداتها المتسعة، لخدمة العلوم التجريبية من طب، وصيدلة، وهندسة، وسائر العلوم الأخرى.

وقد خطت كثير من الدول العربية خطوات واسعة فى تعريب الطب والعلوم، وتدريسها باللغة العربية فهى اللغة القومية، التى يجب العمل على إحيائها والتدريس بها، كما هو الشأن فى كثير من الدول التى تُدَرِّسُ بلغاتها

---

(1) ديوان حافظ إبراهيم الجزء الأول صـ٢٥٣ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٠ والآى: جمع أية ، والأساة: الأطباء.

القومية مثل فرنسا والصين وسورية ودول أخرى قريبة وبعيدة، ولوحظ أن الجامعات العالمية المتقدمة فى التصنيف على مستوى العالم لا تدرس بلغة الآخرين، وإنما تنهض بحماية لغتها، والتدريس بها فى مراحل التعليم المتنوعة.

واختلف العلماء فى الحكم على التجربة التى عاشتها بعض الدول العربية فى تعريب الطب وسائر العلوم [illegible]، ولذلك ينبغى أن يكون الهدف فى الحكم على تجربة دولة مثل سورية هو حماية اللغة العربية، وإحياء بعض الدعائم للقومية العربية، وأن تكون اللغة داخل نطاق الاهتمام الكبير بها، ليس فى الحاضر فحسب، وإنما تأهيلاً وتجهيزاً للمستقبل بمتطلباته المتنوعة، خاصة أن لغتنا العربية قد صارت ذات قيمة كبيرة ومتنامية على مستوى كل دول العالم شرقه وغربه شماله وجنوبه، ذلك الذى توهج بصورة أكبر فى المنظمات العالمية، وهيئة الأمم المتحدة.

فاللغة العربية فى حاجة من أبنائها إلى العناية والرعاية والتحديث، دون طغيان على حقوق العلماء فى التواصل مع الأمم الأخرى.

وتوجد فى مصر جمعيات تأخذ على عاتقها أهمية السعى إلى تعريب العلوم، مثل (جمعية لسان العرب) ، و(الجمعية المصرية لتعريب العلوم) كالكيمياء والفيزياء وما شابه ذلك، وأن تعريب العلوم التجريبية بمعنى تدريسها باللغة العربية له بعض الإيجابيات، وأن له بعض المشكلات، تقديراً لحاجة العلماء التجريبيين إلى التواصل مع نظرائهم فى الدول غير الناطقة باللغة العربية.

رابعاً: استطلاع آراء بعض العلماء فى تدريس الطب وغيره باللغة العربية، وقياس مستواها عند العلماء، وبيان وضعها فى الجامعات المصرية والعربية:

لقد قمنا باستطلاع آراء بعض العلماء فى تدريس العلوم كالطب وغيره باللغة العربية بدلاً من اللغة الإنجليزية، وتحصلنا على مائة وخمس استمارات لاستبانة آراء هذا العدد من العلماء فى مصر وثلاث دول عربية هى: السودان والأردن وسورية، ويمثل العلماء المصريون العدد الأكبر فى هذه الدراسة، والتى جعلنا الهدف منها التعرف على آراء الأساتذة فى تدريس هذه العلوم باللغة العربية الفصحى، أما مسألة الترجمة من اللغة العربية إلى اللغات الأجنبية، وعكس ذلك بمعنى ترجمة العلوم الأجنبية إلى اللغة العربية فهى قضية محسومة ولا خلاف عليها، لما لها من أثر كبير فى التقارب بين الثقافة العربية والحضارة العالمية وغيرها.

وقد تم تقسيم استطلاعات الرأى إلى ثلاث مجموعات؛ لتكون على الوجه التالى:

أولاً: أراء الأطباء – وعددهم اثنان وثلاثون.

ثانياً: أساتذة العلوم التجريبية المتنوعة – وعددهم واحد وأربعون.

ثالثاً: أساتذة الدراسات الإنسانية المتنوعة بما فيها اللغة العربية – وعددهم اثنان وثلاثون.

وجملة هذا العدد مائة وخمسة استطلاعات للرأى.

١- لقد بدأنا فى إحصاء آراء الأساتذة الأطباء ابتداء؛ لأن تعاملهم من خلال التدريس باللغة الأجنبية أكثرُ من غيرها ، وتعد مشاركاتهم فى المؤتمرات العلمية بالداخل والخارج أيضاً أكثر من بعض التخصصات

العلمية الأخرى، وبلغت أعدادهم اثنين وثلاثين طبيباً كما تقدم، وتم رصد آرائهم، وكانت النتيجة على الوجه التالى:

الموافقون على التعريب.	أحد عشر.
غير الموافقين على التعريب.	عشرون.
المتوقفون أو المتحفظون على إيداء الرأى.	أستاذ واحد.

وقد ذَيّل بعض الأساتذة آراءهم بذكر الأسباب التى يرونها لازمة للتعريب وغيره، فقال أحد المعترضين على تعريب الطب: إنه لا يوافق على التعريب كاملاً، وإنما يجب تطبيقه تدريجياً، وهكذا يوحى الكلام بإمكانية التطبيق على المدى البعيد[1].

وقال أحد الذين وافقوا على تعريب الطب: "أوافق على تدريس الطب باللغة العربية بشرط وجود الكوادر، التى تستطيع القيام بالتدريس، وفى حالة التدريس باللغة العربية يكون الفهم أسهلَ للطالب"[2].

وتناثرت آراء بعض المعترضين على التعريب، عند ذكر بيان سبب الاعتراض: "إن لغة العلم الأولى فى العالم المتقدم هى اللغة الأجنبية سواء الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية"، وأما من أبدى رأيه متحفظاً، فقال: "نعم لعمل مراجع معربة تعريباً كاملاً، تكون بِنْيَةً أساسية ننطلق منها إذا ما جاء اليوم الذى نقود فيه العالم" وقال: "لا لتدريس العلوم الحديثة معربة، لأن التعريب كاملاً يحمل فى طياته عدم القدرة على مواكبة الجديد فى هذه العلوم"[3].

---

(1) رأى الأستاذ الدكتور/ سعد صبرى العش – كلية طب الزقازيق.
(2) رأى الأستاذ الدكتور/ عبدالصمد إبراهيم الحوالة – كلية طب الزقازيق.
(3) رأى الأستاذ الدكتور/ على خليل عسلة – كلية طب الزقازيق.

٢- ونأتى إلى التخصصات العلمية الأخرى، وهى من خلال ما تجمع لدينا: استمارة فى التمريض العالى، وأربع فى الصيدلة، وسبع فى الطب البيطرى، وعشر فى الهندسة، وتسع فى العلوم، وسبع فى الزراعة، وثلاث فى مراكز البحوث العلمية.

والعدد الإجمالى لهذه التخصصات هو واحد وأربعون تخصصاً، وقد استطلعنا آراءهم فى تعريب الطب وسائر العلوم التجريبية، وكانت النتيجة على النحو التالى:

الموافقون على التعريب.	أربعة عشر.
غير الموافقين على التعريب.	أربعة وعشرون.
المتوقفون، المتحفظون على إبداء الرأى.	ثلاثة.

وقال أحد الذين لم يوافقوا على التعريب: "لم نصل إلى مرحلة الابتكار، لتكوين مصادر التنوير والإشعاع للآخرين.

وقال آخر: لا أوافق على التعريب؛ لأن جميع المراجع العلمية باللغات الأجنبية.

أما الذين وافقوا على التعريب فقال أحدهم متحدثاً عن بيان رأيه فقال: حتى يكونَ ذلك بداية لوضع قاعدة علمية للغة العربية، تحترم البحث العلمي فى الوطن العربى.

وأما الذين تحفظوا، أو توقفوا عن إبداء الرأى فى هذا الموضوع فقال أحدهم: اللغة العربية تخفف على الدارس عبئاً كبيراً بالنسبة للتقدم فى الدراسة العلمية، ويُفهم من ذلك الموافقة، ثم قيل بما يعنى عدم الموافقة: لا يمكن الاستغناء عن اللغة الأجنبية فى الدراسة، إذ لابد من الإلمام الكامل والجيد باللغة الأجنبية بالنسبة للتخصص.

٣- ونأتى إلى التخصصات غير العلمية، ونقصد تخصصات اللغة العربية، والآداب، والتربية بأقسامها النظرية، والإعلام وغيرها، وكان بيان المشاركين بالرأى كالتالى:

سبعة فى اللغة العربية، وستة فى الآداب، وسبعة فى التربية، وأربعة فى الإعلام، وثمانية دون تحديد للتخصص الدقيق، وجملة هؤلاء المشاركين اثنان وثلاثون، وأسفر البيان الخاص بهذه التخصصات عن التعريب على النحو التالى:

الموافقون على التعريب. تسعة عشر.

غير الموافقين على التعريب. ثلاثة عشر.

المتوقفون، أو المتحفظون على إبداء الرأى. لا يوجد.

وتنوعت الأسباب فى بيان الرأى لكل من وافق على التعريب، أو لم يوافق، على أنّ تعريب المصطلحات كان يمثل إشكالية واضحة، وحجة قوية لبعض من اعترضوا على التعريب[١].

وبعد هذا البيان التفصيلى الشامل لاستطلاعات الرأى حول هذا الموضوع جاء البيان الإجمالى على النحو التالى:

المجموعة	التخصص	الموافقين على التعريب	غير الموافقين على التعريب	التوقف أو التحفظ على إبداء الرأى	العدد الاجمالى
١	الطب	١١	٢٠	١	٣٢
٢	التخصصات التجريبية الأخرى	١٤	٢٤	٣	٤١
٣	التخصصات العربية والإنسانية	١٩	١٣	-	٣٢
الاجمالى		٤٤	٥٧	٤	١٠٥

(١) من هذا الفريق الدكتورة/ عواطف سرالختم محمد - جامعة الجزيرة بالسودان.

ومن خلال هذا العدد من استطلاعات الرأى يتضح أن أربعة وأربعين أستاذاً قد وافقوا على تعريب العلوم بنسبة ٤١,٩٪ بينما اعترض على التعريب سبعة وخمسون بنسبة ٥٤,٣٪ تقريباً، وقد توقف أربعة عن إبداء الرأى، أو تحفظوا عليه بنسبة ٣,٩٪ تقريباً.

وجاء عدد الموافقين على التعريب أكثر مما كان متوقعاً بسبب ما أبداه أساتذة اللغة العربية والدراسات الإنسانية نحو ميلهم إلى تدريس العلوم المعملية باللغة العربية، مدفوعين إلى ذلك بعواطفهم الجياشة، وثقتهم فى اتساع مفردات اللغة العربية، وقدرتها على إمداد الدراسات العلمية بالمصطلحات الكثيرة، التى تَغَنّى بها لغة القرآن الكريم وأدب العرب، أما العلميون وهم أصحاب التخصصات الطبية والهندسية والعلمية المختلفة، وهما المجموعتان الأولى والثانية، فقد تجمع لدينا منهم ثلاثة وسبعون استطلاعاً لآرائهم ووافق على التعريب منهم خمسة وعشرون بينما اعترض عليه أربعة وأربعون بنسبة ٦٠,٩٧٪ تقريباً وهذا هو البيان الواجب التنبه له، ووضعه فى الاعتبار إذ أن هؤلاء هم المعنيون فى المقام الأول بالتعريب، أى أن ما يقرب من ثلثى الأطباء والعلميين لا يرحبون بتعريب العلوم، بينما تحفظ منهم عن إيداء الرأى أربعة من الأساتذة.

ويبدو من هذه الإحصائيات أن النسبة الكبرى للمعترضين على التعريب، كما سبق الذكر هم من أساتذة الطب وسائر العلوم التجريبية الأخرى.

٤- واختلف الحال كثيراً فيما يتصل باستطلاع آراء العلماء حول تعريب الطب، وسائر العلوم مع الإبقاء على المصطلحات الأجنبية بلغاتها الأصلية، فقد وافق العدد الأكبر على ذلك؛ لاعتقادهم أن هذا حل وسط يجمع بين التعريب والحفاظ على المصطلح الأجنبى بلغته الأصلية، بينما

اعترض عليه الآخرون؛ تأكيداً لآرائهم فى حتمية الاتفاق بين الشرح والإيضاح، وذكر المصطلح فى كلٍّ متكامل، وسوف يتضح ذلك من البيان التالى:

التخصص	الموافق على التعريب مع الإبقاء على المصطلح	عدم الموافقة	التوقف أو التحفظ عن إبداء الرأى	العدد الإجمالى
الطب	١٦	١٥	١	٣٢
العلوم التجريبية الأخرى	٢٧	١٣	١	٤١
العلوم العربية والإنسانية	١٩	١١	٢	٣٢
الإجمالى	٦٢	٣٩	٤	١٠٥

٥- ومن المفارقات التى ثبتت لدينا - فى ضوء ما سبق - أن بعض أعضاء هيئة التدريس بالجامعات - ومنهم أساتذة فى تخصص اللغة العربية - قد اعترضوا على تعريب العلوم، بينما وافق عليه بعض الأساتذة الأطباء فى جامعات متعددة أيضاً، علما بأن ما يقرب من تسعين فى المائة ممن شملهم استطلاع الرأى أعضاء فى هيئات التدريس بجامعات مختلفة، وبلدان عربية متعددة، والموضوع فى مجمله لا يقتصر على إبداء الرأى فيه على التخصص الأكاديمى فحسب، وإنما هناك عوامل وبواعث أخرى تتدخل فى توجيه الرأى، علماً بأن أوراق هذه الاستبانات موجودة بكاملها تحت أيدينا، منذ أن قمنا بإتمامها بنزاهة وصدق، وحرية مطلقة مع العلماء من بعض الجامعات المصرية والعربية مثل جامعات (الأزهر، الزقازيق، أسيوط، عين شمس، المنوفية، قناة السويس) وجامعات (شندى، الجزيرة، وادى النيل بالسودان) والجامعة الهاشمية بالأردن، وجامعة

البعث بسورية، وممن شاركوا فى هذه الاستبانات الدكتور كمال بشر – أمين مجمع اللغة العربية[1]، والدكتور/ عبدالرحمن الزيادى الأستاذ المتفرغ (المشهور) بكلية الطب جامعة عين شمس وغيرهما.

٦- لقد شمل استطلاع الرأى – من خلال الاستمارة المقدمة – بنداً حول مسيرة بعض الدول العربية فى تدريس الطب، وسائر العلوم الحديثة باللغة العربية، مثل سورية، وأسفر البيان عما يلى:

التخصص	الموافقة على تجارب بعض الدول	عدم الموافقة	التوقف أو التحفظ عن إبداء الرأى	العدد الإجمالى
الطب	١٦	١٢	٤	٣٢
العلوم التجريبية الأخرى	٢٢	١٠	٩	٤١
العلوم العربية والإنسانية	١٥	٦	١١	٣٢
الإجمالى	٥٣	٣٨	٢٤	١٠٥

ويعطينا البيان السابق بعض الدلالات حول موافقة الأساتذة على تجربة بعض الدول العربية، مثل سورية بعدد إجمالى هو ثلاث وخمسون موافقة بنسبة ٥٠,٤٪ تقريباً، وإن كانت هذه الموافقة قد جاء بعضها مشترطاً أن تكون الدراسات العليا باللغة الأجنبية، كما اشترط آخرون لموافقتهم الإبقاء على المصطلح العلمى بلغته الأصلية، واعتبر بعض المشاركين فى هذا الموضوع أن موافقتهم فى هذا الشان ليست إلا أمانى صادقة يرجون لها الازدهار والنجاح، وتباينت مستويات الموافقة من تخصص إلى آخر، وإن كان الاتفاق بينها جميعاً على تقدم نسب الموافقة على عدمها، كما هو واضح فى الجدول السابق، بينما جاءت عدم الموافقة على التجارب

[1] وقت إجراء هذا الاستطلاع، فيما يخصه هو ومن تقدم عليه ومن جاء بعده.

المذكورة فى سورية أو غيرها محددة فى ثمانية وثلاثين أى ٣٦,٢٪ تقريباً، وهى نسبة تعطى شعاراً بالتخوف، وعدم الثقة فى هذه التجارب.

وعلى جانب آخر رأينا عدداً لا بأس به قد امتنعوا عن إبداء الرأى؛ لعدم وضوح الرؤية لديهم، وبلغ مجموع هذه الآراء أربعة وعشرين، وهم يمثلون نسبة ٢٢,٨٪ تقريباً، هؤلاء الذين توقفوا عن إبداء الرأى، أو تحفظوا عليه، إما لعدم معرفتهم لكامل التجربة أو أن اقتناعهم بها ليس كافياً، مع أنها تجربة زاد عمرها على أربعين سنة، ولقد أوردت إحدى الدراسات[1] تقويماً لتجربة كلية الطب فى حلب، وهى إحدى الجامعات السورية المعربة كلياً، مع الاعتراف بأن التقويم لكامل التجارب فى سائر أنحاء الدول ليس من الأمور السهلة، التى يتيسر الحكم عليها.

وقد أوردت الدراسة بعضاً من إيجابيات التعريب والتدريس باللغة العربية، كما حددت معوقات التعريب فى سائر أنحاء العالم العربى، وذُكر منها غياب الدعم المادى، وضعف هيئات التعريب، والجهود المبذولة فى ذلك، وغياب حرية الفكر، وقلة عدد المترجمين الأكفاء، ثم تأتى إلى الجزئية الأخطر، وهى سيطرة الخطاب السياسى، بمعنى أن التعريب للتعليم الجامعى كان قراراً سياسياً، وليس قراراً أكاديمياً نابعاً من رؤية الأكاديميين لأهمية هذه التجربة.

وأشارت هذه الدراسة من خلال تجربة كلية الطب فى حلب إلى انخفاض نوعية الكتب والمراجع المعربة، وفشل تعليم الإنجليزية كلغة ثانية رديفة، إلى غير ذلك من الأسباب التى لم تكن للأسف الشديد فى مصلحة الدعم

[1] الدراسة بعنوان: (تعريب التعليم الجامعى – أضواء على تجربة – بقلم الدكتورة – (تغريد نصر أصفر) وهى باحثة من سورية – تلك التى نشرت فى مجلة عالم الفكر، التى تصدر فى دولة الكويت عدد يناير – مارس عام ٢٠٠٠م.

الإيجابى لهذه التجربة، غير أن الرؤية الحاصلة الآن لهذه التجربة تختلف بالتأكيد عن الدراسة، التى سبقت الإشارة إليها، إذ أن الدراسة المذكورة قد مَرّ عليها ما يقرب من عشر سنوات، وهى حقبة زمنية، يمكن أن تتغير فيها الأحكام والنتائج، وقد ذَكَرَتْ الدكتورة/ تغريد أصفر فى نهاية دراستها ما يأتى: "لقد علمتنا تجربة التعريب فى الجامعات السورية درسين بالغى الأهمية أولاً: من السهل جداً إعطاء المبررات المناسبة، للقيام بعملية التعريب، خصوصاً، وأن الخطاب السياسى المعاصر يذخر بالمصطلحات الجزلة والعبارات الحماسية، التى تخدم فى هذا المجال، أما الدرس الثانى: فهو أن الإيفاء بالمتطلبات العملية لهذه الخطوة بالغ الصعوبة، ولسوء الحظ فإن واقعنا اليوم يفرز لنا فيضاً هائلاً ممن يشتغلون على الجبهة الأولى، بينما تأكل وقائع الحياة تدريجياً القلة التى تحاول أن تعمل بصدق لتأمين الحد الأدنى من متطلبات التعليم"[1].

مما سبق يتضح أن تجربة سورية فى هذا المجال، وربما تجربة الجزائر ايضاً ليست هذه أو تلك كافية للقناعة التامة بالتحول إلى تعريب الطب وسائر العلوم الأخرى، وأن تحقيق هذا الهدف السامى العظيم يحتاج – لتحقيق نجاحه – إلى طموحات ومجهودات أكبر مما هو حاصل فى الوقت الراهن، كما يحتاج التعريب إلى مدة زمنية يتم التدرج، فيها سعياً للوصول إلى الأهداف المرجوة فى هذا المجال، وأن الوضع فى بعض البلاد العربية؛ كتونس والمغرب يحتاج إلى مواقف أكاديمية أكثر جرأة وتصميماً مما هو حاصل فى الدعوة إلى حتمية انصهار البربر فى الجنس العربى بتونس، ومقاومة اللغة الثالثة فى دولة المغرب الشقيقة، والمُعَبّر عنها بلغة

---

[1] مجلة عالم الفكر، المجلد الثامن – العدد الثالث – يناير – مارس ٢٠٠٠م صـ٢٢٠.

(الفرانكوآراب) والسعى من كل ذلك إلى تكوين لغة علمية واحدة، يتكلم بها الأكاديميون العرب فى أنحاء وطنهم الكبير، تمهيداً إلى إعداد هذه اللغة العربية الواحدة للتدريس بها فى المستقبل.

خامساً: حصيلة البيانات الخاصة بإبداء الرأى حول معاناة اللغة العربية من الضعف، وعدم القدرة على مواجهة التعريب والعامية، وبيان وضعها فى التعليم والمجتمع:

١- لقد تقدمنا فى استطلاعات الراى بسؤال حول معاناة اللغة العربية من الضعف، وعدم قدرتها على مواجهة التعريب والعامية، مختارين للإجابة أسلوبين هما (نعم)، و(لا) ورأينا استكمالاً لإيضاح الرأى ذكر ما يلى:

وإذا كانت الإجابة بنعم فما هى الوسيلة إلى الإبقاء على اللغة العربية حية متجددة؟ واتضح أن بعض الإجابات كانت مشفوعة بالتعاطف وزيادة الأمانى والرغبات الصادقة فى قوة اللغة العربية، وعدم معاناتها من الضعف، كما أن الإجابات فى قياس هذا المستوى لم تكن مشفوعة، ببيان الوسائل التى بمقتضاها تبقى اللغة العربية حية متجددة، وأسفر الاستطلاع عن النتيجة التالية:

التخصص	تعانى اللغة العربية من ضعف	لا تعانى	التحفظ عن إبداء الرأى	العدد الإجمالى
الطب	١٣	١٨	١	٣٢
التخصصات التجريبية الأخرى	٢٠	٢٠	١	٤١
التخصصات العربية والإنسانية	١٩	١٣	-	٣٢
الإجمالى	٥٢	٥١	٢	١٠٥

ومن الملاحظ من خلال البيان السابق تقارب النسب بين القائلين بمعاناة اللغة، والقائلين بعدم معاناتها، وأن توقف اثنين من أصحاب الآراء عن إبداء رؤيتهم، قد يرجع إلى عدم قدرتهم على تحديد الرؤية تحديداً دقيقاً، وأن الذين قالوا بمعاناة اللغة لم يُرجعوا أسباب المعاناة إلى اللغة وطبيعتها، فمفرداتها واسعة، وقدرتها على التعبير عن منجزات العصر لا حدود لها، وأرجعوا أسباب المعاناة إلى عدة أمور مثل:

ضعف آثار المجامع العلمية والمنظمات اللغوية، وكذلك ضعف الآثار التى تُرتجى من وسائل الإعلام المختلفة، وأن زيادة نشر اللغات الأجنبية قد يكون على حساب التعلم باللغة العربية الفصحى، لذلك فالمسافة بعيدة بين لغة التأليف العلمى والإبداع الأدبى، وبين اللغة التى يتعامل بها بين المتحدثين بها، وأن محاولات إحياء اللغة لا تأتى بالنتائج المرجوة، وأن الجهود المبذولة فى إثراء اللغة العربية ضعيفة، خاصة بشأن نشر التراث العربى القديم، وأن الذين أقروا بعدم معاناة اللغة العربية من الضعف قد احتكموا إلى ما مرت به اللغة الفصحى من محاولات مدبرة، وغير مدبرة؛ لطمس تاريخها وهويتها، إذ أن كل المحاولات قد باءت بالفشل، وذلك مثل انتشار اللغة الأجنبية فى زمن الاحتلال الأجنبى، والمحاولات التى بُذلت من داخل الوطن وخارجه، كالتوسع فى التأليف والتعامل باللهجات العامية، ومع هذا بقيت اللغة العربية حية ومتجددة، وإن لم تكن بالمستوى المأمول.

٢- وننتقل إلى استطلاعات الرأى حول دور الإعلام بوسائله المختلفة فى الارتقاء باللغة العربية وانتشارها، أو التأثير فيها تأثيراً سلبياً، خاصة فى الوقت الراهن، الذى كثرت فيه هذه الوسائل من إذاعات عربية،

وقنوات فضائية، وشبكة عنكبوتية، ذلك أن هذا المحيط المتسع الذى يختلف مقياس الرأى فيه بين يوم وآخر يخضع فى غالب الأحوال إلى آراء المتلقين له، والمتعاملين معه فى البلاد العربية، وإن كان من المؤسف أن المسافة بعيدة بين انضباط بعض الوسائل الحكومية، وانفلات كثير من الوسائل الخاصة، هذه التى تقدم الرغبة فى الربح والتكسب على أية دوافع أخرى، وقد اتضحت الآراء حسب الإحصاء التالى:

التخصص	تأثير الإعلام فى الارتقاء باللغة العربية	عدم التأثير فى الارتقاء وتأثيره سلبى	التوقف عن إبداء الرأى أو التحفظ عليه	العدد الإجمالى
الطب	١٢	١٧	٣	٣٢
التخصصات التجريبية الأخرى	٩	٢٥	٧	٤١
التخصصات العربية والإنسانية	١٣	١٥	٤	٣٢
الإجمالى	٣٤	٥٧	١٤	١٠٥

ومن الملاحظ فى النتائج السابقة أن أغلبية الآراء تتجه إلى تفريغ وسائل الإعلام من تأثيرها فى تقوية اللغة العربية، وضعفها فى الدور المنوط بها، وأن القائلين بعدم التأثير وهم سبعة وخمسون يمثلون أكثر من خمسين فى المائة من نسبة الآراء، ولوحظ أن الذين توقفوا عن إبداء الرأى فى هذا الموضوع، أو وضعوا اشتراطات لآرائهم قد بلغوا أربعة عشر من جملة الآراء وهم عدد غير قليل فى حق هؤلاء الأساتذة الجامعيين، وبعض الوظائف الأخرى ذات الاتصال بالإعلام كالصحفيين والأساتذة بالمراكز البحثية المختلفة.

وتجب الإشارة إلى حصيلة القول بتأثير الإعلام فى اللغة العربية قوة وضعفاً، إذ بلغت الآراء أربعة وثلاثين من المجموع الكلى، هؤلاء الذين

يمثلون الآراء الإيجابية فى حق وسائل الإعلام، حيث يلاحظ أن الواقع يشهد بذلك من خلال بعض المحطات الإذاعية، والقنوات الفضائية، والتى تحرص على النطق باللغة العربية الفصحى، فى أكثر البرامج الحوارية، والتمثيليات الإذاعية، بل إن بعض البرامج تقدم الأخطاء فى الأساليب معقبة عليها بذكر الصواب فيها، إلى غير ذلك من نشاطات الإعلام على كافة أحواله، مقروءاً أو مسموعاً أو مُشَاهَداً.

٣- نذكر فى السطور التالية حصيلة البيانات الخاصة باستطلاعات الرأى حول متابعة نشاطات مجامع اللغة العربية، على أن تكون الإجابة بنعم أو لا، وإيضاح الرأى فيما لو كانت الإجابة موجبة، وأسفر الإحصاء عما يأتى:

التخصص	نعم أتابع نشاطات مجامع اللغة العربية	لا أتابع نشاطات المجامع	التحفظ على إبداء الرأى	العدد الإجمالى
الطب	٧	٢٥	-	٣٢
التخصصات التجريبية الأخرى	٧	٣١	٣	٤١
التخصصات العربية والإنسانية	١٩	١٣	-	٣٢
الإجمالى	٣٣	٦٩	٣	١٠٥

وبالنظر فى هذا البيان نلحظ قلة عدد المتابعين لنشاطات المجامع اللغوية، فالمتابعون ثلاثة وثلاثون من أصل العدد الإجمالى، وهم يمثلون ٣١,٤٪ وهى نسبة قليلة، وهذا العدد ينحصر معظم أصحابه فى تخصصات علوم اللغة العربية، وسائر العلوم الإنسانية الأخرى، أما الذين لا يتابعون هذا النشاط، ولا يعرفون عنه شيئاً فقد بلغوا تسعة وستين ويمثلون ٦٥,٧٪ ونرى أن هذه النسبة تكشف عن قصور بالغ من الأساتذة أولاً، ومن

المجامع اللغوية ثانياً، هذه التى لا يصل صوتها إلى المثقفين، ونخص منهم الجامعيين وغيرهم، ممن يقتربون من مستوياتهم فى الثقافة والفكر.

ولقد عبر أحد الذين لا يتابعون هذه النشاطات عن أسباب ذلك بقوله: "لعدم تسليط الضوء عليها إعلامياً (مقروء، مسموع، مرئى) هـذا مـن ناحيـة، ولتقصيرنا من ناحية أخرى".

وقال آخر: "أين هذه النشاطات؟ وكيف يتم الإعلان عنهـا؛ وكيـف يمكـن الاستفادة منها، بدون أن نعلم عنها شيئاً".

وقال أحد الذين يتابعون هذه النشاطات مُعَبّراً عن رأيه فيها بالقول: "جيدة، ولكن أريد المزيد من الإعلان عنها فى وسائل الإعلام المختلفة". وبقيـت أكثر الآراء بلا تحديد للحكم على هذه النشاطات إيجاباً وسلباً.

٤- لقد جاءت خاتمة استطلاعات الرأى حول الموقـف مـن المـدارس المنتشرة فى ربوع مصر، والتدريس فيها باللغة الأجنبية فى كل المواد أولاً وفى بعضها ثانياً، لما لهذا الموضوع من تأثير فى اللغة العربيـة قوة وضعفاً، وذلك فى سائر المراحل الدراسية (الابتدائية، الإعداديـة، الثانوية) وتمخضت الآراء عن الإحصاء التالى:

التخصص	الموافقة على تدريس كل المواد باللغة الأجنبية	الموافقة على تدريس بعض المواد	التوقف عن إبداء الرأى أو التحفظ عليه	العدد الإجمالى
الطب	٢	٢١	٩	٣٢
التخصصات التجريبية الأخرى	٦	٢٨	٧	٤١
التخصصات العربية والإنسانية	٤	١٩	٩	٣٢
الإجمالى	١٢	٦٨	٢٥	١٠٥

ومن الواضح فى البيان السابق أن عدداً قليلاً من أصحاب الآراء قد قبلـوا تدريس كل المواد الدراسية باللغة الإنجليزية، ومجموع الآراء اثنا عـشر رأيـاً،

هؤلاء الذين قبلوا التدريس على الهيئة السابقة، ليس فى سائر المدارس بالتأكيد، ولكن فى نطاق هذه النوعية من المدارس التى أنشئت خصيصاً – فى غالب الأحوال – للجاليات غير العربية، وسار فى ركابها بعض العرب الذين يرون أن الثقافة الحقة، هى التى تكون عن طريق اللغة الأجنبية خاصة الإنجليزية.

أما الأكثرون فى هذا البيان فقد ارتضوا التدريس للتلاميذ فى هذه المراحل باللغة الأجنبية فى بعض المواد، وليس فى مجموعها، مما يكشف عن الارتضاء للحلول الوسط، والجمع بين معرفة اللغة العربية وعدم التفريط فيها، مع إمكانية التدريس باللغة الأجنبية فى بعض المواد، ونصل إلى هوية من توقفوا عن إبداء الرأى أو تحفظوا عليه، هؤلاء الذين وصلت أعدادهم إلى خمسة وعشرين، وبدا من رَصْدها وتحليلها أن النوعيات الخاصة من هذا التعليم ليست واضحة بالنسبة لهم، وأن الأمر فى مجموعه لا يعنيهم ، ولهذا توقفوا أو تحفظوا عن إبداء الرأى.

ونرى فى ضوء هذا الرصد للآراء أنه يتحتم معرفة لغة أجنبية، أو أكثر معرفة علمية متطورة، إذ لا يصح أن تنعزل الأجيال الجديدة من الشباب العربى عن المعرفة العلمية العالمية، وأن إنشاء بعض المدارس التى يتحتم تدريس بعض المقررات فيها باللغة الأجنبية أمر مقبول، خاصة فى العلوم التجريبية، لكن لا يصح أن تسير بعض المدارس على منهج تدريس كل المقررات باللغة الأجنبية؛ لإن هذا يمثل إهداراً بحق اللغة العربية عند الناطقين الأصليين بها؛ وأن الاعتزاز باللغة القومية أمر لا يقبل المساومة، وأن التمسك باللغة العربية لا يعنى الجهل بغيرها، من اللغات العالمية كالإنجليزية أو الفرنسية أو غيرهما.

سادساً: النتائج والتوصيات:

١- يجب العناية باللغة العربية أولاً قبل الشروع فى تعريب العلوم، أو فى ترجمتها إلى اللغة العربية؛ لأن الحرص على التعامل مع العالم الخارجى ينبغى أن يكون تالياً لمعرفة اللغة القومية، والانطلاق منها إلى العالمية، وقد تجسد ذلك على سبيل المثال، وليس الحصر فى الأعمال الإبداعية للأديب المصرى الكبير نجيب محفوظ، فما كان له أن يفوز بجائزة نوبل عام ١٩٨٨م دون أن تكون عنايته بلغته الأصلية قد بلغت حداً مقبولاً على المستويين المحلى والعالمى، كما أسفرت ترجمة رواياته إلى اللغات الأوربية فى زيادة فرصته فى الحصول على هذه الجائزة.

٢- يجب رفع مستوى الطلاب والدارسين وسائر العلماء لإحدى اللغات الأجنبية على الأقل، وأن تكون العناية بهذه اللغة خاضعة للمعايير العلمية المتعارف عليها، وليست عملاً عشوائياً يخضع للتقويم الشخصى البسيط، وإنما يتحتم أن تكون المعايير مطابقة للمواصفات العالمية، نطقاً وكتابة وقراءة وتأليفاً.

٣- لم يحسم هذا الاستطلاع للرأى حول تعريب العلوم، وأن الأطباء – خاصة – مختلفون فى الإقدام على هذه الخطوة، وأن غالبية الآراء تتجه نحو الإبقاء على تدريس العلوم باللغة الأجنبية، ونرى حتمية وضع خطة طويلة الأجل، للسير على استحياء ومهل فى هذا الموضوع، وصولاً إلى هدف علمى وقومى كبير نحو التعريب، وأن تكون البداية بالتدرج من خلال مادة أو مادتين على الأقل، خاصة فى بعض المقررات كتاريخ الطب والطب النفسى، والتدرج فى التطبيق؛ لأن التعريب ضرورة يجب السعى إليها على مهل واستحياء، مع الحرص على التواصل مع العالم الخارجى، وعدم

الانفصال عنه فى هذه القضية الحيوية، ووجوب التعرف على أبعاد التعريب إلى اللغة العربية، والترجمة إلى اللغات العالمية وخاصة الإنجليزية.

٤- أبدى الكثيرون الإعجاب والتقدير لتجارب بعض الدول وخاصة سورية، وإن اشتمل النمو فى الكثير من الآثار الجانبية، إذ توقف عدد كبير عن إبداء الرأى فى هذا الموضوع؛ لعدم وضوح الرؤية أمامهم بصورة محايدة، ولذا يلزم شدة التواصل، وتوحيد النشاطات بين الجامعات العربية.

٥- يجب السعى نحو احتذاء بعض التجارب العالمية، مثل الصين وفرنسا وكوريا، وغيرها من الدول التى تُدرّس الطب وسائر العلوم بلغاتها القومية.

٦- يجب الحفاظ على المصطلح العلمى، والإبقاء عليه بلغته الأجنبية، وعدم الطغيان على واضع المصطلح أو مخترعه ومكتشفه؛ لأن ذلك قد صار بمثابة براءات اختراع يجب صيانة حق صاحبها فيها، وأن هذا يقرب المسافة فى الوصول إلى الأهداف المرجوة ودللت معدلات الاختيار للتعريب مع الإبقاء على المصطلح بنسب أكبر، وذلك بالنظر إلى التعريب الكامل بما فيه المصطلحات العلمية.

٧- ينبغى أن يكون البدء بالتعريب بعد الاقتناع به والاتفاق على آلياته، خاضعاً لرؤية الأكاديميين، وليس صادراً بقرار سياسى تُراعى فيه المصالح الأخرى، والتى ليس من بينها المصلحة العلمية المجردة.

٨- يجب اعتماد الإمكانات المادية للبحث العلمى بحق المتخصصين فيه، وتنشيط البحوث الجامعية المعدة باللغة العربية، مع الإبقاء على المصطلح بلغته الأصلية، وطبع الدوريات والمصطلحات العلمية، وبعث الدارسين

والطلاب؛ حتى يبقى الحفاظ على قوة اللغة الأجنبية إلى جوار اللغة العربية المراد التحول إليها.

٩- التقريب بين وجهات النظر بحق القائلين بالتعريب، والمعترضين عليه، مع مراعاة حقوق الآخرين فى الاتفاق أو الاختلاف، وأن الوصول إلى الأحكام القاطعة المتفق عليها هدف ينبغى السعى الجاد إليه.

١٠- لا زال الكثيرون يرون أن اللغة العربية بخير، وأنها لا تعانى من ضعف، وإن ظهرت آثار ذلك فى المتحدثين بها، وليس هذا فى مفرداتها وصيغها، التى تتسع لسائر العلوم بمفرداتها الحديثة، فلم يقل أحد بعجز اللغة عن التعامل الجاد مع المصطلحات العلمية المتطورة.

١١- أبدى الكثيرون تخوفاً أو قلقاً من عدم تأثير وسائل الإعلام الحديثة فى إثراء اللغة العربية بشكل مُرْضٍ، وطلب بعضهم حتمية العناية بمستهدفات هذا التأثير، مع وجوب تفعيل المهام والمتطلبات الخاصة بالتنشيط الكامل لسائر الوسائل الإعلامية.

١٢- من المؤسف أن نسبة عالية من أساتذة الجامعات، ومن سائر من شملهم الاستطلاع لا يتابعون نشاطات مجامع اللغة العربية، علماً بأن المتابعة المحدودة لهذا الشأن كانت قاصرةً على أساتذة اللغة العربية، وبعض المتخصصين فى الدراسات الإنسانية وبعض الصحفيين ويلزم - فى ضوء ذلك - تنشيط المهام المنوطة بالمجامع العلمية فى سائر البلدان العربية.

١٣- ارتضى عدد كبير من المشاركين فى هذه الاستبانات أن تُوجد المدارس التى تقدم لطلابها بعض المواد باللغة الأجنبية، بينما تخوف الكثيرون من هذه الخطوة، لتأثيرها السلبى على انتشار اللغة العربية

بشكل جيد، بين الأجيال الجديدة. خاصة إذا كان تدريس كل المواد باللغة الأجنبية أو غيرها.

١٤- توصى هذه الدراسة بمتابعة قضية تعريب العلوم والتوسع فى ترجمة المراجع الأجنبية إلى اللغة العربية، وسعياً إلى توحيد الآراء، والتقريب بين وجهات النظر المختلفة فى العديد من الجامعات المصرية والعربية.

١٥- توصى هذه الدراسة بتسخير شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) للمساعدة فى تعريب العلوم، وخاصة الطب عند الشروع فى هذا الهدف القومى الكبير، مع التنبيه إلى أمرين متلازمين وهما: العناية باللغة العربية، وتقوية الأجيال الجديدة فى إحدى اللغات العالمية، وذلك لوجوب التواصل بين المتحدثين باللغة العربية داخل ربوع الوطن وإخوانهم العرب المنتشرين فى سائر بلدان العالم، والله الموفق.

"أهم المصادر والمراجع"

أولاً: الكتب:

١.**أثر العرب فى الحضارة الأوروبية** - عباس محمود العقاد- طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٤٦م.

٢.**التراث والمعاصرة - كتاب الأمة** - للدكتور أكرم ضياء العمرى (طبع فى شعبان عام ١٤٠٥هـ).

٣. **ديوان حافظ إبراهيم** - طبع الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٠م.

٤.**لسان العرب - لابن منظور**- طبع دار المعارف بمصر.

٥.**المزهر فى علوم اللغة العربية وأنواعها للسيوطى** - طبع عيسى الحلبى بمصر.

٦. **فى التعريب والتغريب** –د. محمود فوزى لمناوى –طبع مؤسسة الأهرام عام ٢٠٠٥م

ثانياً: الدوريــــات:

١. **الأدب الإسلامى – (مجلة) العدد ٦٥ محرم** – ربيــع الأول ١٤٣١ هــ – يناير – مارس ٢٠١٠م.

٢. **الأهرام** – فى ١٩٦٦/١/١٥م – ١٩٩٨/١١/١٥م – ٢٠٠٣/٢/٢م.

٣. **عالم الفكر –العدد الثالث** –يناير –مارس ٢٠٠٠م (تصدر فى الكويت).

٤. **العربى –مجلة تصدر فى الكويت**–يناير ١٩٨٤م –ديسمبر ١٩٨٩م – مارس ٢٠٠٣م

٥. **الفيصل – مجلة تصدر فى السعودية** – ينــاير ١٩٨٦م – العــدد ١٠٦ – فبراير ١٩٨٦م – العدد ١٠٧ ديسمبر ١٩٨٦م – العدد ١١٨.

٦. **القافلة – مجلة تصدر فى السعودية** – صفر ١٤١١هــ – شــعبان ١٤١١هــ – ذو الحجة ١٤١٦هــ – رمضان ١٤١٩ هــ.

٧. **المجلة العربية (تصدر بالسعودية) العدد ١٠١** – جمادى الثانيــة ١٤٠٦ هــ مارس ١٩٨٦م، العدد ١٠٤ رمضان هــ – يونيو ١٩٨٦م.

٨. **مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق**، لعدد لثالث ولعــشرون عــام ١٤٢٣ هــ – ٢٠٠٣م.

٩. **مجلة مجمع اللغة العربية** جزء ٧٣ عام ١٩٩٣م –جزء ٧٨ عام ١٩٩٦.

١٠. **المنهل** – جمادى الأولى ١٤٠٧هــ (تصدر بالسعودية).

١١. **الهلال** – سبتمبر ١٩٩٧، (تصدر بمصر).

ثالثاً: وثائــــق:

١. **عدد ١٠٥ استمارة استطلاع** رأى لعدد من الأساتذة مــن المــصريين والعرب من الجامعات ومراكز البحوث.

٢- واقعية البحث العلمي في مواجهة الجودة والضمان بالتعليم العالي(*)

أولاً: توطئة

يهدف الحديث عن البحث العلمي في الجامعات ومراكز البحث المختلفة، إلي إعطاء صورة حقيقية عما يحدث في أرض الواقع؛ للتعامل معه بمتطلبات الجودة والضمان في التعليم العالي.

وقد تابعت العديد من الدورات الخاصة بهذه المتطلبات – وبعضها خارج مصر – فوجدت أن العناية متجهة بشكل مكثف إلي أمرين:

أولهما: يختص بالعملية التعليمية، تلك التي تسعي إلي تحقيق معدلات أفضل بالنسبة للطالب، الذي سوف يتخرج من جامعته، ويلتحق بسوق العمل؛ والذي سيصير بمثابة منتج جديد، أو مستحدث متجدد .... فهل ما حصّله في كليته كاف للانخراط بشكل جيد في المؤسسات الإنتاجية أو الخدمية؟ أم أنه لم يستفد كثيراً بما حصله في المدرجات والفصول الجامعية، وعليه فسوف يتولي تشكيله وإعداده زملاؤه في العمل، هؤلاء الذين ترسخت لديهم الخبرة الكافية من خلال الممارسة الطويلة، وعند ذلك نسأل ... ما قيمة السنوات المتعددة في التعليم الجامعي بإنفاقاتها الكثيرة وامتحاناتها الشاقة، وغير ذلك من الآلام والآمال.

وربما كان من المخطط له: أن يكون الخريج الحديث أكثر إحاطة بتخصصه الدقيق، الذي سوف يعمل به، أو فيه، ولديه الجديد الذي يمكن أن

(*) بحث مقدم إلي المؤتمر السنوي الأول بجامعة ٦ أكتوبر في موضوع الجودة في التعليم العالي – تجارب وخبرات وذلك يومي الأربعاء والخميس ٨، ٩ أبريل ٢٠٠٩م ضمن فعاليات المحور الأول، وقد اعتمدت في هذا البحث علي الخبرة العلمية والتجارب الذاتية بشكل أساسي، ولذلك لم يكن للمراجع الورقية وجود كبير، علماً بأننا قد نشرنا معظمه في كتابنا " قضايا ثقافية" المطبوع في الأزهر الشريف.

يواجه به السابقين عليه في وظيفته، ولكل هذا تحتاج القضية إلـــي مزيـــد مـــن المراجعة لأنظمة التعليم، من حيث النظريات والتطبيقـــات، وســـائر المتعلقـــات المرتبطة بالوضع الراهن في ربوع الوطن، دون أن يكون ذلـــك قاصـــراً علـــي جامعة دون أخري، وقد كان البحث من خلال (ورش العمل) التي شاركت فيهـــا مرتبطاً بعدة أمور أو قضايا، ذات أهمية كبيرة، تهدف في المقام الأول إلي رفـــع كفاءة عضو هيئة التدريس، فيما يتصل بالمشاركة في إعداد الخطـــط والمنـــاهج، وكتابة التقارير، ومواصفات المقرر، والمعايير الأكاديمية، للبرنامج التعليمي علي مستوي القسم أو الكلية، ومن خلال بعض المسائل الأخرى، مثل مراعاة الجـــودة والضمان في التقديم والعرض، هذا الذي يتصل بشق منه فيما هـــو ثابـــت لـــدي التربويين، والمعروف بطرق التدريس، كأن القضية في ظاهرها ترتبط بـــأمرين هما المناهج وطرق التدريس.

وهذا هو الشق الأكثر اهتماماً فيما يتصل بالسعي، أو القفز إلي متطلبـــات الجودة في التعليم العالي.

<u>**وثاني الأمرين هـــو**</u>: شكل إداري بكامل مستوياته، مثل: مواصفات الإنـــشاء للمؤسسات الجامعية- الحكومية والخاصة- والأخذ بأساليب التخطيط من خـــلال منظومة فريق العمل، وبعض الأمور الأخرى المتصلة بالإدارة، مثل: مهـــارات الاتصال- التغيير- إدارة الوقت وغيرها.

وتبقي قضية البحث العلمي بالجامعات المصرية في حاجة إلي مـــن يتعطـــف عليها، ويقتحمها بنظام أسرع مما هو كائن، قبل الخضوع لكامـــل معـــايير الجـــودة والضمان، ذلك أن المتابعة العملية النشطة، تحتم ضرورة العناية بالبحث الأكـــاديمي الخاص بكل عضو من أعضاء هيئة التدريس، والذي يتمخض عنه التحديث المستمر في الكتاب الجامعي بسائر التخصصات، وهذا ما سوف نستكمله في بقية الصفحات.

ثانياً: العناية بالبحث العلمي:

تجلت العناية بالبحث العلمى عند العرب والمسلمين، فالحضارة القديمة التى نرى آثارها باقية حتى اليوم لم تكن عملا ارتجاليا خاليا من التخطيط، وإنما كانت محصلات إيجابية فى العديد من البحوث والدراسات المتنوعة.

وقد قرأنا بعض ما نشر عن بناء الأهرامات، وصناعة الآثار، وشق القنوات، وتطوير الزراعة فكان مدهشا ومثيرا للغاية. أما علم التحنيط عند المصريين القدماء فكان عملا متميزا وسباقا، ونشاطا ملحوظا ونتيجة لعمل الفكر، وحسن التخطيط، والالتزام.

وجاء الإسلام مصحوبا بنزول القرآن، فكان الحديث عن العلم مرتبطا بأول كلمة تلقاها الرسول عن ربه، كما كان الحديث عن القلم مرتبطا بقصة الخلق، وبداية النشأة، والتكوين على ظهر الكون.

وتجلى القرآن بسوره وآياته فى الحديث عن العلم والعلماء، والإخبار عن الماضى والحاضر والمستقبل إذ لم يكن الزمن مغيبا فى قصة الإعجاز القرآنى عن بيان مجتمع النمل والأغنية والنباتات والبحار والفلك، وتعاقب الليل والنهار، وغير ذلك من القضايا والموضوعات.

وتواصلت المسيرة، وأسهم العرب والمسلمون بدور بارز فى الشراكة الحضارية، ولينظر من شاء إلى كتاب علاء الدين على بن أبى الحزم القرشى المعروف بابن النفيس (الموجز فى الطب)، ولسوف تأخذه الدهشة، ويستحوذ عليه الإعجاب بما قام به هذا العالم وأمثاله فى البحث والتجريب، خاصة هذا الرجل الذى كان له فضل اكتشاف الدورة الدموية.

وظهرت القضايا الجديدة على الساحة العلمية، وكنا فى معظمها تبعا لغيرنا، ولم تكن لدينا إلا نشاطات بحثية قليلة بسبب ما لحق بالأمة من تداعيات،

ودواه، جعلت الأمة لا تتقدم مثل الآخرين الذين كانوا بعدنا ثم صاروا متقدمين علينا، وتوقفنا عند مرحلة، ولم نتجاوزها إلا بخطوات قليلة، ثم صحونا وبدأنا فى إقامة العديد من المراكز البحثية على اختلاف تخصصاتها وتعدد اتجاهاتها، فضلا عن مراكز البحوث بالجامعات.

ولكن هل تؤدى هذه المراكز أينما وجدت مع اختلاف تخصصاتها جميع ما ننتظره منها؟ أو بعض ما نأمله ونطمح فيه، تلك قضية تحتاج إلى حوار ونقاش..

لقد تمخضت الثورة العلمية عن قضايا جديدة، أو متجددة شغلنا بتطبيقاتها ومدى الاستفادة منها والتوابع الناجمة لتداعياتها.

لقد كثر حديث العلماء عن زرع الأعضاء أخذاً من إنسان لآخر، والتهجين الزراعى، واستنساخ الحيوان والإنسان، والهندسة الوراثية، والتقدم المذهل فى علم الاتصالات، وغير ذلك من القضايا التى يدور الجدال فيها أكثر من العناية بها، ومن المؤسف أن الضمير الإنسانى يغيب أحيانا عن دائرة السباق العلمى، ولا تراعى الروابط الأخلاقية ما دام العلم قد قال كلمته .

ثالثا: هموم البحث العلمى

تشكل الجامعات المصرية العمود الفقرى للبحث العلمى، وأن أية محاولة لإصلاحه تأتى أولا من الجامعة بما فيها من عوامل وبواعث لتطوير مناهج البحث، ثم تلى ذلك المراكز البحثية التى تنتشر فى جوانب الوطن حسب تخصصاتها المختلفة، وقد أوردت مقالة بالأهرام هذا الأمر جاء فيها:

"يمثل البحث العلمى فى الجامعات المصرية الركن الأساسى فى منظومة البحث العلمى، فالجامعات تستأثر وحدها بأكثر من ٧٥% من الباحثين، وأكثر من ٩٠% من البحوث، التى تجرى فى مصر، ولذلك فإن أى محاولة لإصلاح البحث العلمى لابد أن تبدأ وتنتهى بالجامعات، وقد برز حديث إصلاح البحث

العلمى طوال هذا العام، وانعقد من أجل ذلك مؤتمر أسفر- مثل كثير من مؤتمراتنا العلمية - عن توصيات ربما تعكف الآن الوزارة المعنية على دراسة تنفيذها"[1].

ويبقى السؤال المطروح فى حاجة إلى إجابة، ومضمونه كيف توظف البحوث العلمية فى المراكز المتخصصة لخدمة الفرد والمجتمع وضرورة إخراجه إلى حيث التطبيق، وهل هى وثيقة الصلة بالبيئة، وذلك من أجل أهداف أكثر تفعيلا وإيجابية؛ للدخول فى السباق العلمى المحموم بين كثير من دول العالم.

لا شك فى أن المعوقات التى تقف فى طريق ازدهار البحوث العلمية والتعليمية وهى إما مادية وإما معرفية، وإما وظيفية ترتبط بالإنسان وطموحاته فى التقدم والازدهار؛ لخدمة نفسه ووطنه، وترجع ميادين البحث العلمى إلى مجالات متعددة فى الطب والعلوم والتربية وطرق التدريس واللغات وسائر العلوم ، وعملية السعى نحو ازدهار البحث العلمى محتاجة إلى جهود مضاعفة من الدولة ومن الباحث، فجزئية بسيطة مثل حفظ المؤلفات على شرائط الحاسب الآلى تعد مهمة تسهِّل طريقة الاستفادة من المعلومات، كما أن الاستفادة من الرسائل العلمية التى تنوء بها المكتبات الجامعية لا تكاد تذكر فعلى سبيل المثال أجد أمام عينى أكثر من سبعين رسالة دكتوراة، وما يزيد على مائة رسالة ماجستير فى إحدى الكليات لا قيمة لها فى المجال التخصصى، وأن هم الباحث منها هو الحصول على الدرجة العلمية ولا شيء غير ذلك، فالأثر يعود إليه، وأما البحث العلمى فعليه السلام.

---

(١) جريدة الأهرام فى أول يناير ٢٠٠٦م.

وعلى جانب آخر يترامى إلى سمعى النشاط العلمى والبحثى الجاد فى أحد المراكز حيث يحقق ما لم تحققه عدة مراكز مجتمعة، والأمثلة على أرض الواقع أبلغ دليل.

أما مسألة التنسيق بين المراكز والوزارات والهيئات فأعتقد أنها شبه منعدمة، ولذلك تفقد مراكز البحوث معظم نشاطات الباحثين فيها، وأذكر أننى كنت فى مؤتمر من سنوات بجامعة عين شمس، وجاء النقاش إلى موضوع تدريس اللغة الإنجليزية فى الصفوف الابتدائية الأولى، وفاجأ أحد الأساتذة الحاضرين عندما ذكر: أن هذا الموضوع لم يُعرض فى المراكز البحثية المتخصصة أساسا ، وبالتالى لم يتم إقراره، وكأنهم بلا دور يقومون به ما دامت القضايا الخاصة بهم لا يتم بحثها بحثا علميا مستفيضا .

إذن ما هو الدور المنوط بالمراكز البحثية فى طول البلاد وعرضها؟

أرى أن هوة سحيقة تفصل بين مراكز البحوث والوزارات والهيئات المختصة مما يجعل الموضوع فى غاية الخطورة، وفى حاجة إلى صياغة جديدة للعمل والتنسيق والتفاهم بين هذه الجهات.

١. بحوث الماجستير:

الماجستير ـ أصبح الحصول على هذه الدرجة والترقى بها هو الهدف الأسمى لكل باحث خاصة فى الكليات النظرية، وقد زاد التساهل فيها بدعوى أنها تجربة للدكتوراه، وأنها مشروع بحث غير مكتمل، وهى طريق للوصول إلى ما بعدها، وهو الحصول على الدكتوراه، كما أن باحث الماجستير ليس إلا مشروعا لباحث لم تتيسر له السبل الكافية لتقديم بحوث مؤهلة للاستفادة منها، باستثناء أعداد محدودة وضعت أمامها أهدافا معينة ارتفعت فوقها مظلة البحث الجاد والعمل الدءوب ، والاستفادة من الأساتذة المتميزين فى مجال تخصصه.

ولقد تعرض كثير من الأساتذة الذين حاولوا الوقوف ضد الرسائل الضعيفة، والتى ترجع أسباب ضعفها إما لغياب شخصية الباحث أو للنقل المستمر عن الآخرين بدون تحديد مصادر كما تقضى بذلك الأمانة العلمية ، أو لتقصير المشرف فى أداء دوره الإشرافى ... أقول تعرض هؤلاء الأساتذة لضغوط يصعب تحملها، وأنهم يواجهون شعارات تشجع على التساهل والتقصير مثل: إن كل الباحثين هكذا ــ الدعوة إلى مراعاة الرحمة إذ أنها فوق العدل، وتكون النتيجة هى البدء فى إعداد باحث لا يعنيه إلا اللقب العلمى ثم تقدم الرسالة بعد المناقشة فتوضع فى أرفف المكتبات، وشيئا فشيئا لا يكون لها ذكر، ولا تحقق أثرا يذكر فى خدمة البيئة والمجتمع، وتغيب عن ذاكرة الدارسين، ولا تفيد البحث الجامعى بأي جديد بعدما أنفق عليها، وبُذل فيها الكثير من الوقت والجهد.

وأذكر أنى كنت عضوا فى مناقشة لواحدة من رسائل الماجستير بإحدى الكليات، وبان فيها تراخى المشرف عن أداء دوره، إذ لم يستفد منه الباحث شيئا، ولم يجد من يوجهه، فكانت الأطروحة الجامعية عبارة عن فصول مهترئة لا قيمة لها، وكان الرأى هو الرفض، ثم تخفف إلى المنح مع إعطاء الباحث مزيدا من الوقت لإصلاح ما فى بحثه من خلل، ومرت شهور عديدة إلى أن كان وقت كتابة هذه الصفحات دون أن يحقق الباحث شيئا مما كُلِّف به.

٢. بحوث الدكتوراة:

ينسحب على رسالة الدكتوراه معظم ما قيل عن بحث الماجستير غير أن الدراسة فى الدكتوراه تكون فى الغالب منسقة وبها كثير من الجزئيات، التى يلتئم من معظمها الموضوع، وتشتمل على أعداد أكثر من الصفحات، ويكون صاحبها أكثر خبرة ومعرفة، لكن إعداد البحث لا يعبر إلا عن شخصية الباحث، وقياس

معارفه، واستفادته من كل ما قرأ، ويضاف إلى ذلك دور المشرف الذى ينبغى أن يقود الباحث إلى كل جيد وجديد.

ويبقى أثر البحث فى خدمة التخصص هو المعول عليه فى هذا الأمر، ونعتقد أن السمة الغالبة هي فقد رسالة الدكتوراه لقيمتها وأثرها، والطموحات المنتظرة منها ليست بغريبة على أحد، خاصة ممن يعملون فى الجامعات ومراكز البحوث.

٣. بحوث الترقية:

إن المعلوم لكل عضو من أعضاء هيئة التدريس أن أى بحث لابد من الوصول معه إلى مجموعة من النتائج والأهداف، التى تميز بحثا عن آخر وإلا فلا قيمة لما يكتب، ولا يساوى تكاليف الطباعة التى أنفقت عليه.

والمعروف أن البحوث العلمية فى المجال التطبيقى ترتبط بالبيئة وتخدم المجتمع ــ كما أن البحوث فى المجال النظرى كالدراسات الإنسانية تنهض هى الأخرى بذات الدور مع اختلاف فى الأهداف والغايات، وإن كانت البحوث التطبيقية فى حاجة أكثر إلى الاستفادة من البحوث المتخصصة فى الدول المتقدمة، بمعنى أن تكون بحوث عضو هيئة التدريس غير محلية، وإنما تنطلق إلى المجال الرحب فى دول العالم المتقدمة.

إن مما يؤثر فى جدية البحث والباحثين ظهور حالات غير قليلة يظهر تمرس أصحابها في السطو المباشر أو السطو المقنع على مؤلفات الآخرين، إما نقلا كاملا، أو تلخيصا سافرا، مما يفقد الباحث أجل الصفات فى هذا المجال وهى الأمانة العلمية، التى يتحلى بها، ويسعى إليها كل باحث جاد٠

إن كثيرا من البحوث الجامعية تحتاج إلى مراجعة قبل أن تقدم إلى المجلات العلمية للنشر؛ لأن طبع بحوث لا تستحق النشر فى المجلات العلمية، سلوك متدنٍ يضعف من قيمة المجلة وتأثيرها فى صغار الباحثين، كما يفقدها

أيضا جوانب أخرى من الرسالة المنوطة بها، فالباحث يرغب فى الترقية ويضعها أمام عينيه ويسعى إلى النشر ، ويستعطف المحكمين، أو يوجه إليهم من يستحثونهم على التساهل وقد يستجاب لذلك أحيانا فينشر البحث وتكون النتيجة فى غاية الخزى، ولا تليق بمجلة علمية محكّمة مما يجعل البحث العلمى ينتقل بضعفه من سيىء إلى أسوأ.

أما الذين يسعَون إلى البحوث الجادة فإنهم يحتاجون إلى ميزانية كبيرة يستعينون بها فى شراء المراجع النادرة، ويجلسون الأوقات الطويلة أمام شبكات المعلومات، ويعرضون ما يكتبونه على مجالس الأقسام العلمية؛ لكى يستفيدوا بآراء العلماء المخلصين فيهم، خاصة أن عضو هيئة التدريس مطالب بتقديم العديد من البحوث والمؤلفات فى مدة محددة مما يجعلهم يعملون فى همة ونشاط، حتى يصلوا إلى أهدافهم المنشودة.

ونؤكد أن العلماء المخلصين والباحثين الجادين موجودون، وإن كانت الموجة الأخرى تبدو هى الأكثر، وهى الأعلى صوتا ببحوث أصحابها [المسلوقة أو المسروقة] والتى لا نفع فيها بل إنها تحمل الضرر والأذى الكبير.

٤- جهود الأساتذة:

تتميز الجامعات المصرية بأعداد لا بأس بها من الأساتذة الذين صنعوا أنفسهم علميا، وقدموا الكثير الذى يخدم الجامعة والمجتمع، ويعملون فى صمت، لكن الأكثرية قد جرفتهم تيارات متعددة مثل الانشغال عن العلم، والتنقل بين العديد من الكليات، وتوجيه نشاطاتهم نحو الكتاب الجامعي الدراسي وأعمالهم الخاصة؛ حتى إن بعض هذا التوجه ينعكس سلبا على الإشراف العلمى، فليس لديهم من الوقت ولا الجهد الذى يوجهونه نحو الإسهام فى تنشئة باحث جديد ، كما أن من المؤلم حقا هو تأثير ذلك على تطوير أنفسهم علميا، فليس لديهم ما

يقدمونه لا للبحث ولا للطلاب، ولا للقب أستاذ الذى يشرفون بحمله، ويترقون به إلى وظائف جامعية وبحثية ذات بريق ولمعان، وتكون الحصيلة تكاسلا أو توقفا عن البحث، أو إخراجا لدراسات قليلة القيمة فى مجال التخصص.

والقضية ليست وليدة اليوم ، ولكنها كبيرة السن، وتنتقل من سيء إلى أسوأ مما ينذر بعواقب وخيمة، وكان ممن نبه إلى هموم الأستاذ الجامعى وانعكاس ذلك على بحوثه ومؤلفاته الأستاذ أنيس منصور الذى قال :

"أما الأساتذة ــ يرحمهم الله جميعا ــ فلا عندهم وقت للقراءة والبحث ، وإذا كان هناك وقت فخصما من ضرورات الحياة الشخصية والاجتماعية، وليس عندهم مال لشراء الكتب الحديثة، ولذلك يتساقطون فى المكتبات العامة وراء الكتب الجديدة، إن وجدوها، أو يظلون هكذا متخلفين متجمدين على الذى تعلموه فى سنوات سابقة.

وقد انبهرنا ونحن ندرس الفلسفة من الرهبان فى الأديرة، ومن الشيوخ المتصوفين، فقد استطاعوا أن يستوعبوا، وأن يكتبوا وأن يبدعوا، وهم لم يستطيعوا ذلك ، إلا لأنهم اعتزلوا الحياة، واختصروا تكاليفها ، وارتضوا فتافيت المال والطعام والشراب واللباس والسلطة، وهذا ما لا يقدر عليه أحد من أساتذة الجامعة.

ونحن نشق عليهم كثيرا إذا طلبنا إليهم أن يضيئوا أكثر وهم محترقون، وأن يأخذوا بأيدى الطلاب وأيديهم مغلولة، وأن يعطوا الأجيال القادمة ما لا يجدونه لأنفسهم"[1].

وكان الأستاذ أنيس منصور يقول الذين يدخلون الجامعة ولا يخرجون منها هم الأساتذة، أما ما كتبه عن أساتذته فقد قاله عن الفترة التى تخرج فيها من كلية الآداب وعمل فيها مدرسا للفلسفة، وهذه النماذج الراقية غير موجودة الآن مما

---

(١) جريدة الأهرام ٢٨/ ١٠/ ١٩٧٩م.

يدعونا للترحم على ذلك الزمن الجميل، وفى مرحلة تالية قال أحمد زويل عن أساتذته وتجربته الدراسية: "عندما ذهبت إلى كلية علوم الإسكندرية لم أكن أعرف ما هو العلم، ولكن عندما رأيت الأساتذة ، والطلبة ينظرون إليهم بكل إعجاب ورهبة تمنيت من أول يوم أن أكون واحدا من هؤلاء الأساتذة.

كان عددنا فى الكلية صغيرا وكان الأساتذة يهتمون بنا اهتماما كبيرا، ويعرفوننا بالاسم ويعطوننا المراجع، وتخرجت بامتياز مع مرتبة الشرف"(١).

على أننا نؤكد أن وضع الطلاب وسعيهم إلى البحث يختلف من طالب لآخر، كما أن الأساتذة يعطون مزيدا من الاهتمام لكل طالب جاد وحريص، إذ أن كثرة الأعداد وتدنى الطموحات تختلف عما إذا كانت الأعداد قليلة والهمم عالية، إذ تبرز الرغبة فى العلم بصورة واضحة.

فالأستاذ هو رمز الديمقراطية والحرية والكرامة والعدالة والمثل العليا وينبغى عليه أن يحرص على ذلك، وأن يتمسك به، وألا يتخلى عنه، وأن ينقله إلى طلابه بأمانة وصدق، وأن يعمل فى إطار منظومة مجالس القسم والكلية والجامعة حتى تستمر لديه حركة التنمية البحثية بما يعود نفعه على الجامعة والمجتمع،لكن هذا فى تناقص بصورة متدنية، تضر بالبحث الجامعى وبالباحثين.

وأخطر ما يهدد نشاط الأستاذ هو ضعف رغبته فى التطوير، واستسلامه لمشيئة الآخرين الذين يخلدون إلى الراحة، ولا يشغلون بهموم البحث ومعاناته مما يفرغ دور الأستاذ من مضمونه ومحتواه.

رابعاً: إصلاح مسيرة البحث العلمى :

تحدث الكثيرون عن قضية إصلاح البحث العلمى فى الجامعات والمراكز البحثية، ولقد كان الحديث عن ميزانية البحث العلمى هَمّاً مشتركا شغل به

---

(١) جريدة الأهرام ٢/ ٥/ ١٩٩٨م.

الكثيرون ذلك أن البحوث الجادة تحتاج إلى ميزانية كبيرة؛ لتغطية النشاطات البحثية، ولذلك يلاحظ أن الدول المتقدمة تعطى ميزانية للبحث العلمى بصورة تجعل الطرق معبرة أمام العلماء؛ لكى ينهضوا ببحوثهم دون أن يشغلوا بأى شيء آخر، وقد كثرت الدعوات فى السنوات الأخيرة إلى إعادة النظر فى ميزانية البحث العلمي، ولكن يبدو أن لا حياة لمن تنادى.

إن العالم يتسابق الآن على التقدم فى مجال العلوم التطبيقية، ولا يتحقق ذلك إلا بالميزانية التى تغطى النشاطات المختلفة والتى تتميز بها دولة عن أخرى، كما أن الاهتمام بميزانية البحث يعطى العلماء مزيدا من الوقت للتفكير وكد الذهن ومعاناة البحث والسعى نحو الجديد من المعارف والموضوعات، التى تسهم بدرجة كبيرة فى خطط التنمية البشرية، كما تسهم العلوم الثقافية والإنسانية فى تطور الحياة وتنمية المعارف عند الباحثين.

ومن الملاحظ أن كثيرا من أعضاء هيئة التدريس فى الجامعات ومراكز البحوث بمجرد حصولهم على الدكتوراة أو على الأستاذية يخلدون إلى الراحة، ويرون أنهم قد قاموا بدورهم وأدوا رسالتهم فيتوقفون عن البحث، وتقتصر أنشطتهم على بحوث مشتركة بين عدد من الأساتذة أو على بحوث موجزة لا تعبر عن الدرجة التى ارتقوا إليها، أو الوظيفة التى يشغلونها، وإنما ينبغى أن يكون الأمر مختلفا، إذ يجب على العضو الباحث أن يكون حركة دائبة فى مسيرة الرقى بالبحث العلمى، وعليه أن يسعى إلى تنمية معارفه من خلال مصادرها المتاحة للراغب فى المشاركة، مثل المؤتمرات العلمية، فهى مجال رحب لتبادل الثقافات والمعارف والدخول فى الحوارات الجادة التى ينعكس مردودها على الباحث، ومثل المكتبات العلمية التى يتيسر فيها ما يعجز الباحث عن تملكه والحصول عليه.

وصارت الآن شبكة المعلومات (أنترنت) سبيلا جديدا للراغبين في المعرفة بشتى ألوانها وتعدد اتجاهاتها، وهي سبيل من سبل المعرفة لا يمكن الاستغناء عنها في العصر الحديث.

وقد فوجئ الجامعيون في مصر بتقرير دولي يحدد أفضل الجامعات إفريقيا وعالميا، ولم تحصل الجامعات المصرية على مركز نفخر به، وإنما كان الترتيب مخزياً مما يحتم زيادة الهمة؛ لتحسين الأوضاع، وتغيير الصورة التي تركها هذا التقرير، فقد حصلت جامعة القاهرة على المركز الثامن والعشرين إفريقيا من بين مائة جامعة إفريقية، كما حصلت على المركز ٤٩٧٨ عالميا من بين خمسة آلاف جامعة، وهذا الشيء لا يسعد أحدا بأي حال من الأحوال وقد حزن على ذلك القليلون، الذين تابعوا الأمر بكل ضيق ومعاناة، بينما تجاهله وغض الطرف عنه معظم الجهات المسئولة في مصر، مما أثار حفيظة الكثيرين، فزاد الحديث والنقاش حول إنقاذ التعليم الجامعي، والبحث العلمي في مصر، فيُنشر في جريدة الأهرام بحث موجز لمجموعة من الوصايا حول هذا الانقاذ، وقد جاء في حديثنا السابق ما أسماه كاتب البحث «الوصايا العشر» وهي:

١ - **النقاط البحثية** والتي لابد أن تكون محددة في رسائل الماجستير والدكتوراة، وكذلك في بحوث الترقية التي تخدم خطة التنمية.

٢ - **نظام الترقية:** وهو في الجامعات ومراكز البحوث يحتاج إلى إعادة نظر، خاصة أن أكثر البحوث مكتوبة بطريقة (سلق بيض).

٣ - **البعثات:** وقد لوحظ في السنوات الأخيرة انخفاض عدد المبعوثين، ولهذا مردود سيئ على حركة البحث العلمي، كما لوحظ التأخر بصورة ملفتة للنظر في عمق البحوث التي ترتبط بالمجالات، التي تستحوذ على الكم الأكبر من التخصصات النادرة، مثل: الهندسة الوراثية، والأطباق

الطائرة، وتحلية مياه البحار، والطاقة الشمسية، والاستنساخ، وهذا لن يتحقق إلا بإرسال البعثات إلى الدول المتقدمة[١].

٤- **النشر العلمي:** وقد عرضنا لهذا الأمر فى المجلات العلمية وهموم ذلك، وانعكاس سلبية الموضوع على حركة تطوير البحث العلمي.

٥- المؤتمرات ــ تحدثنا عن أهميتها فى كلامنا السابق.

٦- المعارف العلمية ــ وهذه لا تتوقف عند حد، وقد صارت سبلها كثيرة ومتنوعة، بصورة تشجع على البحث.

٧- **التجهيزات العلمية:** تعد هذه التجهيزات، الوسائل الفعالة فى حركة تطوير البحث التطبيقي وكل كلية أو مركز بحوث فى حاجة إلى أجهزة تختص به، وتتناسب مع كثرة أعداد الطلاب والباحثين، وهذا الأمر يحمل فى طياته كثيرا من الضيق، فالمعامل الجامعية، تفتقر إلى كثير من المواد الخام التى تستعين بها، حتى المدارس الثانوية فى غاية الحاجة الملحة؛ لإجراء التجارب العلمية البسيطة، وأذهب أحيانا إلى بعض الأقسام فى الكليات المعملية فأجد كثيرا من المعامل والورش فقيرة ومحتاجة إلى الكثير الذى ينبغى أن يعتمد عليه الباحثون.

٨- **جامعة للدراسات العليا:** هذه فكرة تحتاج إلى دعم مالى كبير؛ للانتقال بها إلى حيز التنفيذ والممارسة إذ يكون الهدف من هذه الجامعة السعى لتطوير البحث فى المجالات العلمية، ويختار لها صفوف الأساتذة من الجامعات، ومراكز البحوث، ويوضع لها كادر خاص يميز العاملين فيها عن غيرهم وترتبط بالمصانع والهيئات الحكومية ذات الصلة الوثيقة بالبحث العلمي.

---

(١) انظر جريدة الأهرام ١٣/ ٢/ ٢٠٠٦م.

٩- **المكتبة العلمية:** وقد سبق أن تحدثنا عن أهمية، تطويرها وضرورة تنوع ما فيها من ثقافات ومعارف.

١٠- **الميزانية:** تعد الميزانية عصب النشاط العلمي، ولا يمكن الاستغناء عنها، ونأسف كثيرا ونأسى لمستقبل البحث عندنا، عندما نوازن بين ميزانيات البحث في الدول المتقدمة وميزانيته عندنا فنجد أن الفرق هائل ومثير للإحباط بدرجة كبيرة، وإلا فكيف نفسر حصول جامعاتنا على صفر في قائمة خمسمائة جامعة على مستوى العالم في نهاية عام ٢٠٠٤م، ثم حصولنا على صفر في قائمة أفضل الجامعات الأفريقية في نهاية عام ٢٠٠٥م، ويبقى باب الأمل مفتوحا فلعل رياح الفكر والتغيير تبدل كثيرا من هذا الحال مما يؤهلنا للتقدم بصورة كبيرة في مجالات البحث العلمي.

١١. **من الواضح** أن التوجه الحاصل الآن نحو التطوير يكاد ينحصر في العملية التعليمية والجوانب الإدارية، أما النواحي العلمية في الأطروحات الجامعية وبحوث التراقي والكتاب الجامعي فتحتاج إلي مواكبة الجودة والضمان في التعليم العالي، والله الموفق.

أهم المصادر والمراجع

أولاً: الاعتماد علي ذاتية التجارب في عرض هذا الموضوع.

ثانياً: كتابنا (قضايا ثقافية) من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف- عام ٢٠٠٩م.

ثالثاً: جريدة الأهرام في: ٢٨ أكتوبر ١٩٧٩م - ٢ مايو ١٩٩٨م - أول يناير ٢٠٠٦م - ١٣ فبراير ٢٠٠٦.

****

٣. سرقات المتقدمين من المتأخرين[*]

قال تعالي: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[1].

وفي الحديث الشريف: ﴿ألا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه﴾[2].

وقال زهير بن أبي سلمي:

ومها تكن عند امرئ من خليقة *** ولو خالها تخفي علي الناس تُعْلم[3]

لقد تناولت الصحف والمجلات في السنوات السابقة العديد من حالات السرقات العلمية والأدبية بين الكتاب والمفكرين، وكانت كل حالة تختلف عن غيرها في أمور كثيرة، وكنت أقول لنفسي، وأتحدث لبعض زملائي عن هذه الجرأة الغريبة، التي يلجأ إليها هؤلاء السارقون لأفكار الآخرين وجهودهم، وكيف يتناسون إمكانية التعرف علي مواطن سرقاتهم؟!

إن العصر الحديث بوسائله في الطبع والنشر والتعليم يفرض علي من تخول له نفسه الإغارة علي مؤلفات الآخرين أن يتجنب هذا الخلق، وأن يبتعد عن الوقوع في درك الشبهة؛ صونا لكرامته، وحفظاً لماء وجهه، وإيثاراً للسلامة؛ لأن السطو الذي نتحدث عنه مهما بذل له من وسائل التمويه والإخفاء، فلابد من اكتشافه يوماً ما، قريباً أو بعيداً.

ولا أخفي علي القارئ أن بعض من يمارسون السطو علي مؤلفات الآخرين يتفننون فى إغارتهم، ولا يخالج الباحث شك في وقوع السرقة يقينا، وتكاد الأسطر والصفحات التي اقتنصها أو اختلسها المغير تعلن عن جريمته، لكن الباحث يفشل في الإمساك به لأسباب كثيرة، كما أن بعض الباحثين يؤثرون السلامة، ولا يحبون – حسب رأيهم – تجريح أحد، ويفضلون الصمت عن الكلام، وهناك فريق ثالث

(*) قدم الموضوع بمنهج مختلف في كتابنا (أمرؤ القيس بين القدماء والمحدثين) وفزت عنه بجائزة مالية من دار المجد بالمملكة العربية السعودية.

(١) البقرة: (٢٨٣).

(٢) رواه الترمذى وابن ماجة وابن حنبل.

(٣) شرح ديوان زهير بن أبي سلمي صـ ٣٢ طبع المكتبة الثقافية- بيروت- عام ١٩٦٨م.

يعرض لما اكتشفه تلميحاً لا تصريحاً؛ خوفاً من إضاعة الوقت في الردود والمهاترات التي نطالع الكثير منها في وسائل الإعلام.

وكنت أظن إلي وقت قريب أن السرقة قد تطورت هي الأخري، وصارت مقصورة علي سرقة الأفكار، وإعادة التعبير عنها بصورة تختلف عن الأصل المسروق، ولكن ذلك الظن لم يكن صحيحاً، إذ وقعت عيناي علي حالة غريبة من السطو علي مؤلفات الآخرين، ونقل ما سطروه نقلاً تاماً، وتأتي غرابة الحالة التي سنعرض لها من ناحية لا تخطر علي الذهن ... .

فمن كان يتصور أن المؤلف المتقدم في زمن التأليف يسرق من الآخر الذي تأخر عنه في تاريخ التأليف ما يقرب من نصف قرن!!!

وإنني أعرض هنا – بكلِ صدق وأمانة – لتفاصيل هذا السطو، مع بيان الكيفية التي تعرفت بها عليه، ونشهد الله علي ما نقول.

لقد نهض الأستاذ محمد صالح سمك في عام ١٩٢٩م بتأليف كتاب عن أمرئ القيس بعنوان (أمير الشعر في العصر القديم)، ونشر فصوله في مجلة المقتطف في عامي (١٩٣٠م، ١٩٣١م) وكتب مقدمته نابغة الأدب العربي مصطفي صادق الرافعي، ثم طُبع الكتاب في عام ١٩٣٢م في حوالي ثلاثمائة صفحة. ويعد هذا الكتاب من أوائل المؤلفات التي وضعت عن أمرئ القيس، وقد ألفه الأستاذ سمك عندما كان طالباً جامعياً، ولذلك كان أكثر النقاد يرفعون الحرج عن منهج المؤلف في البحث عن حياة امرئ القيس وشعره، إذ أن الكتاب ينقصه الترتيب الذي يأخذ به أصحاب التآليف الأدبية والنقدية، كما أن الكتابات التي تحدثت عن امرئ القيس، والتي أعدت كفصول بكتب تاريخ الأدب، كان أغلبها يدور في هذا الإطار العام الذي قدم به محمد سمك كتابه المذكور.

ولاشك في أن هذا المؤلف قد قام بجهد ملحوظ في تجميع العديد من الأخبار والروايات، وسَبَكِها وإخراجها في عدة فصول اكتمل منها هذا الكتاب، ثم قام

المؤلف بإعادة طبع الكتاب للمرة الثانية عام ١٩٧٤م في صورة تختلف اختلافاً كبيراً عن الطبعة الأولي، حيث اختصر بعض فصوله، وأضاف إليه فصولاً أخري، ووصلت صفحاته في الطبعة الثانية إلي ما يقرب من خمسمائة صفحة، وقد قرأت الكتاب في هذه الطبعة الثانية ورقة ورقة وسطراً سطراً، وقدرت جهد الأستاذ سمك كمؤلف ابتدأ الكتابة وهو طالب في الجامعة، وإن كثرت النقول والشواهد في كتابه والتي جمعها من كتب القدماء والمحدثين، وكان يشير إليها كثيراً في متن الكتاب.

وفي عام ١٩٦٨م أخرج الدكتور الطاهر أحمد مكي كتابه (امرؤ القيس- حياته وشعره) وقد انتقد كتاب محمد سمك في المقدمة التي عقدها لكتابه، ثم جعله من مراجعة التي أثبتها في آخر الكتاب، وقد انخرطت في قراءة كتاب الدكتور مكي لزوما لدراسة كنت أقوم بإعدادها عن امرئ القيس، ولما بدأت في مطالعة الفصل الذي عقده بعنوان (شاعر الأطلال) أدركت أن الأفكار التي عرض لها، والشواهد التي استدل بها ليست بغريبة عليّ تماماً، فقد سبق أن قرأتها في كتاب محمد سمك، وتأكدت من التوافق الكبير بين الكتابين واستقر في خاطري وجود نقل أو سطو أو إغارة فيما بين الكتابين، وأن واحداً من الكاتبين قد اعتمد علي الآخر في أكثر فصول كتابه، واتجه ظني نحو الدكتور الطاهر مكي، وقلت لنفسي: لابد أن يكون هو الآخذ والناقل من كتاب محمد سمك وأنّ ذكر المرجع ليس حجة في نفي السرقة مادامت الصفحات المنقولة بالعشرات، وقد اتجهت إلي هذا الظن بسبب أن كتاب (أمير الشعر في العصر القديم) لسمك متقدم في زمن التأليف علي كتاب الدكتور مكي.

ولم أقنع بهذا الظن، إذ لم يوجد لدي ما يؤكده أو ينفيه، فأرجأت إتمام الدراسة التي كنت أقوم بها لحين الرجوع إلي النسخة القديمة من كتاب محمد سمك، والتي طبعت أولاً، واطلع عليها الدكتور مكي، وانتقدها، ووجدت أنها تختلف عن النسخة التي قرأتها، ووصلت إلي النتيجة الآتية، بعد إطالة البحث، وتأن في الحكم، ويؤسفني أن أذكرها، أما الأسف فلأنها تدين عالماً كبيراً، ورائداً تربوياً بالسطو علي كتابات الآخرين وهو الأستاذ محمد صالح سمك، فلقد أعدّ كتابه عن أمرئ

القيس، وطبعه في عام ١٩٣٢هـ وبقي الكتاب علي تلك الصورة إلي أن أخرج الدكتور الطاهر مكي كتابه عن امرئ القيس في عام ١٩٦٨م، وأعيد طبعه في عام ١٩٧٠م، وتوالت طبعاته فيما بعد، وكأن الأستاذ سمك أراد لكتابه من الشهرة والذيوع مثل ما لكتاب الدكتور مكي، فنهض بإعادة كتابه، وإخراجه في عام ١٩٧٤م في صورة جديدة كما سبق القول، وقد اعتمد في هذه الطبعة علي كتاب الدكتور مكي إعتماداً كبيراً، ونقل منه نقلاً كثيراً ، وبخاصة ما ضمه إلي كتابه تحت عنوان (أغراض شعره ومناهله)، واستغرق مائة صفحة، كما امتد النقل إلي فصول عديدة من كتاب الدكتور مكي.

ونؤكد بعض الحقائق في هذه القضية، وهي أن المتقدم في زمن التأليف وهو الأستاذ سمك قد سطا علي المتأخر وهو الدكتور مكي، ولم يشر الأول عندما أعاد طبع كتابه إلي كتاب الثاني، كما أن النقل قد شمل فصولاً كثيرة ضمها الأول بي كتابه في طبعته الجديدة، وإنه لمن الغريب حقاً أن نجد المتقدم يسطو علي المتأخر، وينقل عنه الصفحات تلو الصفحات، دون أن يشير إلي هذا النقل، مقتصراً علي إضافة كلمة أو جملة إلي ما نَقَل؛ ليغفل القراء عن السطو، وأظنهم قد غفلوا لسنوات طويلة، وإذا نظرنا إلي حقيقة الأمر اعتبرنا أن كتاب الأستاذ سمك هو المتأخر في زمن التأليف (بالنظر إلي الطبعة الثانية التي تختلف عن الأولي) وبالتالي فالدكتور مكي هو المتقدم في تاريخ التأليف، كما نؤكد أن الأستاذ سمك لم يخرج كتابه كله (في طبعته الثانية) عن طريق النقل من كتاب الدكتور مكي، فهو باحث قديم، ومؤلف مخضرم، وليست لديه السذاجة التي يسهل علي الآخرين اكتشافها، كما أن له فضل السبق في تأليف كتاب عن امرئ القيس عندما كان طالباً جامعياً، ونصل بعد هذا التقديم الذي أراه ضرورياً جداً إلي تحديد أهم المواضع التي سطا عليها الأستاذ محمد صالح سمك من كتاب الدكتور مكي، ونعرض لها عرضاً سريعاً مع الاستدلال بصور (فوتوغرافية) من الكتابين، وعندما يجد القارئ الحقائق ماثلة أمامه سوف يقنع ببعض ما يذكر له، ويكتفي به.

أولاً: لقد عقد الدكتور مكي في كتابه فصلاً بعنوان (شاعر الأطلال) ثم جاء الأستاذ محمد سمك فأغار علي ما كتبه الدكتور مكي، وصنع من مجموع ما نقله فصلاً بعنوان (الأطلال والظعائن) ونؤكد أن النقل يشمل النصوص الشعرية وشرحها والأفكار والنتائج إلا من اختلافات بسيطة لا يخفي القصد منها علي القارئ. ولكي تتضح هذه الأدلة، وتبدو سهلة ميسرة نطلق علي كتاب الدكتور مكي (امرؤ القيس حياته وشعره) اسم (الكتاب الأول)، كما نطلق علي كتاب محمد سمك (أمير الشعر في العصر القديم) في طبعته الثانية اسم (الكتاب الثاني)، ولن يخفي علي أحد التوافق بين ما جاء في الكتاب الأول تحت عنوان (شاعر الأطلال) وما جاء في الكتاب الثاني تحت عنوان (الأطلال والظعائن).

١. في حديث الدكتور مكي عن شاعر الأطلال قال في كتابه الذي نعتناه بالأول: «... أما شاعر كِندة (امرؤ القيس) فجعل من بكاء الأطلال عنصراً مستقلاً، ميزّها عن الغزل، وأطال فيها القول، ونوع صورها ......»[1]، وجاء الأستاذ سمك فأخذ هذه الفقرة، ونقلها إلي كتابه في طبعته الثانية، والذي نعتناه بالثانى، وغير في بعض ألفاظها وقال: «ويمتاز امرؤ القيس عمن سبقوه بأنه جعل بكاء الأطلال عنصراً مستقلاً، فقد أطال القول فيها، ونوع صورها......»[2].

٢. عندما تحدث الدكتور مكي في كتابه عن بواعث نشأة المقدمات الطللية، وأطوارها التي مرت بها نَقَلَ نصاً نقدياً لابن قتيبه من كتابه (الشعر والشعراء)، ونصا نقدياً آخر لابن رشيق من كتابه (العمدة)[3]، ثم

(١) الطاهر مكي (الكتاب الأول): امرؤ القيس: حياته وشعره صـ ١٥٩ طبع دار المعارف.
(٢) محمد سمك (الكتاتب الثاني) : أمير الشعر في العصر القديم – صـ ٣٢١ طبع دار نهضة مصر.
(٣) انظر الكتاب الأول صـ ١٧٤، صـ ١٧٥.

استشهد الأستاذ محمد سمك في كتابه بالنصين نفسيهما، كما وردا في الكتاب الأول[1].

٣. لقد انتقد الدكتور الطاهر آراء القدماء فقال: «وكلهم حام حول المعني ولم يقع عليه، فليست المقدمة الطللية في نشأتها عملاً مفتعلاً، تمهدُ لما بعدها، ولا تكلفا يمسك به الشاعر ليقدح قريحته فتواتيه.... والشيء الذي يميز الشاعر عن غيره قدرته علي استرجاع الماضي، استرجاعه وليس اكتنازه ....» [2].

كما علق صاحب الكتاب الثاني علي آراء القدماء فقال: «وكلهم حام حول المعني ولم يقع عليه، وليس ذكر الأطلال وبداية القصائد عملاً مفتعلاً لا ارتباط له بما بعده، بل هو بداية النسيب، ومطلع الغزل، واستحضار الحالة الشعورية الخاصة بتجاربه المخزونة في الوجدان والأحاسيس....) [3] وهكذا نلاحظ توافق الأفكار بين الكتابين، وإن حاول الأستاذ سمك صاحب الكتاب الثاني أن يخفي نقله واحتذاءه بتغيير في بعض الكلمات، وإضافة بعض الجمل التي لا يخفي معها السطو والاحتذاء.

٤. إذا تركنا جانب النقل في الأفكار التي يمكن التعبير عنها في سطور بسيطة إلي مجال أوسع، وهو نقل الصفحات الطوال مع ما بذل فيها من جهد وعناء فسوف نري حجم المأساه التي اقترفها مؤلف الكتاب الثاني.

قال الدكتور مكي في حديثه عن شاعر الأطلال: «وذكريات امرئ القيس وأطلاله وليدة دفع عاطفي، كان صاحبها يحن إلي أمسه فعلاً، ويشتاق إليه، ويرجوه أن يعود، وهي عواطف رغم بيئتها المحدودة، ومن تكرار بعض صورها، ذات ملامح إنسانية عميقة، لا نكاد نفهمها حتى نقف عندها، ولا نكاد نقف عندها، حتى نتجاوب معها، ونفكر فيها، وتتحول إلي واقع مجسم نتصوره ونعايش صاحبه

---

(٤) انظر الكتاب الثاني صـ ٣٢١، صـ ٣٢٢.
(١) الكتاب الأول صـ ١٧٥ ، صـ ١٧٦.
(٢) الكتاب الثاني صـ ٣٢٢.

ونلتقي معه، نفرح له أو نأسي عليه، لأنه يعبر عن لون من الفراق كلنا نعيشه في صورة أو أخري. فالموت فراق الحياة، والفقر فراق الغني، والشقاء فراق السعادة، والرحيل فراق الأهل والأحبة، والعالم في حركته اليومية زاخر بألوان من المفارقات، ويضيق المرء ببعض الأسماء، تثقل علي أذنه، ويضطرب معها لسانه، فإذا تجاوزها إلي ما هو سهل وموسيقي ونافع، تخلت عنه الوحشة وترسبت في وجدانه تجربة الشاعر فيمد ذاكرته إلي شعره يغترف منه للتعبير عن مشاعره الخاصة وتصويرها، إذ لم يكن قادراً علي إبرازها في الشكل الذي يريد.

والمرأة في جانبها النفسي أكثر وضوحاً في شعر الأطلال منها في شعر الغزل عند امرئ القيس؛ لأنه فيها لا يلاحقها كياناً مادياً يصف دقائقه، وإنما يعرض لها معني إنسانياً يأسي لفراقه، ويحزن لرحيله، وتمتلئ عينه بالدموع عند تذكر هذه اللحظات، وقلما يتجاوز ذلك أو يتخلي عنه، فإذا فعل فلكي يقول عنها إنها طيبة الرائحة موشاة الثياب. والحديث عنها في المقدمة طبيعي يقتضيه صدق الانفعال، واكتمال الصورة، وليس إقحاماً لها في غير موضعه؛ ليقال عنها كلام يمكن أن يقوله الشاعر في غير هذا المكان»[1].

وننتقل إلي الكتاب الثاني حيث يقول محمد سمك: «وذكريات امرئ القيس وإطلاله وظعائنه وليدة دفع عاطفي، كان يحن فيها إلي أمسه ويشتاق إليه ويرجوه أن يعود من جديد. وهي عواطف رغم بيئتها المحدودة، ومع تكرار بعض صورها ذات ملامح إنسانية عميقة، لا نكاد نلم بها ونفهمها؛ حتى نقف عندها .... ولا نكاد نقف عندها ونتأملها حتى نتجاوب معها ونفكر فيها ... ثم تتحول لدينا إلي واقع مجسّم نتصوره ونعايش صاحبه، ونلتقي معه، ونشاركه مشاركة وجدانية، نفرح له، ونأسو عليه؛ لأنه يعبر عن لون من الفراق، كلنا نعيشه في صوره المختلفة، فالموت فراق الحياة، والفقر فراق الغني، والمرض فراق العافية، والشقاء فراق السعادة، والغربة فراق الوطن، والرحيل فراق الأهل والأحبة ... والعالم في حركته اليومية

---

(١) الطاهر مكي (الكتاب الأول) صـــ ١٧٧.

الزمنية زاخر بألوان من المفارقات، والليالي حبالي يلدن كل عجيب ... وقد يضيق المرء ببعض الأسماء والألفاظ؛ إذ تثقل علي أذنه، ولا يصيخ لها سمعه، ويضطرب معها لسانه؛ فإذا تجاوزها إلي ما هو سهل وموسيقي ومفيد تخلت عنه الوحشة التي يحسها، وترسبت في وجدانه تجربة الشاعر، فيمد ذاكرته وفكره إلي شعر هذا الشاعر يغترف منه؛ للتعبير عن مشاعره الخاصة وتصويرها إذا لم يكن قادراً علي إبرازها في الشكل الذي يوده.

والمرأة في جانبها النفسي وواقعها المعنوي أكثر وضوحاً في شعر الأطلال منها في شعر الغزل عند امرئ القيس؛ لأنه في مقدماته الطللية، لا يلاحق المرأة كيانا مادياً حسياً يصف دقائقه فحسب، وإنما يعرض لها معني إنسانيا يأسي لفراقها ويحزن لرحيلها، وتمتلئ عينه بالدموع لما تهيجه الذكري عند تذكر تلك الأيام الخوالي التي نعم فيها بصاحبته، وهذه اللحظات السعيدة التي قضاها معها، وقلما يتجاوز امرؤ القيس ذلك التصوير العاطفي أو يتخلي عنه ... فإذا فعل فلكي يقول عنها: إنها طيبة الرائحة، موشاة الثياب ... والحديث عن المرأة في مقدمة القصيدة أمر طبيعي؛ يقتضيه صدق الانفعال العاطفي، واكتمال الصورة الذهنية، وإبراز الحالة النفسية ... وليست المقدمة وما تتناوله من الحديث عن الخليلات والصواحب بإقحام لها في غير موضع حتى يمكن أن يقال عنها إنها كلام، مجرد كلام، يمكن الشاعر أن يقوله في غير هذا المكان ...»[١].

لقد ظهر من هذا النص الطويل أن صاحب الكتاب الثاني وهو محمد سمك ينقل عن الطاهر مكي مؤلف الكتاب الأول مع إضافة بعض الكلمات وتغيير طفيف في بعض الجمل بصورة لا يخفي معها الاتفاق بين الكتابين في موضوع (الأطلال)، وفي موضوعات أخري. ويستحيل أن يكون هذا استشهاداً، لعدم وجود علامات التنصيص واسم المرجع، ولعدم الاتفاق التام بين النصين، كما يستحيل أن

(١) محمد سمك (الكتاب الثاني) صـ ٣٢٣، صـ ٣٢٤، صـ ٣٢٥.

يكون هذا توارد خواطر إذ لا يمكن أن تتوافق الخواطر، إلي هذا الحد، بل هو شيء آخر يعرفه كل من حمل القلم وفكّ الخط.

٦. الشيء الوحيد الذي يختلف فيه الكتابان حول موضوع الأطلال هو أن مؤلف الكتاب الأول قد رأي أن المقدمة الطللية يمكن أن تفسر بشيء اسمه الحنين إلي الأوطان، بينما تقوم هذه المقدمة في الكتاب الثاني علي أنها جزء غزلي يلهب المشاعر.

٧. إنني أتحامل علي نفسي، وأقلق من هذا الوضع المخزي، وأعلم أن القارئ ربما يشعر بالملل، إذ من الممكن الاكتفاء بما ذكرت في التدليل علي ما رأيت، ولكن الأمانة العلمية تقتضي أن نذكر بعض النقول الأخري من الكتابين ليتضح –بصورة أكمل– حجم المأساة.

ثانياً: لقد عقد الدكتور مكي فصلاً عن عاشق المرأة، وسبق أن تحدثنا عن النقل الذي مارسه محمد سمك من كتاب الدكتور مكي، ونؤكد هنا أن معظم ما قاله مؤلف الكتاب الثاني حول غزل امرئ القيس وعشقه للمرأة، والذي قدمه في عدة مواضع من كتابه ليس له، ولم يقم فيه إلا بالنقل، وإضافة بعض الكلمات إلي ما نقله، وضمه إلي كتابه.

قال الدكتور مكي مؤلف الكتاب الأول، متحدثاً عن دور المرأة في شعر امرئ القيس:

«واحتلت المرأة في شعر امرئ القيس مكاناً أهم مما احتلته عند أي شاعر جاهلي آخر، وعلي نحو تفرد به، فيعرض لها في ألوان ثلاثة: متذكراً ومتأملاً وماجناً، في الأولي يأسي علي أيامه الخوالي معها، ويكوّن هذا الجانب جزءاً من مقدماته الطللية، ومعها درسناه. وفي الثانية تناولها مخلوقاً جميلاً رقيقاً، يصفه، ويستغرق في وصفه، وفي الثالثة جعلها مناط مغامراته »[١].

(١) الطاهر مكي (الكتاب الأول) صـــ ٨٢٠.

وقال مؤلف الكتاب الثاني: «إن المرأة احتلت في شعر امرئ القيس مكاناً مرموقاً بارزاً أهم مما احتلته عند أي شاعر جاهلي آخر، وعلي نحو تفرد به ... وقد تعرض لها في مواقف ثلاثة: متذكراً، ومتأملاً وماجناً ... وهو في الموقف الأول يبكي الأطلال والدّمن، ويأسي علي أيامه الخوالي معها، وفي الموقف الثاني يتناولها مخلوقة جميلة ساحرة فاتنة رقيقة يصفها، ويتحدث عن جمالها، ويستغرق في وصف محاسنها الجسدية ... وفي موقفه الثالث جعلها مناط مغامراته»(١).

ولعلنا قد لاحظنا الاتفاق بين النصين من غير أن يشير مؤلف الكتاب الثاني إلي الكتاب الأول مكتفياً بإضافة بعض الكلمات، وتغيير في بعضها، وقد جاء ذلك بصورة مكشوفة يسهل رصدها والتعرف عليها من قبل القراء والباحثين.

وإذا كان النموذج المذكور في هذا الموضع قصيراً لا يقتنع به البعض في إثبات النقل فإنني أورد نموذجاً آخر؛ حتى تتضح أبعاد هذه القضية، وتتمحي عنها حكاية الاقتباس وما يسمي بتوارد الخواطر.

قال الدكتور مكي عن نساء امرئ القيس: «ونساء امرئ القيس لسن طرازاً واحداً في أخلاقهن ففاطمة متدللة مغرورة، وليلي ناسية ناكرة، وعنيزة متمنعة مستحيية، وأسماء حوّل قلّب، وسلمي غِرّة نافرة، وماوية خبيثة ماكرة، وهِرٌ لعوب مستجيبة، ورقاش معترضة باذلة، وأخريات كثيرات لا يذكر أسماءهن، فيهن الساخطة المحتجبة، والساذجة العاقلة، والخائفة المتكبرة، ومن تقصر حبها علي رجل، ومن تهب نفسها للناس جميعاً، وصوّرَها رقيقة الحديث، هامسة الحوار، تلذ معه؛ حتى يغشي عليها فما تستطيع قياماً إلا متكئة علي ساعده، وهناك من لها قوم يغارون عليها، ويلاحقون امرأ القيس إذا ألمّ بحيهم، ولو استطاعوا قتلوه، ومن لا يمثل زوجها ثقلاً في البادية، من العسفاء أو الرقيق أو غمار الناس، يأتيها امرؤ القيس، ولا يقيم لزوجها وزناً، وهناك الحامل والمرضع، والشابة الفتية، والصبية المراهقة، والحرة والجارية، وبائعة الهوى ليس من حرج في أن يلم بدارها، وإنما

(٢) محمد سمك (الكتاب الثاني) صـــ ١٥٣.

الحرج كله فيما يصيب المرء بعدها من تهلكة، جاء ذلك في شعره، عَرَضاً ومتناثراً، ولكل امرأة صفة لا تتجاوزها، أما نصيب المرأة الواحدة من مشاعر متباينة حين ترضي أو تغضب، أو تسر أو تحزن، وحين تخلص وتفي، أو تتنكر وتخون، فلا يعرض له، وهو يغفل تماماً الحديث عن عقل المرأة وفضائلها النفسية وجمالها غير المرئى»[1].

وقد أخذ محمد سمك كل هذا الكلام السابق (وغيّره)، ونقله إلي كتابه فقال: «وصواحب امرئ القيس لسن طرازاً واحدا في أخلاقهن، ففاطمة متدللة مغرورة، وليلي ناسية متجاهلة ناكرة، وعنيزة متمنعة مستحيية، وأسماء حُوّل قلبٌ، وسلمي غِرة نافرة، وماوية خبيثة ماكرة، وهر لعوب راغبة ورقاش معترضة باذلة ... وثم معشوقات أخريات يتحدث عنهن ... وقد لا يذكر أسماءهن، فيهن الساخطة المتأبية، والساذجة الغِرّة، والعاقلة المستأنيه، والوجلة المتكبرة، والقاصرة حبها علي رجل واحد، والباذلة نفسها لكثير من الرجال ... وفيهن من هي رقيقة الحديث، هامسة الحوار، تسعد معه حتى يغشي عليها من حساسية الموقف، فما تستطيع قياماً إلا متكئة علي ساعده ... وفيهن من لها قوم يغارون عليها، ويحرصون علي قتله إذا ألمّ بحيهم ... ومنهن من يأتيها ليلاً، ويدب إليها دبيباً متغفلاً أحراسها وغير عابئ بزوجها ... وهناك الحامل والمرضع والشابة الفتية والحرة والجارية، وبائعة الهوى لكل من يلم بدارها، والويل كل الويل لمن يحل عندها .... ولكل امرأة من معشوقاته صفة لا تتجاوزها عنده، وهو لا يعرض بالبيان عند مدي نصيب المرأة الواحدة من هؤلاء المعشوقات الكثيرات ومقدار ما لديها من مشاعر، وما عنده من أحاسيس؛ حين ترضي أو تغضب، أو تسر أو تحزن، وحين نخلص أو تخون، وحين تفي أو تتنكر ... وهو لا يتعرض كذلك في غزله للحديث عن عقل معشوقاته، وفضائلهن النفسية، وجمالهن الروحي غير المرئي»[2].

---

(١) الطاهر مكي (الكتاب الأول) صـــ ١٩٤.

(١) محمد سمك (الكتاب الثاني) صـــ ١٧٤، صـــ ١٧٥.

إن القارئ يستطيع أن يتبين بيسر هذا التوافق الذي يفسر بشيء واحد فقط شيء معروف لمن يحمل القلم، ويسود الصفحات ولا يستطيع مؤلف الكتاب الثاني أن يقول إنه توارد خواطر؛ لأن المكتوب ليس شرحاً لبيت من الشعر يشترك الناس في معرفة معناه، ولا يستطيع أن يقول إنه استشهاد غير محدد المرجع؛ لأن النقل يعني التوافق التام في كل كلمة، وهو هنا ليس كذلك.

ثالثاً: لم يقتصر ما قام به محمد سمك من نقل علي ما سبق ذكره من موضوعات، وإنما امتد ليشمل فصولاً أخري من كتاب الدكتور مكي، منها الفصل الذي عقده لبحث الطبيعة في شعر امرئ القيس، وقد جعل الدكتور الطاهر مكي حديثه عنها ذا شقين أحدهما للطبيعة المتحركة، وثانيهما للطبيعة الصامتة، وكشف عن إعجاب امرئ القيس بالفرس كأهم عنصر متحرك للطبيعة في شعره، وأبان عن حب الشاعر لهذا الحيوان المتميز في عالم الصحراء، وقال في بيانه للطبيعة الصامتة: «نعني بالطبيعة الصامتة ما ينتظم مظاهر الكون من سماء وأفلاك ونجوم وكواكب وسحب وأمطار، ورعد وبرق ....» [(١)]، وقد نقل مؤلف الكتاب الثاني هذا التعريف إلي كتابه مع تلاعب بسيط بالألفاظ[(٢)].

ونؤكد أن السطو قد امتد إلي الشواهد الشعرية أيضاً، وإن انحصر جهد الأستاذ سمك في تقديم نموذج علي آخر، أو علي حذف بيت وإضافة آخر؛ لتكون علي غير، الصورة التي جاءت بها في كتاب الطاهر المكي؛ حتى ينبهم الأمر علي القارئ. وبت أتساءل: كيف وقع هذا منذ ما يقرب من خمسة عشر عاماً، ولم يلتفت إليه أحد؟ وربما يقال إن النماذج الشعرية موجود بالديوان، وهي ملك لكل باحث، وأكثر الكتب التي تحدثت عن شعر امرئ القيس قد تكررت الشواهد الشعرية فيما بينها، ونقول: نعم، إن هذا صحيح، ولكن إيراز الشواهد متساوية (غالباً) في الأبيات المختارة، وإيراد شرحها متقارب أيضاً بين الكتابين، مما يؤكد أن الشواهد قد نقلت

(١) الطاهر مكي (الكتاب الأول) صـــ ٢٣٠.
(٢) انظر الكتاب الثاني صـــ ٣٤٣.

أيضاً مع شرحها إلي الكتاب الثاني، وإن قام الأستاذ سمك ببعض التصرف البسيط كحذف بيت وإضافة آخر مما جاء بالكتاب الأول، أو تقديم نموذج وتأخير آخر؛ حتى يظهر الأمر علي أنه توارد خواطر وهو ليس كذلك.

لقد ذكر الطاهر مكي مؤلف الكتاب الأول نموذجاً شعرياً رواه الأصمعي يصف فيه امرأ القيس أشهر الرماة في عصره وهو عمرو بن المسبّح الطائي من بني ثُعَل، ثم شرحه فقال: «يصف امرؤ القيس عمراً بأنه صياد ماهر من بني ثعل يصيد الوحش، مختالاً يكمن في القتر كي لا يفطن له السيد فينفر منه، أعد قوساً مائلة الجوانب ليرمي بها، لا ينحني علي الوتر عند الرمي، وحين ترد الوحش عليه يضع الرمي قبالة وجهه وجبهته، حتى إذا اطمأنت قريباً من الماء رماها في فرائصها، وأصاب مقاتلها، بسهم استله من كنانته، يتوهج حِدَّةً وبريقاً كجمر مشتعل، جعل له ريش طائر، وأرقه وحدده، فسقطت مكانها لا تستطيع حراكاً. ياله من صياد ماهر، إذا عد قومه فلا وجد فيهم! صياد مطهم، لا يكاد سهمه يخطئ، ليس له حرفة يكتسب منها غير الرماية علي كبر سنه»[1].

وقد ذكر محمد سمك الأبيات كما جاءت بالكتاب الأول، بدون اختلاف في كلمة واحدة علماً بأن أكثر القصائد والمقطوعات في ديوان امرئ القيس قد جاءت بعدة روايات، تختلف كل منها عن الأخرى في بعض الكلمات، وفي عدد الأبيات، أو في ترتيبها ونقل الشرح من الكتاب الأول، وإن أضاف إلي ما نقل بعض الكلمات، التي لا تؤثر في المعني، وقد كشف عن معني الأبيات التي وصف بها امرؤ القيس الصياد فقال: «يصفه امرؤ القيس (أي يصف عمراً) بأنه صياد ماهر يعيد الوحش مختالاً، يكمن في القُتر – وهي بيوت الصائدين التي يكمنون فيها للوحش؛ لئلا يراهم فينفر منهم– وقد أعد قوساً مائلة الجوانب ليرمي بها ... إنه لا ينحني علي الوتر عند الرمي ... »

(١) الكتاب الأول صـــ ٢٢٤

وحين ترد الوحوش عليه، يضع ما يريد صيده منها قبالة وجهه وجبهته؛ حتى إذا أصبح الصيد قريباً من الماء مطمئناً، رماه في فرائصه، وأصاب مقاتله، بسهم من كنانته ... إنه سهم يتوهج حِدَّةً وبريقاً كجمر مشتعل، جعل له ريش طائر، وأرقه وحدده، يسقط ما يصطاد به مكانه ولا يستطيع حراكاً، ياله من صياد ماهر!! إذا عد قومه فلا مثيل له فيهم ... إنه صياد محترف، لا يكاد سهمه يخطئ، ليس له وسيلة يكتسب منها عيشة وطعامه غير الرماية والصيد، على كبر سنه»[1].

وقد ذكر الدكتور مكي نموذجاً شعرياً لامرئ القيس يتحدث فيه عن حمار الوحش وكلاب الصيد، وأوله:

كأني ورَحْلي فوقَ أحقبَ قادحٍ *** بشربةَ أو طاوٍ بعرنانَ مُوجس

تعشّ قليلاً ثم أنحى ظلوفَه *** يثير التراب عن مبيت ومَكْنسِ

وذكر ما مجموعة أحد عشر بيتاً، ثم كشف عن معناها فقال: «إنه حمار قارح، خميص البطن، قبالة عين ماء، أو على جبل متباعد الأنحاء يمرح في «شَرَبَة» نشيطاً، ويتحرك في (عرنان) حذراً متوجساً، تعشي قليلاً، وجمع أظلافه يحفر بها مسكناً يبيت فيه، وكناساً يأوي إليه ...»[2] إلى آخر الشرح.

ونقل مؤلف الكتاب الثاني هذا الشرح: بتمامه إلى كتابه بعد أن نقل الأبيات أيضاً، وقال في الشرح: «... إنه حمار قارح، خميص البطن، قبالة عين ماء، أو على جبل متباعد الأنحاء يمرح في (شَرْبهِ) نشطاً، ويتحرك في (عرنان)حذراً متوجساً، تعشي عشاء قليلاً، ثم جمع أظلافه يحفر بها مسكناً ليبيت فيه، وكناساً يأوي إليه ...»[3] إلى آخر الشرح.

(١) الكتاب الثاني صـ ٣٧٣، صـ ٣٧٤
(٢) الطاهر مكي صـ ٢٥٥.
(٣) محمد سمك صـ ٣٧٥.

ولولا خوف الإطالة لذكرت الشرح كله في الكتابين، ولازلت أتساؤل: هل يمكن أن يصل الاتفاق بين الشرحين إلي هذا الحد؟ وللقارئ أن يراجع النصين السابقين بتمامهما في صفحات الكتابين؛ حتى يتأكد أن ما قرأه ليس إلا شرحاً واحداً في موضعين.

لقد ذكر الدكتور مكي في نهاية حديثه عن الطبيعة المتحركة خاتمة نقدية حدد فيها رؤيته عن مظاهرها في شعر امرئ القيس، فقال: «ذلك هو امرؤ القيس مع الطبيعة المتحركة، ومن غير معاناة ندرك أن مظهرين منها كانا مناط إعجابه، وموضع إعزازه، الخيل والصيد... وما جاء عبرهما فضرورة اقتضتها طبيعة التصوير، أو جاء بها التزام الواقع ......» [1].

وقال الأستاذ محمد سمك – أو بمعني أصح– نقل عن الطاهر مكي فقال: «ذلك هو امرؤ القيس مع الطبيعة المتحركة، ومن غير معاناة ندرك أن مظهرين منها كانا مناط إعجابه، وموضع إعزازه واهتمامه .. الخيل والصيد ... وكل ما جاء به معهما من الموضوعات الأخرى فضرورة اقتضاها العمل الفني، واستلزمتها طبيعة التصوير والأمر الواقع ...» [2].

كما امتد النقل إلي الشق الثاني الذي عقد في الكتابين للحديث عن الطبيعة الصامتة.

رابعاً: لقد تواصلت النقول، وامتد السطو إلي ما كتبه الدكتور مكي عن هموم الشاعر، ولبيان ذلك نذكر ما يلي:

اختار الدكتور مكي عدداً من الأبيات التي تضمها المعلقة، والتي تصور أحزان الشاعر وهمومه، وأولها:

وليل كموجِ البحرِ أرخي سدولَه *** عليّ بأنواع الهموم ليبتلِي

ثم تحدث عن مضمون هذه الأبيات، ووازن بينها وبين أبيات للنابغة الذُبياني في تصوير همومه وأحزانه، وسوف نري التقارب المريب بين الكتابين حول هذا

---

(١) الطاهر مكي صـ ٢٢٧، وانظر تكملة النقد في الكتاب نفسه صـ ٢٢٨، صـ ٢٢٩.
(٢) محمد سمك صـ ٣٧٦ وما بعدها.

الموضوع، إذ تابع مؤلف الكتاب الثاني ما ذكره الدكتور مكي، بدءاً من الأبيات وشرحها، ثم ما جاء بعدها من موازنة بين الشاعرين.

وقد ذكر الكتابان لونين من القلق أو الهم يعرض لهما امرؤ القيس، أولهما القلق الذي يعانيه كفنان، وما يعرض له من غرابة الأطوار، وتنون اللمحات، وثانيهما همٌّ مصدره تناقض الحياة أمامه، واختلافها عليه، وفشله في تحقيق مطامحه واستعادة ملكه! وهو هنا يتفق مع المتنبي شاعر العربية الأكبر إلي حد كبير (١).

ونأتي إلي آخر هذا الفصل بكلا الكتابين حيث قال مؤلف الكتاب الأول عن امرئ القيس: «وهو يُفرقٌ في ذكاء بين الصاحب يلقاه عرضاً، ويختلفان سريعاً، تجمع بينهما المنفعة، وتفرق بينهما المصالح، ومثل هذا الطراز من الناس يضعه موضع التجربة، قبل أن يجعله مناط الثقة، وكأمير وملك قبل أن يكون شاعراً فإن الذين التفوا، أو يحاولون أن يلتفوا به، هم – كالعادة– من أراذل الناس، وما من حاكم أو طاغية إلا ابتلي بهذه البطانة، تفسر عليه من أمره وتزين له رذائله، وتقيم بينه وبين الصالح حجاباً، وأول فتنة في الإسلام علي أيام عثمان، ويحفظ التاريخ أصولها كاملة كان مبعثها بطائن السوء، لكن امرأ القيس كان فناناً وذكياً فتخلي عنهم واحداً وراء آخر، وتبيَّنَ أخلاقهم صاحباً إثر صاحب، وهو يسميهم أصحاباً فحسب، ويعتبر تنكرهم له خيانة، ويري في أشخاصهم لوناً قائماً من نفاق المجتمع وزيفه، فتأتي أبياته طافحة بالألم والمرارة. أما الذين أخلصوا له مودتهم، وأصبحوا أخلاّءه، ثم تجافوا فسلك كل طريقه، فيعرض لهم مترفقاً، ويعتذر عنهم، ولا يبكي ذهابهم تماسكاً؛ لأن كل ما في الحياة إلي فراق» (٢).

ونأتي إلي الكتاب الثاني فنري مؤلفه قد نقل هذه القطعة من بين ما نقل عن الكتاب الأول، وإن بدا الزيف أو التلاعب علي أتم وجه، حيث انكشفت طريقة السطو التي مارسها مؤلف الكتاب الثاني، وسوف أورد ما سجله في كتابه حول

---

(١) انظر الكتاب الأول (مكي) صـ ٢٤٠، صـ ٢٤١وانظر الكتاب الثاني صـ ٣٩٦، صـ ٣٩٧.

(٢) الطاهر مكي: صـ ٢٤١.

نوعين من الأصدقاء غرض لهما الشاعر، وفرق بينهما الأستاذ سمك من خلال السطو علي كتاب الطاهر مكي، قال: «وهو بألمعيته وذكائه يفرق بين الصاحب المخلص الوفي، الذي لا يتغير ولا يتلون، وبين الصاحب الذي يلقاه عرضاً، ما يلبثا(١) أن يختلفا سريعاً ... تجمعهما المنفعة، وتفرق بينهما الأهواء والمصالح الشخصية ... ومثل هذا الطراز يضعه في موضع التجربة، قبل أن يجعله مناط الثقة، ويتخذه صديقا حميماً وهو كأمير وملك – قبل أن يكون شاعراً فناناً – فإن الذين التفوا به أو حاولوا أن يلتفوا به، هم كالعادة من أراذل الناس في غالب الأحوال .. وما من حاكم أو أمير إلا ابتلي بهذه البطانة؛ التي تفسد عليه أمره، وتزين له رذائله، وتقيم بينه وبين الحق والعدل والصدق حجاباً مستوراً ... ولكن امرأ القيس فنان ذكي موهوب إستقرى أحوالهم، واكتشف خصالهم، وتبين أخلاقهم، فتخلي عنهم واحداً علي إثر واحد، وهو يسميهم أصحاباً من باب التجوز فحسب، ويعتبر تنكرهم له خيانة، ويري في أشخاصهم لوناً قائماً من نفاق المجتمع وزيفه، فتأتي أبياته فيهم طافحة بالمرارة والألم، أما الذين أخلصوا له مودتهم، وصافوه محبتهم، وأصبحوا أخلاءه، ثم انصرفوا عنه لأمر مريب، فسلك كل طريقة، واتخذ سبيله، فإنه يعرض لهم مترفقاً، يعتذر عنهم، ولا يبكي ذهابهم متماسكاً متجلداً، فكل ما في الحياة إلي فراق وزوال» (٢).

ونؤكد في نهاية هذه المتابعة أن الأستاذ محمد صالح سمك قد سبق الكثيرين إلي تأليف كتاب عن امرئ القيس، وأنه قام بجهد كبير لتأليف هذا الكتاب عندما كان طالباً جامعياً، وإن انحصر أكثر جهده علي جمع الروايات والأخبار والتأليف بينها في إخراج الكتاب لأول مرة، ثم غاب كتابه مدة طويلة عن أيدي القراء وقد وجد الشهرة تنهال علي كتاب ألفه الدكتور الطاهر أحمد مكي عام ١٩٦٨م فنقل أكثر ما كتبه عن شعر

---

(١) الصواب: «ما يلبثان»
(٢) محمد سمك صـ ٣٩٧، صـ ٣٩٨.

امرئ القيس، وصنع منها فصولاً جديدة لم يسبق له أن تحدث عنها، وتصرف فيما نقل بين التقويم والتأخير في الشواهد الشعرية وشرحها والتعليق عليها.

واعتمد أيضاً علي كتاب الطاهر مكي في النقول النقدية، التي تؤخذ من كتب القدماء وما يعقبها من تعليق وموازنة ونقد، ولذا استحق كتابه (أمير الشعر في العصر القديم) في طبعته الثانية أن يكون متأخراً في زمن تأليفه عن كتاب الدكتور مكي. كما أننا لا نقول بأن الأستاذ سمك قد نقل كل كتابه في طبعته الثانية من الكتاب الأول، إذ اقتصر معظم النقل علي الفصول التي تحدث فيها عن شعر امرئ القيس، أماّ ما يتعلق بحياة الشاعر فإنه من الأمور العامة التي يصعب ضبطها وبيان السرقة فيها.

ونتساءل: إلي متى سيستمر هذا السطو علي مؤلفات الآخرين؟ ومتى تتوقف هذه السرقات العلمية والأدبية؛ ولماذا لم يتعرف الدكتور مكي علي هذا السطو، وهو مؤلف شهير، وباحث جامعي قدير؛ ألم يكن من المتوقع أن يرصد هذه النقول، ويكشف هذه الإغارة منذ سنوات، وإذا لم يقم واحد مثله برصد هذا السطو فمن يقول به غيره؛ ولكن الحقيقة لن تغيب أبداً، وسوف يأتي اليوم الذي تتكشف فيه مؤامرة كل من أغار وسطا علي مؤلفات الآخرين...

****

٤. ضوابط الحوار الإسلامي(*)

أولاً: توطئة:

تأتي أهمية الدعوة إلي الحوار الإسلامي في ظل الاشتباك المعرفي، والتنوع الثقافي بالعديد من الدول، حول الكثير من القضايا، التي تحتاج إلي نبذ الخلافات، والتقريب بين الآراء والتوجهات، والتحول بالموضوعات والمذاهب من التأصيل والتأسيس إلي التفعيل والتنفيذ لكل المتاحات من الأفكار الإسلامية، التي كثر الجدل والنقاش فيها، دون الوصول إلي نتائج إيجابية ذات تأثير بارز في محيط المجتمع الإسلامي، الذي ينوء بهموم ثقال في حاجة إلي حسم واتفاق، وانتهاء بالدعوة إلي الشراكة في صناعة النظام الدولي، الذي تعد العولمة إحدى رسائله ووسائله، ومنتجاته وتوصياته إلي سائر مكونات الأمة العربية والإسلامية.

والحوار: كما في المعجم الوسيط حديث يجري بين شخصين أو أكثر في العمل القصصي، أو بين ممثلين أو أكثر علي المسرح، ذلك الشأن الذي يتجلي في الأعمال الإبداعية والفكرية، ولكنه في حقيقة التطبيق يتجاوز ذلك إلي معني أبعد، ذكرته المعاجم اللغوية أيضا، إذ أفادت أن معني (تحاوروا): أي تراجعوا الكلام بينهم – وتجادلوا، وهذا ما ذكره القرآن الكريم في حق خُويلة بنت ثعلبة زوج أوس بن الصامت في قضية الظهار.

(*) جزء من بحث مقدم إلي المؤتمر العلمي بكلية الشريعة– جامعة جرش الأهلية بالأردن، خلال شهر ذي القعدة ١٤٢٩هـ، نوفمبر (تشرين الثاني) ٢٠٠٨م، والموضوع ضمن بحوث المحور الثاني بالمؤتمر، وعنوانه: ضوابط الحوار الإسلامي، وقد تم نشره في مجلة الأزهر عدد صفر ١٤٣١هـ– جـ٢ السنة الثالثة والثمانون.

قال تعالي: ﴿ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾[1] أي أن مصطلح الحوار ذو أبعاد متعددة، فمنه المجادلة بين طرفين، والمحاورة حول الأفكار، وتبادل الحديث مع فرد أو مجموعة من الأفراد.

وقد يغلب علي مصطلح الجدال توجيهه إلي اللجاجة والخصومة، والرغبة في الانتصار علي الآخر، وهذا المصطلح قد ورد في القرآن الكريم بعدة اشتقاقات، ذات دلالات غير متباعدة في إطار هذا المضمون قال تعالي: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[2] وقال تعالي: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾[3].

ويطلق الحوار علي ما يدور بين طرفين أو جماعتين بينهما اختلاف في العقيدة الدينية، أو المذهب السياسي أو الفكر الاقتصادي، وغير ذلك من التوجهات التي يموج بها المجتمع المعاصر.

وقد ورد مصطلح الحوار في موضعين بسورة الكهف إلي جانب ما سبق ذكره في أول سورة المجادلة، قال تعالي: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾[4] وقال تعالي: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾[5].

والحوار في معظم أحواله يشكل حالة علمية راقية تستند إلي كثير من الثقافات والمعارف، سواء أكانت نابعة من أعماق التاريخ الصادق، أو مستقاة من

---

(١) سورة المجادلة: الآية رقم ١.
(٢) سورة الكهف: الآية رقم ٥٤.
(٣) سورة الحج: الآية ٨ وسورة لقمان: الآية ٢٠.
(٤) الكهف (٣٤).
(٥) الكهف (٣٧).

صحيح التشريع الإسلامي، أي أنه يستمد قوته وحركته من الثوابت الراسخة، مادامت مقدماته خاضعة للضوابط، التي تسفر في غالب الأمر عن نتائج أكثر صدقاً، واقتناعاً وشمولية وعمقاً.

ولا يتوقف الحوار علي الكلام والنقاش المسموع، وإنما يتحول إلي الاستعانة بوسيلة الكتابة أو غيرها؛ توظيفاً لفنون اللغة العربية، وما صار مفعلاً في الواقع من خلال شبكة المعلومات الدولية "الإنترنت".

ترجع الاختلافات التي أقرت الشريعة الإسلامية بها في دوائر الحياة المتنوعة إلي أسباب عديدة، لسنا بصدد حصرها، والتوسع في بيان أسبابها قديماً وحديثاً، لكن مع الإقرار بوجود هذه الاختلافات لا ينبغي تحويلها إلي خلافات حادة تسفر عن تمزيق الأمة، وقطع أواصر الصلات الكاملة بين أفرادها، وينبغي حصارها، وغلق السبل إليها، قال تعالي: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[١].

وهذا ما نبه الرسولﷺ إلي خطورته فقال: «لا تختلفوا فتختلف قلوبكم»[٢].

إن الراصد لخصائص المنهج الإسلامي في التعامل مع الآخرين من بداية البعثة المحمدية يشهد الاعتماد في غالب الأحوال – إن لم يكن في مجموعها– علي النقاش الهادف، والحوار المثمر، والتناظر الإيجابي، وإبداء الآراء المتعددة، بهدف الوصول إلي الأصوب، الذي يبقي رأياً عاماً ملزماً لسائر الأطراف للتطبيق والتنفيذ والالتزام.

(١) هود (١١٨، ١١٩).
(٢) رواه البخاري.

يشهد التاريخ الإسلامي بنمو الدعوة المحمدية من خلال الحوار الهادف، الذي قاد مسيرة الأمة في الانفتاح علي الآخرين، والتعرف علي حضاراتهم، مما أسهم في صناعة رؤية إسلامية شاملة، نبعت من الماضي، واتسعت في الحاضر، وصارت مشروعاً وأملاً لرسالة الإسلام في المستقبل.

ولقد صارت الأمة الإسلامية في حاجة إلي إعادة صياغة حوارها مع نفسها أولاً، ثم مع الآخرين ثانياً، بمعني حتمية إصلاح البيت من الداخل كما يقولون، إذ تنتابه تشققات ونتوءات تحتاج كلها إلي "ترميم" شامل يحتوي الأسس والقواعد، والأسلوب والمصطلح، واللغة التي لابد أن ترقي إلي مستوي الحوار (النموذج) الذي شهدناه في التراث الإسلامي، فضلاً عن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

إن الحوار لغة الزمن كله ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، لرأب الصدع في الخلافات التي تعاني منها الأمة مثل الاختلافات بين المسلمين من شيعة وسنة، ومذاهب فقهية من شافعية وحنفية وغيرها، وخلاف علي الموقف مع الآخر، فلم يستطيع المسلمون مثلاً أن يحسموا موقفهم، ويحددوا متطلباتهم في الإساءات المتكررة إلي الإسلام ورسوله ﷺ، إذ أن لعبة السياسة تمزق العرب والمسلمين إلي شيع وأحزاب، تتقاتل فيما بينها بأكثر مما تتقاتل مع الآخرين، وبات الحوار بين العرب والعرب – بخاصة– غير مثمر بالدرجة الكافية، ولهذا وجبت العناية بصياغة المشروع الإسلامي، الذي تحل فيه الكلمات الراقية بدلاً من العبارات الخارجة التي تفسد أكثر مما تصلح.

ففي ظل الحوار ينبغي الخضوع أولاً للموضوعية، ومراعاة أدب النقاش، خاصة فيما يتصل بقضايا الفكر والتشريع، ثم تأتي بعدها الأمور التي تحتاج إلي اتفاق وحسم، في نطاقات السياسة والاقتصاد، والدفاع عن الوطن، وقضايا الملحة، كمشكلة فلسطين التي تؤرق أصحاب الضمائر الحية.

وتظهر كثير من التناقضات بين الغني والفقر، والبَطر والبؤس، والترف والحرمان، وفي أشياء أخري تفوق الحصر والاستيعاب.

وتبقي قضية التطرف والميل إلي الآراء المتشددة، وإغفال التيسير في العبادات والمعاملات في حاجة إلي حوارات إيجابية شجاعة، تستند إلي القرآن والسنة، من أجل تصحيح المسارات، وتقديم الصور المضيئة للدين الإسلامي، الذي صار الآن محلاً للاتهامات من الخصوم والأعداء في الشرق والغرب علي السواء.

وينبغي أن يكون الاحتكام إلي الحوار الهادف، تقديراً ومراعاة لأدب الاختلاف، الذي يتحتم أن يكون نابعاً من الكتاب والسنة، قال تعالي: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾[1].

وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[2].

وفي ظلال هذا البيان ينبغي أن يقف الاختلاف عند خطوط فاصلة، أو سدود حاجزة، احتراماً وتقديراً للضوابط والأسس، التي تواترت عليها الدلالات الشرعية الصحيحة.

(١) سورة الشورى: الآية رقم ١٠.
(٢) سورة الأحزاب: الآية رقم ٣٦.

ثانياً: أهم الضوابط للحوار الإسلامي:

إن ضوابط الحوار بين المسلمين متعددة، وذات أهمية كبيرة؛ للوصول إلي نتائج حاسمة، وتمثل حداً لا بأس به في إجراءات التقارب بين المتحاورين، خاصة أن متطلبات العصر الراهن تجعل السعي إلي الحوار مطلباً، وهدفاً إسلامياً في قضايا شائكة كثر الجدال فيها، دون تحقيق نتائج مقبولة من الاقتناع الشمولي بالمجتمع الدولي.

إن الاختلاف في ماضي الأمة، وحاضرها، وإجراء الحوار في ذلك يجب أن يكون خاضعاً لكثير من الضوابط، التي سنعرض لبعضها، بحيث لا تصل الأمور إلي التجاوز والتطاول علي الآخرين؛ اعتماداً علي الظاهرة الصوتية، التي تُوصم أو تُرمى بها الأمة من الأقارب والأباعد، وقد صار ذلك في الزمن الحاضر هما وعبئاً ثقيلاً بدت الحاجة مُلحّةً؛ للخلاص منه بتنقية الأفكار؛ والاعتداد في الآراء، وتجاوز مخاطر الخلاف، الذي بات شراً وبيلاً علي الأمة في صراعاتها مع الآخرين، الذين يسيئون إليها، ويحاولون النيل منها؛ اعتماداً علي دوافع كامنة متعددة الأسباب، أو أن نغفل عن المخاطر، ولا نحسن تقدير المسئولية، في ظلال المجتمع المفتوح المتعدد الهوايا، الذي لا يمكن إتمام شيء فيه دون أن نشهد آثاره وسلبياته معلنة في معظم الأحوال.

ويتجسد الخطر أحياناً في تقليد الآخرين دون وعي أو إدراك، وبلا دليل ولا برهان قال تعالي: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة: الآية رقم ١٧٠.

كما تشتعل جذوه الاختلاف بسبب غياب الرؤية الحقيقية لأبعاد الموضوع، والإلمام بكل جوانبه، تلك هي عشوائية الفكر والدخول في عـراك ثقـافي، دون الاستعداد له بكل الإمكانات المتاحة لمقتضي الحوار، ومستوي التناظر والنقاش.

فمن يقنع المقلدين للآخرين تقليداً أعمي، لا تُرَاعـي فيـه حقـوق الـدين والوطن بخطورة الإسراف الاستهلاكي لكثير من الترف الدنيوي الفاسد المفـسد، والأمثلة كثيرة تتجسد أمامي في صورة الأطفال الصغار الذين يعبثون بلا وعـي بأشياء كثيرة ذات تقنية فنية، وهندسية عالية، وغالية، لكن مقابلها المادي يرحـل إلي الخارج، والأمة في حاجة إلي رغيف الخبز الذي تحتاجه البطون الجائعة في كثير من القرى والأحياء الشعبية، تلك المتناقضات التي تسهم في غيبوبة الأمـة، وضياع هويتها، وتمزق وحدتها، وعدم التفريق بين الـضروريات، والكماليـات، والعبث اللاهي، الذي لا قيمة له عند الأمم المتحضرة، أو الأمم التي لها عبـادات وعادات تحافظ عليها وتبحث عن صيانتها والدفاع عنها.

كل تلك الأمور التي تزيد حدة الخلاف يوماً بعد يوم دون الوصـول إلـي كلمة سواء في أحوال كثيرة.

إن الحياة الإسلامية في واقعنا المعاصر في حاجة إلي المراعـاة الكاملـة لأدب الحوار، والالتزام بالأسس والضوابط، التي عاشت راسـخة فـي أعمـاق المسلمين طوال مسيرتهم الخالدة. ولا يعيب ديننا تلك الخروجات الـشاذة عليـه، التي يتحصن بها، ويدعو إليها كثير من المسلمين، تحت شعار حرية الرأي، دون نظر للآثار الضارة المنبعثة من نار الخلافات، خاصة الأصول التي يحظر الجدل فيها، وتلك قضية شائكة، ينبغي إجراء الحوار الهادئ حولها شكلاً ومضموناً.

ويجب أن يكون الحوار في هذا الشأن وغيره مبنيا علي الصدق في القول، وحسن العرض والاستدلال بالبراهين الصحيحة، وعدم التضليل والتحايل في الطرح الفكري لأن أي نتيجة تتمخض عن مثل هذا الحوار ستكون مخيبة للآمال، كما يجب أن تكون الحجة والرأي المعروض في مظلة المنطق السليم والقول الرشيد.

لقد كتب الدكتور/ محمد سيد طنطاوي عن هذا المعيار الحواري الهام، فقال: "إن الحوار البناء الذي يقصد به الوصول إلي الحق والعدل ومكارم الأخلاق، هو الذي يكون لحمته وسداه الصدق في القول والعفاف في السلوك ....

أما الكذابون والجهلاء والسفهاء وأصحاب الهوى والمصالح الخاصة، والذين امتلأت قلوبهم بالحقد والجبن والغرور ... فهم الذين يجادلون غيرهم بالباطل، ويكابرون بدون دليل، ولا يقيمون دعواهم إلا علي الكذب والغرور والبهتان والزور، ونعوذ بالله تعالي من ذلك"[(١)].

ومن صميم الضوابط في حوار المسلمين مع أنفسهم التزام الموضوعية في مواجهة آراء الآخرين بحيث لا يتحول التناظر والتحاور إلي جدل عقيم، وتشويه أصحاب الآراء، انصرافا عن حسن المواجهة في الرأي الصائب والنقاش الموضوعي وحسن الاستماع.

وقد تجلت هذه الموضوعية بصورة ملحوظة في حوارات الأنبياء مع أقوامهم مثل حوار سيدنا إبراهيم عليه السلام مع الملك الكافر[(٢)]، حيث أدار خليل الرحمن الحديث معه بموضوعية وحجة قوية، لا تقبل الطعن أو التشكيك.

(١) أدب الحوار في الإسلام – د/ محمد سيد طنطاوي- صـ ٢٠.
(٢) هو النمرود بن كنعان.

ويجب إتاحة الفرصة للآخرين للتعبير عن وجهات نظرهم في حرية وهدوء مثل حوارات الشيخين أبي بكر وعمر حول جمع القرآن الكريم، وقتال المرتدين، ومانعي الزكاة وكانت قناعتهما محكومة بالأدلة والبراهين. الصحيحة المستقاة – بكل تأكيد– من القرآن الكريم وأحاديث الرسولﷺ.

وقد تمخضت كل هذه الحوارات عن قوة فعل موجبة، انعكست آثارها علي حركة المد الإسلامي في أرض الواقع، وزيادة العمق الدلالي لبداية عصر ما بعد الرسول ﷺ ولكن هذه الحوارات قد شابتها بعض الشوائب خاصة في نهاية عصر سيدنا عثمان بن عفان ﷺ.

ويجب أن يكون الهدف من الحوار هو الوصول إلي الحقيقة التي يجتمع الناس عليها، متجاوزين حدود الأنانية الحمقاء، وعبادة الذات التي تنظر للآخرين علي أنهم أعداء متربصون بمن يتحاورون معهم، ولذلك يلتقي الناس ويعبرون عن نواياهم الطيبة، دون استعداد لتغيير بعض مواقفهم، فيجتمعون ثم ينصرفون، دون الوصول إلي نتائج حاسمة في معارك الكلمات، وما أكثرها في الدوائر الإسلامية التي تنفتح ثم تنغلق، ولا يسفر الأمر عن شيء مما يسهم في زيادة الشقاق وانحسار الوفاق.

ويلزم أن يكون الحوار مبنياً علي حسن التقدير، وإتاحة الفرص زماناً ومكاناً للوصول إلي الصواب الذي ينبغي التمسك به والحرص عليه، في نطاق التشريع الإسلامي، الذي لا يقبل الجدل أو النزاع.

ويجب الانتقال بالحوار من نطاق وضع النظرية إلي التفعيل الإيجابي لما تم التوصل إليه من وجهات للنظر تكاد تلتقي حولها الأغلبية النشطة، التي تتفرد بالحجة الصائبة، والحقيقة الثابتة.

وقد أشار شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوي إلي بعض الأسس للحوار مع الآخرين وذكر منها التواضع، والتزام أدب الحوار، وإعطاء المُعارِض حقه في التعبير، واحترام الرأي الصحيح، وذكر كلمة جامعة للإمام الشافعي؆ هي: «ما ناظرت أحداً قط فأحببت أن يخطئ. وما كلمت أحداً قط وأنا أبالي أن يظهر اللهِ الحق علي لساني أو علي لسانه. وما أوردت الحق والحجة علي أحد فقبلها مني إلا هبته واعتقدت محبته، ولا كابرني أحد علي الحق إلا سقط من عيني ورفضته. ووددت لو انتفع الناس بعلمي دون أن ينسب إلي منه شيء»(١).

وقد أفاد أبو حامد الغزالي في (إحياء علوم الدين) بخطورة بعض الآفات اللسانية، التي تهدد المناظرة، وتفقد النقاش بين المتحاورين مصداقيته وقوة الدفع الإيمانية، التي ينبغي أن تستظل بها لغة الحوار، ويأتي ذلك متجسداً في مجموعة من المخاطر التي يقع فيها الكثيرون، بقصد أو بغير قصد، مثل: «الحسد – التكبر – الحقد – الغيبة – التجسس – الفرح – لمساءات الناس – النفاق – الاستكبار علي الحق – الرياء(٢)».

كما وضع حجة الإسلام في كتابه السابق شروطا للمعاونة علي طلب الحق من الدين، مرتدياً قميصة الصوفي، وجبته الفلسفية، وقلمه التحليلي، وشرحه

(١) أدب الحوار في الإسلام – د/ محمد سيد طنطاوي – صـ ٢٤.
(٢) إحياء علوم الدين – جـ ١ صـ ٥١ " بيان آفات المناظرة".

التفصيلي لقضايا المناظرة بين المشتغلين بالعلم؛ حتى تتمخض عن نتائج ذات فاعلية ملموسة في حاضر الأمة ومستقبلها.

ولا يجب أن يكون الحديث عن الحوار قاصراً علي الإعجاب به، ووضع الضوابط له وتأكيد أنه أصل من أصول التعامل، دون أن نتحول به إلي الجانب التطبيقي في كثير من القضايا، التي يزداد الجدل فيها، دون معالجة حاسمة.

يحفل القرآن والسنة بكثير من الحوارات الإيجابية، تدليلاً علي أهمية هذا الأسلوب المتحضر بالانتقال من المنهج والنظرية إلي التفعيل لواقع الأمة في القرون الأخيرة من يوم أن بدأ الانحطاط يدب في بعض أركانها، مما ألحق خسارة كبيرة في العالم المتسع، وأفاد بذلك الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه المشهور "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" وقد أورد القرآن كثيراً من الحوارات، مثل ما كان بين صاحب الزرع وصاحب الغنم مع نبي الله داوود وابنه سليمان عليهما السلام.

وقد أتسع شكل الحوار بين سليمان والهدهد مباشرة، ثم مع ملكة سبأ عن طريق الرسائل أولاً، ثم عن طريق الحوار المباشر فيما بعد.

وكذلك ورد الأسلوب الحواري في حديث القرآن عن نبي الله موسي وهو يحاور نماذج من البشر ذات درجات مختلفة في القوة والإدراك مثل فرعون، وبعض أبناء قومه، ثم مع فتاه، ومع عبد من عباد الرحمن(١) (هو الخضر) وغير ذلك من الحوارات القرآنية، التي ليست محلاً للمناظرة مع أية أساليب حوارية أخري.

---

(١) وذلك كما ورد في سورة الكهف.

وكشفت السنة عن العديد من الحوارات بين الرسول وأصحابه، أو بين بعضهم مع بعض، وكان ذلك سمة للدعوة إلي الله بالحسنى، عندما كان الرسول يصنع الرجال في مكة، أو يؤسس الدولة في المدينة، ثم بعد العودة إلي مكة والتحصن بالكلمة الهادئة والحوار الهادف، وقد عفا عن قومه وقال لهم "اذهبوا فأنتم الطلقاء"، ووضح ذلك بصورة أكبر في حواراته مع قومه في غزوتي بدر والخندق، وغيرهما.

وتستمر الحوارات الهادئة والتناظر الإيجابي في أساليب الشيخين أبي بكر وعمر ﷺ ونظامهما في إدارة الدولة، ومنهجهما في الشورى، وخضوعهما للرأي والحجة، والدليل القاطع، وبرز ذلك في مسائل ذات أهمية بالغة بعد وفاة الرسولﷺ مثل جمع القرآن الكريم، وقتال المرتدين، ومانعي الزكاة.

إنَّ الواقع المعاصر يشهد باضطراب في الحوار الإسلامي، ونحن نزداد تلهفاً وشوقًا إلي نهاية المطاف في لغة الحوار، تلك التي باتت مغيبة في كثير من القضايا، مثل المسائل العقائدية بين السنة والشيعة، أو بين أصحاب الملل والنحل، المنشقة عنهما، أو التي تعمل فوق أرضية تختلف من بيئة لآخري، وفي نطاق الأحوال الشخصية، مثل الزواج العرفي وزواج المسيار وأنكحة جديدة في ظلال العولمة الوافدة بما فيها من إيجابيات -إن وجدت- وسلبيات لا يتناسب الكثير، منها لا مع ديننا، ولا مع عاداتنا، ثم يستمر الخلاف الاجتهادي في بدايات الشهور الهجرية المرتبطة بمناسبات دينية، أما القضايا الاجتماعية في الشأن الإسلامي فلا أول لها ولا آخر، وإخواننا الذين يجتهدون عن علم ليس كاملاً، وغير مهيئين له يتعاركون

ويتطاحنون في كثير من القضايا، مثل وضع المرأة في المجتمع، وما يسمي بتنظيم الأسرة، وقضايا الحجاب والنقاب، والخروج للعمل.

ويزداد الجدل الذي ينبني في كثير من الأحوال علي الإفراط أو التفريط في بحث علاقة المسلمين مع أهل الأديان الأخرى، تلك القضايا الساخنة، التي لم يخمد لهيبها خاصة بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م.

وتزداد تلك الظواهر المقلقة حدة يوماً بعد آخر، وتتفاوت درجاتها بين مجتمع وآخر، مما يحتم أهمية الانتقال إلي مستوي ووضع جديد في الحوار الراقي الخاضع للأسس والضوابط، التي يستوعبها الكثيرون، ولا يخضع لها إلا القليلون.

وتتسع الأمور بصور مختلفة، ففي مجالات أخري، مثل معاملات البنوك والبورصة، وأحوال السوق العربية المشتركة، التي كان متحققة أو قريبة من التحقيق، ثم صارت – فيما اعتقد– أثراً وتاريخاً لا قيمة له، ومثل القضايا الأدبية والثقافية كالغزو الفكري، والأصالة والحداثة، ونماذج من الأدب المكشوف، والأدب الإسلامي، والأدب العالمي، وسائر الفنون الأخرى.

وتجلي في السنوات الأخيرة شكل الحوار في بعض القضايا، التي تمتاح من الطب والدين والقانون، مثل بنوك الأجنة، وتأجير الأرحام، وقضايا الموت، وزراعة الأعضاء البشرية، والتبرع بها، والتجارة فيها، والاستنساخ البشري، وبعض المسائل التي كثر الحوار أو الجدال فيها عند أهل الاختصاص من رجالات الدين والعلم والقانون.

ثالثاً: النتائج:

١. حتمية تكوين رأي إسلامي عالمي؛ بهدف توحيد الكلمة الموجهة إلي الآخرين، فيما يختص بالتعريف بالإسلام، ونشر مبادئه، والرد علي الافتراءات الموجهة إليه.

٢. ينبغي أن يكون الحوار خاضعاً لمبدأ احترام الآخر وتقديره، وعدم تسفيه رأيه وتحقيره، وأن تكون الغلبة لرأي الأكثرية، تفعيلاً لقضية الشورى في الإسلام، أو الديمقراطية المعاصرة.

٣. إذا كان الحوار بين مختلف الثقافات والأديان محققا بدرجة كبيرة؛ استجابة لتوصيات الكثيرين من أصحاب الفكر، وأهل الحل والعقد، فإن من ألزم الواجبات أن يتحقق ذلك في نطاق الدعوة إلي الحوار الإسلامي؛ لأننا إذا لم نقدس دور الكلمة في النطاق الديني الذي نؤمن به، والمذاهب التي نتأكد من صحتها؛ فلن نستطيع أن نواكب سائر المتغيرات المعاصرة في الدعوة إلي الحوار مع الآخرين.

٤. تتعدد القضايا الإسلامية التي تحتاج إلي حسم من خلال الحوارات الهادفة والنقاشات الإيجابية، تلك التي تعود إلي المذهب العقائدي، مثل اختلافات أهل السنة والشيعة، أو ما يتعلق بالمذهب الفقهي، كتلك التي تقع بين الشافعية والحنابلة وغيرهما، وإن كانت هذه مأمونة الجانب ليس لها آثار ضارة في نطاق النقاش، بعكس ما يثار من القضايا الأخرى، كتلك التي كانت تثار قديماً بين أصحاب المذاهب الكلامية، مثل أهل السنة والمعتزلة، فإن الخلافات بين المسلمين لا تقتصر علي هذه القضايا الشائكة، وإنما تمتد

إلي توجهات سياسية بين البلدان عن الخلافات الحدودية وحتمية التعايش السلمي، وحدود الاجتهاد، والرأي العام الإسلامي، وأنظمة الحكم، وعلاقة الدين بالسياسة، والمرعيات الواجبة للشريعة الإسلامية، وأشياء أخرى كثير، في حاجة ملحة إلي الحسم أو الاقتراب منه، والعيش في منطقة آمنة تستبدل فيها الكلمات الهادئة بدلا من العبارات الطائشة.

٥. نستشرف بمستقبلاً مليئاً بالآمال والطموحات في نتائج الحوار بين المسلمين عامة؛ وبينهم وبين أهل الديانات الأخرى، بحيث يكون التوجه معبراً عما يُسَمَّي حوار الحضارات؛ وليس تمثيلاً أو صراعاً أو إشعالاً لقضية صراع الحضارات.

أهم المصادر والمراجع

١. **إحياء علوم الدين:** جزء أول من صـ ٤٨ إلي صـ ٥٧.

٢. **أدب الحوار في الإسلام:** د/ محمد سيد طنطاوي.

٣. **أدب الاختلاف في الإسلام:** طه جابر فياض. (كتاب الأمة) ١٤٠٥هـ = ١٩٨٤م.

٤. **أدب الخلاف وأسباب الاختلاف:** د/ سعاد صالح – ١٩٩٦م.

٥. **أسلوب المحاورة في القرآن الكريم:** د/ عبد الحليم حفني– مطبعة السنة المحمدية ١٩٩٧م.

٦. **الحوار الثقافي:** د/ عبد الله التطاوي– مكتبة الأسرة ٢٠٠٦م.

٧. **حوار لا مواجهة:** د/ أحمد كمال أبو المجد– كتاب العربي العدد (٧) ١٩٨٥م.

٨. **دعوة للحوار:** د/ حسن حنفي– مكتبة الأسرة ١٩٩٦م.

****

الفصل الرابع

متابعات

١. تقرير عن مؤتمر فى جامعة جرش الأهلية بالأردن.
٢. تقرير عن مؤتمر فى جامعة شعيب الدكالى بالمغرب.
٣. تقرير عن عام دارسى بكلية اللغة العربية - فرع جامعة الأزهر- الزقازيق.
٤. تقرير عن رحلة تعليمية، ومتابعة إدارية في معاهد الأزهر - بمحافظة جنوب سيناء.

١ . تقرير

عن مؤتمر كلية الشريعة جامعة جرش بالأردن

لقد تلقيت الدعوة لحضور مؤتمر كلية الشريعة جامعة جرش الأهلية بالأردن، الأيام من ١١ إلي ١٣ نوفمبر ٢٠٠٨م، والموضوع المختار للمؤتمر هو «الحوار الإسلامي، في ضوء الكتاب والسنة»، وذلك عن طريق العلاقات العلمية والثقافية بجامعة الأزهر، واخترت بحثاً للاشتراك به في هذا المؤتمر بعنوان «ضوابط الحوار الإسلامي- زراعة الأعضاء البشرية نموذجاً» وراق هذا الاختيار لأمانة المؤتمر بعد أن أرسلت ملخصاً له في ثلاث صفحات من القطع الكبير.

وأعددت الموضوع في عشرين صفة وأرسلته، ثم جاءت الموافقة علي الإشتراك وتقديم البحث، وسافرت قبل المؤتمر بيوم واحد، وكانت الإقامة في فندق بعمان، والسفر منها إلي مكان المؤتمر بجامعة جرش علي بعد أربعين كيلو متراً من عمان شمالاً في طريق عمان إربد الدولي.

وكانت الوفود المشاركة ممثلة لأكثر من عشر جامعات عربية، وكنت **الأزهرى والمصري الوحيد، الذي شارك في فعاليات المؤتمر.**

وفي اليوم الأول: الثلاثاء الحادي عشر من نوفمبر لعام ٢٠٠٨م استقبلنا الدكتور عدنان الصمادى عميد كلية الشريعة، ورافقنا للسلام علي معالي رئيس الجامعة الأستاذ الدكتور نايف غرايبة في حضور الملحق الثقافي السعودي بعمان، وبعد حفل الافتتاح بدأت الجلسات.

في الجلسة الثانية من هذا اليوم، قدمت عرضاً لبحثي السابق ذكره، في مدة عشرين دقيقة، وهو وقت قصير بلا شك بالنسبة للموضوع/ لكن المناقشات كانت ذات فعالية، خاصة فيما يتصل بزراعة الأعضاء وهو جانب تجريبى وتفعيلى

لضوابط الحوار، والانتقال به من الشق النظري إلي الحيز التطبيقى، إذ أنني قد عرضت تجربتى الذاتية التي عايشتها في مصر وفي بلدة تيانجن بالصين، حيث أجريت لي عملية جراحية لزراعة الكبد.

وبدأتُ الموضوع بالحديث عن أهمية الدعوة إلي الحوار في ظل الاشتباك المعرفي، والثقافى، بالعديد من الدول حول الكثير من القضايا، التي تحتاج إلي نبذ الخلافات والتقريب بين الآراء والتوجهات، والتحول بالموضوع من التأصيل والتأسيس إلي التفعيل والتنفيذ لكل المتاحات من القضايا الإسلامية، التي كثر الجدل فيها دون الوصول إلي نتائج إيجابية ذات تأثير بارز في محيط المجتمع الإسلامي، وانتهاءً بالدعوة إلي الشراكة في صناعة النظام الدولي، والذي تعد العولمة إحدى رسائله، ووسائله، ومنتجاته، وتوصياته إلي سائر مكونات الأمة العربية والإسلامية.

كما تحدثت عن أهم ضوابط الحوار، وأشرت إلي كتاب مهم في هذا الموضوع للأستاذ الدكتور/ محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر، وهو بعنوان "أدب الحوار في الإسلام" ثم تحدثت عن زراعة الأعضاء البشرية نموذجاً، وعن دعوة الإسلام إلي البذل والعطاء والتضحية، خاصة بين الأقارب، وتكلمت عن التبرع بالأعضاء من الأحياء، وعن التبرع بالعضو بعد تمام الموت، وعن نقل الأعضاء من موتي جذع المخ إلي الآخرين، وختمت البحث بمجموعة من النتائج والتوصيات، ثم جري حوار ونقاش ومداخلة في الموضوع بالكامل.

وفي اليوم الثاني: كنت رئيساً للجلسة التي اشترك فيها عميد كلية الشريعة بجامعة جرش، بصفته عضواً متقدماً ببحث، وأثني علي مشاركتي في المؤتمر من خلال البحث الذي تقدمت به والحوارات التي شاركت فيها ورئاسة بعض الجلسات التي نهضت بها.

وكانت الجلسة الأخيرة عن مناقشة النتائج والتوصيات، وأثيرت في هذا المؤتمر العديد من القضايا مثل أهمية الحوار بين المسلمين، والعلاقة بين السنة والشيعة، وصوت الحوار الإسلامي في المجتمعات العربية، وجاء ذلك متزامناً مع المؤتمر الذي عقد في الولايات المتحدة الأمريكية حول الحوار بين الأديان.

وأسفر مؤتمر كلية الشريعة بجامعة جرش عن مجموعة من التوصيات منها:

١. الحوار هو السبيل الأمثل لضبط الاختلاف المذموم وتقريب وجهات النظر.
٢. ضرورة وجود مرجعية إسلامية عليا يحتكم إليها المتحاورون من جميع المذاهب، وأن يلتزموا فيها بالأسس والثوابت التي يتم تحديدها.
٣. تعدد المعاني في الأدلة الشرعية المحتملة لعدة معان، لا يصح أن تكون سبباً للاختلاف.
٤. دعوة الجامعات والمعاهد العلمية؛ لتأسيس مراكز البحوث والدراسات لتقريب وجهات النظر بين المذاهب الإسلامية والتيارات الفكرية المعاصرة.

وقد لوحظ أن الكثيرين ممن شاركوا في المؤتمر قد تخرجوا وحصلوا علي سائر مؤهلاتهم من جامعة الأزهر، وتحدث بعضهم معي عن رابطة خريجي جامعة الأزهر، وعن رغبتهم في المشاركة فيها.

وفي نهاية الجلسات تسلمت شهادة شكر وتقدير من جامعة جرش إلي جامعة الأزهر ممثلة في شخص رئيسها؛ لموافقته الكريمة علي مشاركتي في هذا المؤتمر العلمي، آملين استمرار التعاون بين الجامعتين.

كما تسلمت شهادة بالمشاركة الخاصة به لإسهاماتي بالبحث المذكور، والحضور، والمداخلات والمناقشات، مع تمنياتهم للأزهر جامعاً وجامعة بدوام التوفيق.

****

٢. تقرير

عن مؤتمر في جامعة شعيب الدكالي بالمغرب.

عن الملتقي الدولي الثاني الذي نظمته مجموعة البحث في الدراسات القرآنية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة شعيب الدكالي- في الجديدة بالمملكة المغربية يومي ٦و ٧ من مايو ٢٠١٠م.

لقد شاركت في هذا الملتقي ببحث عنوانه "آيات الله في نوم الإنسان وآثاره في التنمية البشرية"، وجاء ذلك من خلال التعاون المحمود مع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية، والمنبثقة من رابطة العالم الإسلامي، وكان الموضوع الرئيسي لهذا الملتقي عن القراءات القرآنية والإعجاز، ولكن البحوث لم تتوقف عند هذا الموضوع العام، ولكنها توسعت في قضايا الإعجاز العلمي في القرآن والسنة وأبعاده التنموية والحضارية.

وقد تم قبول البحث والإشادة به من أعضاء أمانة المؤتمر، حفظهم الله ومن خلال شخص رئيسه الأستاذ الدكتور/ الحسن صدقي الأستاذ بقسم الدراسات الإسلامية بجامعة شعيب الدكالي؛ وقد حرصت علي السفر قبل فعاليات الملتقي بيوم، حتى أتعرف علي برنامج المؤتمر وسائر ضيوفه من خارج المغرب، والمشاركة المجتمعية لهذا الحدث الثقافي الكبير، الذي أعطته الجامعة كل العناية والتقدير.

وتيسرت لي فسحة كبيرة من الوقت للاطلاع والمتابعة لنشاطات الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة من خلال شخص الأمين العام الأستاذ الدكتور/ عبد الله المصلح – وهو سعودى الجنسية – وفي اليوم السابق للملتقي يوم الأربعاء الخامس من مايو (آيار) تابعت الصحف المحلية، وقد تألمت لما عَرَضَتْ له إحدى الصحف حول ارتباط المغاربة بقراءة ورش عن نافع،

ورفضهم لما عداها من قراءات أخرى إذ وضعت الجريدة في عنوانها الرئيسي بالصفحة الأولي عنواناً صادماً وهو (المغرب يقوم بتطهير المساجد من مصاحف الشرق) وَذَكَرَتْ تفصيلات الموضوع أن القراءات القرآنية سوي رواية ورش عن نافع تمثل خطراً قادماً من الشرق، وذلك الذي سيثير فوضي في الداخل والخارج، مما خول لولاة الأمر إصدار قرار إنشاء مؤسسة محمد السادس لنشر المصحف الشريف [1] ولم أرد تعكيراً لجو الملتقي وأحببت أن تمر هذه المسألة بسلام، واعتبرت أن ما نشر بهذه الطريقة ليس إلا عملاً انفرادياً قام به صحفي غير مسئول ولا مقدر للمسئولية المنوطة بعلماء القراءات والتفسير القرآني في المغرب الشقيقة وسائر الحاضرين لهذا الملتقي من الدول العربية، كما أنني لم أجد لهذا الكلام الصحافي الشاذ أي تأثير عند النخبة المثقفة ثقافة دينية مرشدة وقد صارت الأمور بمثل ما توقعت والحمد لله تعالي رب العالمين.

وبدأت فعاليات الملتقي في اليوم الخميس السادس من مايو بمدرج (ابن سودة) بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة شعيب الدكالي بالجديدة، وافتُتح اللقاء بالقرآن الكريم من أحد الأساتذة، الذي تلا القرآن بصوت جميل ومؤثر، وكانت بداية افتتاح الكلمات للأستاذ الدكتور/محمد قوام رئيس جامعة شعيب الدكالي، وتلاه من خلال الكلمات المكتوبة والمعدة سلفاً عميد كلية الآداب، وبعده رئيس المجلس المحلي العلمي بالجديدة، ثم قدم الأستاذ الدكتور/ عبد الله المصلح أمين الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة محاضرة ممتازة ارتجل بدايتها وحياً الحضور بتحية أهل الجنة «تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ»[2] وتوالت كلمات

([1]) تراجع «الوطن الآن» المقرر صدورها يوم الخميس السادس من مايو ٢٠١٠م أي أن الجريدة ظهرت قبل صدورها بيوم واحد في المملكة المغربية، الشقيقة.

([2]) الأحزاب: (٤٤).

المشاركين في حفل الافتتاح، وبعد استراحة قصيرة بدأت فعاليات الجلسة الأولي، وكانت كلمة الدكتور/ عبد الله المصلح محاضرة شيقة عن الإسلام والعلم، وحتمية الالتزام بالمنهج العلمي في سائر جوانب الحياة، وقال إن مجموع الآيات التي تدعو إلي العلم والتبصر بآيات الله في حدود الألف والمائة آية في القرآن الكريم، مما يحفز العلماء؛ للتوسع في بحث ودراسة الإعجاز العلمى في القرآن والسنة.

وتواصلت البحوث التي احتشد لها مئات الحاضرين في مدرج «ابن سودة» بكلية الآداب في الجديدة.

وقد شاركت في جلسات الفترة المسائية، وكانت الأولي منها عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية، وقمت بعرض بحثي في قرابة نصف الساعة وموضوعه "آيات الله فى نوم الإنسان وآثاره فى التنمية البشرية" وابتدأتُ بقول الله تعالي: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾[1] وقلت: لقد تعددت الآيات القرآنية التي تؤكد حتمية التدبر في أحوال الليل والنهار، ورصد حركة الزمان وسكونه، والتي جلّاها القرآن الكريم ببيان صادق وإعجاز خارق في قصة أصحاب الكهف والرقيم، تلك التي تميزت بفصل الخطاب، وذخرت بالعجب العجاب، لعلامات بارزة وإشارات واضحة ومؤثرة في مسيرة الحياة الإنسانية، وتحدثتُ عن النوم في حياة الإنسان، معتمداً في تجلية الموضوع علي الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وجعلت الكلام مفصلاً عن الأفكار الرئيسية في هذا الموضوع تحت عنوان لا يبتعد كثيراً عن موضوع البحث تلك الأفكار التي بُحثت تحت عنوان أثر النوم في صحة الإنسان،

([1]) النساء: ٨٢.

وانعكاسه علي التنمية البشرية، وتوصلت في الخاتمة إلي مجموعة من النتائج التي تجاوب معها الحاضرون وعلّقوا عليها وتداخلوا فيها بما أثرى المحاضرة والعرض الجيد للموضوع الذي وفقني الله سبحانه وتعالي إليه خاصة أن نسبة كبيرة من الحاضرين كانوا من الطلاب والطالبات في شعبة الدراسات الإسلامية بجامعة شعيب الدكالي، وتواصلت الجلسات في هذا اليوم واليوم التالي وهو الجمعة ٧ مايو ٢٠١٠م إلي أن كانت الجلسة الأخيرة التي دُعيت فيها إلي إلقاء كلمة الضيوف من البلاد العربية، والذين جاءوا من أكثر من عشر دول منهم من موريتانيا والجزائر والسودان والسعودية وغيرها، وقد شاركت في هذا المؤتمر بالبحث المقدم وفي إلقاء كلمة الضيوف، تلك التي بدأتها بحمد الله والصلاة والسلام علي رسول الله شاكراً حسن الاستقبال والضيافة من الأشقاء في المملكة المغربية، وعرّفْتُ بالمؤتمر الدولي الثاني الذي عقد في كلية اللغة العربية جامعة الأزهر بالزقازيق قبل سفري إلي المغرب وكان عن «معالم التلاقي بين علوم اللغة العربية والعلوم الإسلامية» ذلك الذي شارك فيه خمسة وستون باحثاً من الجامعات المصرية والعربية.

وذكرت أنني جئت إلي المغرب مسترجعاً الحب الكبير والتقدير العظيم للأخوة المغاربة وذلك بحق الدكتورة/ عائشة عبد الرحمن تلك التي كان لها شأن كبير بالجامعات المغربية وخاصة جامعة القرويين بفاس، فضلاً عن العلماء المصريين الآخرين، الذين جاءوا إلي المغرب وعاشوا فيه وتجاوبوا معه، وأحبوه واذكر منهم الأستاذ الدكتور/ رشدي فكار إلي غير ذلك من الفيوضات التي وُفقت في عرضها وتقديمها إلي المغاربة وسائر الضيوف من الدول العربية.

هذا وقد أسفر الملتقي عن عدد من التوصيات التي حضت وحتمت شدة التقارب في بحوث الإعجاز العلمى في القرآن والسنة، لما لهذا الموضوع من أهمية في هذا الوقت الراهن، واتفق الحاضرون علي وجوب التوافق والتقارب وعدم التعارض بين القراءات القرآنية المتواترة فليس لواحدة فضل علي أخري وإنما هي متاحة للجميع بمستويات متقاربة، ولكل مسلم أن يأخذ منها ما يراه متوافقاً مع ميوله واتجاهاته.

أما القراءات الشاذة فيمكن أن تؤخذ علي أنها من الإيضاحات والتأويلات المفسرة لآى القرآن الكريم.

وأكد المشاركون عدم التعارض بين الإسلام والعلم؛ ذلك لأن الإسلام يحض علي العلم، والنصوص القرآنية والنبوية كثيرة في هذا الجانب، وأوجب المشاركون الارتقاء بالحوار الإسلامي من خلال القرآن والسنة، وضرورة تنشيط البحوث العلمية، التي تعرض للإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية، والتجديد في الخطاب الديني، والتحاور البناء مع الأمم والشعوب الأخرى.

****

٣. تقرير

عن عام دراسي بكلية اللغة العربية – جامعة الأزهر- فرع الزقازيق

خاص ببيان الأعمال والتكليفات والنشاطات التى قمت بها في كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر – بالزقازيق– وغيرها خلال العام الجامعى ٢٠٠٧م / ٢٠٠٨م.

أولاً: فى الكلية

١- لقد كُلِّفتُ بتدريس (النصوص الأندلسية) لطلاب الفرقة الثالثة، وقدمت كتاباً بعنوان (دراسات فى الأدب الأندلسى) ، وذلك فى الفصل الدراسى الأول.

٢- نهضت بتدريس مادة (النصوص الأدبية) لطلاب الفرقة الأولى مع بعض زملائى فى القسم، الذين شاركونى فى تدريس هذه المادة من خلال كتابى الذى اختير للطلاب ــ وهو (دراسات فى الأدب الجاهلى) وذلك فى الفصل الدراسى الثانى.

٣- قمت بتدريس مادة (النصوص الأدبية) للفرقة الأولى بالدراسات العليا، وكان حضور الطلاب غير منتظم، وبصورة تدعو إلى حتمية المراجعة الشاملة لمنظومة الدراسات العليا خاصة فى قطاع اللغة العربية.

٤- أسهمت بالرأى الصريح والمباشر فى اجتماعات القسم، ولجنة شؤون الطلاب، وآية اجتماعات أخرى، تخص العملية التعليمية والبحثية بالكلية.

٥- لقد تابعت الإشراف العلمى فى مرحلتى الماجستير والدكتوراة لثلاثة من الباحثين وهم السيد/ محمد حسن عبد الكامل (دكتوراة) والسيد/ سعد محمد عطية (دكتوراة) والسيد/صادق محمد عبده (ماجستير).

٦- شاركت فى القوافل الدينية التى تجوب كثيرا من قرى محافظة الشرقية، للتوعية الدينية ، وعقد المسابقات الخاصة باستظهار القرآن الكريم، وكان تكليفى محددا في يوم الخميس الثامن من رمضان ١٤٢٨هـ (الخامس من سبتمبر لعام ٢٠٠٨م) وكان معى الدكتور/ عطية على عطية وآخرون.

٧- أسهمت فى نجاح مهرجان الشعر الإسلامى بالكلية ، إذ قمت بالتعليق والنقد للقصائد الملقاة فى المهرجان، الذى كُرّمت فيه أنا والأستاذ الدكتور السيد عبد القادر عويضة، بعد انتهاء أعمالنا الإدارية ، وأعقب ذلك حفل إفطار جماعى فى الكلية ، وكانت لفتة طيبة من عميد الكلية الأستاذ الدكتور/ صابر عبد الدايم ، ووكيل الكلية الأستاذ الدكتور/ عبد الله هنداوى، وذلك فى السادس والعشرين من رمضان ١٤٢٨هـ (الثامن من أكتوبر لعام ٢٠٠٨م).

٨- قمت بدور إيجابى مُفَعِّل فى المهرجان الشعرى الذى انتظم بالكلية فى أعقاب المسابقة الطلابية فى الشعر والزجل لكليات الوجه البحرى يوم الخامس والعشرين من نوفمبر لعام ٢٠٠٧م.

٩- قدمت ورقة نقاشية عن تعريب العلوم التجريبية بالجامعات المصرية، فى الندوة التى عقدت بالكلية، تحت عنوان (لغتنا العربية بين ثبات القاعدة، وضعف الأداء، ووسائل النهوض) فى يوم الثامن من إبريل لعام ٢٠٠٨م.

١٠- نهضت بالتعليق النقدى، والدرس الأدبى لقصائد المهرجان الشعرى، الذى عقد بالكلية تحت رعاية الأستاذ الدكتور/ عميد الكلية بعد نهاية الحفل الختامى للأنشطة الطلابية ، وقد خرج اللقاء بالصورة التى تؤكد

ضرورة التواصل بين جامعة الأزهر وسائر مكونات المجتمع المدنى فى محافظات الوجه البحرى، التى تنتشر بها كليات جامعتنا العريقة.

ثانيا: فى نطاق الجامعة وكلياتها

١- حضور اجتماعات اللجنة العلمية الدائمة للأدب والنقد، لترقية الأساتذة والأساتذة المساعدين فى كليات الجامعة بالقاهرة والاسكندرية والزقازيق.

٢- مناقشة رسالة دكتوراه فى كلية اللغة العربية بالقاهرة ، وموضوعها (سيناء فى عيون شعراء مصر) وذلك فى الثالث من أكتوبر لعام ٢٠٠٧م.

٣- مناقشة رسالة دكتوراه فى كلية اللغة العربية بالمنصورة ، وعنوانها (أبو تمام فى الأدب والنقد الأندلسى) فى يوم الثامن والعشرين من مايو لعام ٢٠٠٨م.

ثالثا: خارج الجامعة

١- تمثيل الكلية بمصاحبة عميدها أ.د/ صابر عبد الدايم فى حضور فعاليات حفل الافتتاح لمؤسسة نجلاء محرم الثقافية بمدينة الزقازيق فى مساء يوم الثلاثين من أكتوبر لعام ٢٠٠٨م وقدمت كلمة عن الأصوات الأدبية بالشرقية ، وفى حضور عدد كبير من أدباء ومثقفى مصر.

٢- المشاركة فى مؤتمر كلية دار العلوم جامعة المنيا ببحث موضوعه (أبو حامد الغزالى ــ وآراؤه فى الأدب والتربية والعلم والتعلم) واستمر المؤتمر من التاسع من مارس لعام ٢٠٠٨ إلى الحادي عشر من مارس لعام ٢٠٠٨م.

٣- المشاركة فى مؤتمر كلية الآداب والعلوم الانسانية جامعة قناة السويس بالإسماعيلية فى أيام التاسع والعشرين من مارس لعام ٢٠٠٨م إلى الحادي والثلاثين من مارس ٢٠٠٨م ببحث عنوانه (زمن نجوى وهدان ــ قراءة تحليلية لنموذج سردى معاصر).

٤- المشاركة فى مؤتمر نادى الأدب بالزقازيق ببحث عنوانه (من ملامح التجريب فى النص الشعرى) وعُقد المؤتمر لمدة يوم واحد هو التاسع من يونيو ٢٠٠٨م وذلك فى قصر الثقافة بالزقازيق.

٥- حضور ثلاث دورات تدريبية عن (جودة الأداء والضمان فى التعليم الجامعى) ووجهت للكلية رسائل إشادة وشكر بهذا الخصوص، وعُقدت إحداها بكلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق فى حضور ممثل لجنة تطوير التعليم بالجامعة ، وكانت الثانية بالمجلس الثقافى البريطانى، فى حى العجوزة ، والثالثة بفندق (بيراميزا) فى حى الدقى بالجيزة.

رابعاً: نشاط إعلامى

إعداد عشرات الحلقات الإذاعية فى الأدب والدين والتربية بإذاعات القرآن الكريم- صوت العرب ــ البرنامج العام ــ البرنامج الثقافى وغيرها ، ونشرت لى بعض الصحف والمجلات عددا من المقالات الأدبية والثقافية ، وأخص منها جريدة صوت الأزهر.

صدر لى عدة كتب منها:

١- الثروة فى الإسلام نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

٢- ألوان من الأدب والفكر والحياة.

٣- أنوار اليقين.

خامسا: فى خارج مصر

تم إعداد ورقة نقاشية لمؤتمر الحوار الإسلامى، الذى تنظمه كلية الشريعة جامعة جرش بالأردن ، والذى سيعقد فى نوفمبر ٢٠٠٨م والموضوع المختار من جانبى هو (ضوابط الحوار الإسلامى ــ زراعة الأعضاء البشرية نموذجاً) وجارى إتمام البحث المذكور بموافقة أمانة المؤتمر.

سادسا: كلمة أخيرة

١- أرى حتمية إعادة التشكيل للجنة سابقة، أقرها القسم بخصوص وضع تصور جديد لكل منهج أو مقرر، يتواكب مع الرغبة فى التفعيل لرؤية لجنة تطوير التعليم بالجامعة، مع الاستنارة بالرؤى المطورة فى الكليات المتناظرة.

٢- ضرورة الدراسة المتأنية لاختيار موضوعات الماجستير والدكتوراة، ووضع آلية متجددة للشكل الإجرائى لمراحل التسجيل.

٣- عقد اللقاء العلمى (السينمار) بانتظام ، ويكون الموضوع المختار محددا سلفا، وكذلك العضو الذى سيدير الحوار.

٤- الارتقاء بمستوى الكتاب الجامعى المقرر، وتقويمه، ومناقشة موضوعاته بالقسم.

٥- إتاحة الفرصة للسادة أعضاء هيئة التدريس ومعاونيهم بتقديم مشروعاتهم البحثية من كتب وبحوث ومهمات علمية، ونشاطات ثقافية، وذلك لعرضها على سائر الأعضاء بالقسم ، والتحاور فيها قبل تشكيل مكوناتها المتعددة.

٦- وجوب الالتزام بالمحاضرات، وتنمية نشاطات الأسر الدينية والثقافية والرياضية.

٧- ضرورة متابعة الطلاب أثناء الدراسة، وفى أيام الامتحانات الفصلية، ومنعهم من إدخال أجهزة الهواتف المحمولة للجان الامتحان؛ لما يترتب

عليها من محاولات الغش ، وفقد الالتزام ، والمراعاة لأحوال الجادين من الطلاب.

٨- العناية باللغة الفصحى فى التدريس والحوار.

٩- معاونة الطلاب الوافدين على التحصيل فى المواد التخصصية ، وفى استظهار القرآن الكريم.

١٠- دراسة أسباب غياب الطلاب عن محاضرات الدراسات العليا، حتى لو كانت الكتب والامتحانات فى كليات الجامعة بالقاهرة .. والله ولى التوفيق.

****

٤. رحلة إلى معاهد الأزهر في جنوب سيناء

خلال شهر أبريل عام ٢٠١١م

أولاً: طبيعة المهمة:

لقد جاءت رحلتي إلي جنوب سيناء، استجابة لدعوة كريمة من قطاع المعاهد الأزهرية، لتقديم عدد من المحاضرات والندوات، خلال الدورة التدريبية، التي تنعقد بين حين وآخر لموجهي الأزهر وشيوخه ومدرسيه؛ لتأكيد التواصل بينهم وبين المعارف الجديدة، والنظريات الحديثة في علوم اللغة العربية والشريعة الإسلامية، والتربية الدينية وغيرها، تلك التي تُقَدمُ إلي طلاب الأزهر في المراحل المختلفة الابتدائية والإعدادية والثانوية، وكنت سعيداً بهذه المهمة العلمية والتعليمية، التي أعادتني لتذكر أيام جميلة قضيتها في بدء حياتي بالمعهد الديني في الزقازيق، هذا الذي تعلم فيه وتخرج منه علماء عظام ملؤوا العالَمَيْن العربي والإسلامي علماً وثقافة، فضلاً عن جهودهم في الدعوة الإسلامية داخل حدود مصر المحروسة، التي حفظها الله ورعاها. وكانت هذه هي الرحلة الثانية لي فقد سبق أن سافرت إلي معاهد الأزهر بمحافظة جنوب سيناء في نهاية عام ٢٠٠٩م، وسعدت أيامها بالمعاهد التي أقامها الأزهر في المدن والأودية ؛حتي تتواصل رسالته وريادته للتسامح الديني والوسطية في الأحكام والعقائد، وإحياء لغة القرآن الكريم وأدب العرب.

وتقع شبه جزيرة سيناء في قارة آسيا، ولكنها شديدة الارتباط بأفريقيا، هذه القارة التي يقع بها القسم الأكبر من جمهورية مصر العربية، وكانت سيناء معبراً للفتح الإسلامي لمصر، كما كانت طريقاً للقوات المصرية لتحرير الشام من الصليبيين.

وتحوي كثيراً من الأماكن المقدسة عند المسيحيين، ويقع بها دير (سانت كاترين) وبعض الكنائس القديمة، التي يلجأ إليها الرهبان؛ للعبادة بعيداً عن صخب الحياة.

ويذكر القرآن الكريم (طور سيناء) لاعتبارات متعددة منها ارتباطها بشجرة الزيتون، التي تنبت فيها، وذلك كقوله تعالي (وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ "﴿٢٠﴾) (١) وقال تعالي:(وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾)(٢). وقد وردت كلمة (الطور) منفصلة وهي الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسي عليه السلام قال تعالى: (وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾)(٣).

وقد انقسمت سيناء إلي محافظتين في عام ألف وتسعمائة وتسعة وسبعين هما:

شمال سيناء وعاصمتها العريش، وجنوب سيناء وعاصمتها الطور.

و أعددت حقيبة سفري لهذه المهمة، وحملت فيها بحثاً لي بعنوان "التعليم الأزهري بين الماضي والحاضر" هذا الذي ذكرت فيه أبياتاً للشاعر أحمد شوقي، الذي حيا فيها الأزهر، وامتدح رجاله وأعلامه الأفذاذ.

قمْ في فم الدنيا وحيِّ الأزهر * وانثرْ على سَمْعِ الزمان الجَوْهَرا**

واجعلْ مكانَ الدرِّ إن فصلته * في مَدحه خرزَ السماءِ النيِّرا**

واذكرهُ بعد المسجدين مُعظّما * لمساجد اللهِ الثلاثة مُكبرا(٤)**

---

(١) المؤمنون ٢٠.

(٢) التين ١، ٢.

(٣) الطور: ١، ٢، ٣.

(٤) ديوان أحمد شوقي، جـ١ ، ص ٤٦١، والمسجدان: هما المسجد الحرام والمسجد الأقصى.

كما حملت كتابين لي:

أولهما: بعنوان "مناهج البحث في الأدب واللغة والتربية"

وثانيهما: عنوانه "قضايا ثقافية"، والذي طبعه ونشره مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف، ومن بين موضوعاته "العولمة والهوية الثقافية" و"المرأة والقيم الدينية" و"المنهج الإسلامي في تربية الأبناء"، و"البحث العلمي" وغيرها من الموضوعات، التي تتصل بقضايا الشباب والتربية والثقافة والإعلام، وكان بين يدي قبل السفر رسالة جامعية حصل بها صاحبها علي درجة الدكتوراه في الأدب العربي ونقده، واشتركت في مناقشتها منذ ثلاث سنوات في كلية اللغة العربية جامعة الأزهر بالقاهرة، وهي بعنوان "سيناء في عيون شعراء مصر".

ثانياً: طريق السفر

كان الأستاذ أحمد العمدة مدير التدريب في منطقة جنوب سيناء الأزهرية قائداً لسفري وهادياً ومرشداً ليّ طوال الساعات الست التي قضيناها معاً أثناء الرحلة من الزقازيق إلي طور سيناء، وبدأنا الدخول إلي سيناء الجنوبية من خلال المرور بنفق الشهيد أحمد حمدي، رحمه الله، الذي كان من أعظم قواد حرب السادس من أكتوبر (العاشر من رمضان) والذي استشهد في الرابع عشر من أكتوبر عام ألف وتسعمائة وثلاثة وسبعين، وقد بدا طريق الجنوب محاطاً بالخضرة بين الأرض الواسعة الممتدة، والفنادق السياحية علي خليج السويس، والتي بدت خالية من شاغليها، وكان المرور علي منطقة عيون موسي ورأس

سدر، وأبو زنيمة، وبدا الطريق قريباً من البحر في منطقة الوسط، وانساب أمامنا بين الجبال الملونة، والملفات المتعرجة، وحمام فرعون، وواصلنا الحديث عما كان في حرب أكتوبر إلي أن تجاوزنا مدينة أبو رديس، التي استرحنا فيها بعض الوقت، وانتهت رحلة السفر بالوصول إلي مدينة طور سيناء.

ولم يكن طريق هذه الرحلة هيّنا، ولكنه كان ممتعاً ومثيراً، خاصة أننا كنا في سبيل العلم، ومن أجل المعاونة علي الوصول برسالة الأزهر إلي كل مكان في أرض مصر؛ حتي لو كان معهداً أزهرياً في ركن منذو بين جبلين.

وتحدثت مع رفيق سفري عن سيناء قديماً وحديثاً، وعن ثورة الخامس والعشرين من يناير عام ألفين وأحد عشر، وعن قضايا أخري كثيرة، منها طبيعة العمل في هذه المنطقة، والهموم التي تعيق الأزهر عن أداء رسالته في هذه الأماكن الصحراوية، وعندما وصلنا إلي مدينة الطور كان كل شئ فيها هادئاً، فهي تقع علي شط البحر، وتتميز باتساع شوارعها ونظافتها، وانقسام طبائع الناس فيها، التي تتجلي أولاً في أهل سيناء الأصليين، والذين تتضح في الكثيرين منهم بعض طبائع البداوة، كالإيجاز في القول، والترحيب بالضيف، وبساطة الملبس، والهدوء في الطبع، وأشياء أخري كثيرة يتميزون بها، ويختلفون عن الوافدين إلي سيناء، وهؤلاء الذين يقال عنهم إنهم القادمون من (تحت) والذين يميلون إلي ترشيد الإنفاق، والاهتمام بالتعليم، وممارسة بعض الأنشطة المختلفة في المساء، إلي جانب أعمالهم الوظيفية المتنوعة.

وقد رحب بنا، وأبدي السعادة بلقائنا الشيخ عبد الجواد صالح المدير العام للمنطقة الأزهرية في جنوب سيناء، وبعض كبار الموظفين فيها، وكان النزول والإقامة في دار العاملين بالمحافظة، وهو فندق بسيط ومنسق، ويتميز بالتقاف

الخضرة اليانعة من حوله، ويفتح أبوابه ونوافذه علي خليج السويس، كما التقيت في هذا الفندق ببعض القادمين من قطاع المعاهد الأزهرية؛ للاشتراك في تقديم بعض المحاضرات عن النواحي الإدارية والمالية، وأدركت أن الصمت والهدوء قد خيم علي أرجاء المدينة، واستسلمت لنوم متقطع، أتذكر فيه ما كان في طريق السفر، وماذا سيكون في اليوم التالي.

ثالثاً: **محاضرات اليوم الأول**:

لقد بدأ تفعيل النشاط التدريبي في هذا اليوم باللقاء مع الشيخ عبد الجواد صالح الذي وجدته شديد الاقتناع بفاعليات هذه الدورة، وعرّفني علي وكيل المنطقة وبعض شيوخها، وانتقلت مع الأستاذ أحمد العمدة إلي اللقاء مع شيوخ المعاهد وموجهى المواد وبعض المدرسين، ثم شرعنا في الحديث عن تفعيل الانتماء للأزهر، وبيان أهمية حفظ القرآن الكريم، وضرورة التطوير في التعليم الأزهري، خاصة أن القانون رقم ١٠٣ لعام ١٩٦١م بشأن إعادة تنظيم الأزهر والهيئات التي يشملها هذا القانون الذي يدعو إلي التطوير والتنوع في المعارف والثقافات.

وذكرت للحاضرين مقولة كانت تتردد دوماً علي لسان الدكتور محمد سيد طنطاوي رحمه الله وهي"من لم يحفظ القرآن فليس بأزهري"، وأن كل من يعمل بالأزهر فهو أزهري، حيث يجب عليه تقدير الأزهر، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وتأذي الحاضرون مما يلحق بالأزهر من إهانات، لا تجد في أحيان كثيرة من يتصدي لها ويرد عليها، وأن رابطة خريجي الأزهر التي تتحدث عنها بلدان العالم الإسلامي لا تجد قناة فضائية أو محلية، لكي تُعرّف بها، وترد علي منتقديها في هذا التوقيت، الذي تقلص فيه دور الكتاب، وصارت القنوات الفضائية أكثر وأشد تأثيراً من غيرها، وقد استهوي هذا الموضوع جموع

الحاضرين، الذين طالبوا بأن يصل صوتهم إلي فضيلة الأستاذ الدكتور شيخ الأزهر، و تشعب الحديث عن متطلبات حسن الانتماء للأزهر، وضرورة صيانة هذه المؤسسة، التي لها جذور ممتدة في أعماق التاريخ، فضلاً عن صوتها الذي ينتشر في كل بلدان العالم الإسلامي.

وبعد فترة قصيرة للراحة وصلاة الظهر بدأنا الحديث في المحاضرة الثانية، وكانت عن (الوعي الديني لدي تلاميذ المرحلة الإبتدائية)، وذكرت بعض ما قلته في بحث لي بهذا العنوان، ومما ذكرته "ليس الهدف من دراسة المواد الدينية هو تحفيظها للتلاميذ، حتي يتقنوها ويرددوها، وإنما الهدف الأسمي هو ربط ما في هذه المواد من معانٍ رائعة بمواقف الحياة المختلفة، فإذا حفظ التلاميذ بعض الآيات التي تحضُّ علي البر، وتدعو إلي المعروف ومساعدة المحتاجين من غير أن نبرهن للصغار علي صور ذلك في الحياة بكل مناحيها... لو حدث ذلك لذهب الأثر الحميد والهدف الأسمي من التحفيظ والشرح والتعب أيضاً". وقلت "لقد اعتني ديننا الحنيف بالطفل من قبل أن يُولد، عندما كان جنيناً في بطن الغيب، و"كان الرسول صلي الله عليه وسلم إذا مر بالصبيان سلم عليهم"[١].

وأن معاهد الأزهر التي تنتشر في مدن سيناء وأوديتها لا تستطيع أن تنهض برسالتها، دون مشاركة الآباء والأمهات، فعلي هؤلاء عبئ كبير في توجيه الأولاد والبنات إلي العبادة والعلم قال الرسول صلي الله عليه وسلم "ما من مولود إلا يولد علي الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"[٢].

وأن علي المجتمع السيناوي دوراً كبيراً في معاونة الأزهر علي تحقيق رسالته، وأذكر في الرحلة السابقة لي إلي هذه المناطق عند المرور علي أحد

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.

المعاهد بوادي فيران أن المدرسين كانوا علي علاقة حميدة بأولياء الأمور، للدرجة التي كان السادة المدرسون يرسلون إلي بعض أولياء الأمور من يأتي بأبنائهم التلاميذ إلي معهده في وسط الصحراء، إذ أن علي المدرس دوراً كبيراً في هذه البيئة البدوية، حيث يتوقف علي مدي حبه للتلميذ وحسن توجيهه له الانتظام في الدراسة أو التسرب منها، وأن إدارة المعهد تُسهم هي الأخرى من خلال الإشراف الإداري والتربوي؛ حتي تكتمل رسالة الأزهر خاصة في المعاهد الابتدائية بهذه البيئة الصحراوية.

وإن أهم ما يجب الاعتماد عليه في تنمية الوعي الديني هو حسن تحفيظ القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وتطبيق ما تم تقديمه علي أرض الواقع، داخل المعهد وخارجه، وتَوَاصَلَ الحوار في نهاية المحاضرة.

وكانت شكوي الحاضرين من عدم تحقيق المقرر حفظه من القرآن الكريم، وكانت إذاعة جنوب سيناء حاضرة وممثلة بالأستاذ محمود عيسي رئيس البرامج الدينية بها، حيث قام بتسجيل هذه اللقاءات، وإذاعتها علي المستمعين في جنوب سيناء، وغيرها من ربوع مصر.

والتقينا في المساء مع جماعة من شيوخ المعاهد الأزهرية، وبعض الموجهين، وذلك في مقر الاستراحة، التي يقيم بها مدير المنطقة، ودار النقاش عن ثورة الخامس والعشرين من يناير، وعلاقة الأزهر بها، وخطورة الانفلات الأمني في ربوع مصر، وقد حفظ الله جنوب سيناء فبقيت آمنة مطمئنة بحراسة أهلها وسائر المقيمين معهم، ذلك أن هذه المنطقة ذات طبيعة خاصة، ولا يوجد بها أي مظاهر للانفلات الأمني، الذي ندعو الله سبحانه وتعالي أن يحفظ مصر منه؛ حتي تؤتي هذه الثورة ثمارها المرجوة، وقد أُلقِيت بعض قصائد الشعر

الوطني والديني، واستمتع بها الحاضرون، وعلق عليها بعض رجال التربية والتعليم، الذين كانوا يشاركون في هذه الأمسية المتعددة المشارب والأغراض.

رابعاً: التعرف علي أحوال بعض المعاهد:

لقد اصطحبني مدير التدريب وأحد الموظفين في منطقة جنوب سيناء؛ لمعاينة الوضع علي الطبيعة في المعاهد الأزهرية، بمراحلها الثلاثة في عدد من الأودية والمدن، خاصة أن بعض هذه المعاهد قد سبق أن تعرفت علي طبيعة العمل بها في زيارة سابقة، وكان السادة النظار والشيوخ والمدرسون سعداء بمقابلتي في قلب الصحراء، بمثل سعادتي بلقائهم، والتعرف علي طبيعة عملهم، وفي أثناء تحركنا صبيحة اليوم السادس من أبريل عام ألفين وأحد عشر التقينا علي الطريق مع ثلاثة من الموجهين، ينتظرون وسيلة تُقِلُّهم إلي المعاهد الأزهرية محل التوجيه، وعجزنا عن مساعدتهم بالركوب معنا، وبقْوا في أماكنهم؛ انتظاراً لعطف قائد لسيارة مياه، أو ناقلة لأنابيب الغاز، أو أية وسيلة يمكن الاعتماد عليها، وعلِمْتُ أن الحال سيئ للغاية، وأن المنطقة الأزهرية ينبغي أن يتوفر لديها سيارة أو سيارتان؛ لنقل هؤلاء الفضلاء، الذين جاءوا لأداء أعمالهم، وبقوا في وقت العمل انتظاراً علي قارعة الطريق، وكان المرور إلي داخل سيناء الجنوبية من الطريق الأوسط فيها، واقتربنا من (وادي فيران) حيث تكثر أشجار النخيل غير المعتني بها، وتتلون الجبال بين السواد والبياض، وتكثر الأحجار الجيرية في النتوءات البيضاء، وبعض الأحزمة الحمراء، ثم اتجهنا إلي منطقة الحُوفة، تلك التي يوجد بها معهد ديني بمراحله الثلاث، والطريق مرصوف، ومعه خط المياه وخط الكهرباء، هذه التي تعلو قليلاً، وتميل إلي الانحدار ثم تواصل الارتفاع، وتليها منطقة "الطرفة"، وهي أول حدود (كاترين) وكان الطريق متعرجاً ينساب بين أحزمة الجبال السوداء، وبدأت تظهر بعض

الأديرة قبل منطقة كاترين (كدير السبع بنات) ووصلنا إلي منطقة المروة، حيث يتجه الطريق يميناً إلي مطار كاترين، ويساراً إلي طريق نويبع، وهنا تظهر بعض مقامات الأنبياء مثل مقام النبي صالح، وينساب الطريق إلي منطقة النبي هارون وذلك قبل الدخول إلي مدينة سانت كاترين وكانت الطُرُق شبه خالية، إلي أن بدأت الحياة تدب فيها، عندما اتجهنا يساراً إلي الدير، حيث تتعدد الجنسيات الداخلة إليه، وكان معظم السائحين من الروس، وقد أُهديت لنا بعض الشموع وبعض المطبوعات المزينة بالصور الطبيعية، التي تُعبر عن الجبال المحيطة به، خاصة جبل موسي، الذي يختلف عما حوله، ودخلنا إلي كنيسة الدير في صمت وهدوء، وعرفنا أن بدو سيناء كانوا هم الحماة الأوائل للدير؛ لشدة تعلقهم به وتكسبهم من الزوار الوافدين إليه، وفي كتيب صغير بعنوان (دير سانت كاترين) جاء في مقدمته "إن دير القديسة كاترين هو أحد المراكز الأرثوذكسية للتنسك والتوحد، استمرت فيه الحياة الروحية زهاء أربعة عشر قرناً دون انقطاع- وقد أقيم في وسط شبه جزيرة سيناء منذ القرن السادس، محافظاً علي طابعه الخاص منذ عهد الإمبراطور يوستنيانوس (٥٢٧- ٥٦٥ب.م) وقد وضع محمد (صلي الله عليه وسلم) صاحب الشريعة الإسلامية والخلفاء العرب والسلاطنة الأتراك ونابليون هذا الدير تحت حمايتهم ورعايتهم، وحافظوا عليه من الغزوات البربرية. وهكذا لم تلحق به أضرار ذات بال أو سرقات، طيلة تاريخه الطويل[١]".

---

[١] أفانجلوس بابايوانو: دير طور سيناء – ترجمة صليبا خوري وفيليب دحابرة، إصدار دير طور سيناء، صـ٣.

وذكر هذا الكتيب شيئاً من حياة القديسة كاترينا، وصوراً للكنيسة الرئيسية فيه، وهي لا تختلف عما شاهدناه علي الطبيعة، كما تحدث الكتيب عن مكتبة الدير، وجبل القديسة كاترينا، وعرّف ببعض الأديرة التابعة للدير.

واتجهنا بعد ذلك إلي أعلي مرتفع جبلي بمنطقة (سانت كاترين) حيث يوجد المعهد الأزهري تحت مسمي (معهد الوادي المقدس)، وهو مَبْني من الأحجار الملونة الموجودة في المنطقة، وينتظم في الدراسة به طلاب المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية، وجملة التلاميذ فيه حسب الإحصائيات المعتمدة خمس وستون طالباً وطالبة، ويتوزعون علي النحو التالي:

تسعة عشر في المعهد الابتدائي، وتسعة وعشرون في المعهد الإعـــدادي وسبعة عشر في المعهد الثانوي، والتقيت بعدد من السادة المدرسين والعاملين في هذا المعهد، الذي يقع في منطقة شبه عامرة بالسكان، وقد طالبوا بمعاملتهم ماليـــاً أسوة بزملائهم العاملين في معاهد الأودية، هؤلاء الذين يضاف إلي راتــب كـــل منهم مائة جنيه شهرياً (إضافية) تحت مسمي، بدل أوديـــة، والـــسبب فـــي هـــذا المطلب أن معهد الوادي المقدس في هذه المنطقة يعامل مثل معاهد المدن، مع أن الحالة المناخية فيه أصعب من الأحوال الكائنة في معاهد الأودية، وهم علي أمل أن يُصحح هذا الوضع بالنسبة لهم.

وقد شاهدت كثيراً من نوافذ هذا المعهد بلا زجاج، وذكر بعض المدرسين أنهم يقومون بشراء كثير من الزجاج علي نفقاتهم الخاصة، وبعد تناول طعام الغداء في أحد المطاعم البسيطة في هذه المنطقة اتجهنا إلي منطقة دهب ومدينتها الواقعة علي خليج العقبة، وتحركنا إلي أول طريقنا إلي شرم الشيخ، فكانت الزيارة إلي معهد وادي مجيرح قسم دهب التعليمي.

والمعهد جديد ونظيف، وينقسم إلي معهدين للابتدائي والإعدادي، وعـــدد التلاميذ فيهما أربعة وعشرون، ويضاف إليهم إحدي التلميذات بصفة (مـــستمعة) فقد حصلت علي الشهادة الإعدادية، وليس لوالدها رغبة في أن تذهب؛ لاستكمال التعليم الثانوي في مدينة دهب، والتي تبعد عن وادي مجيرح بمـــا يقـــرب مـــن عشرين كيلو متراً، وكان الوقت عصراً، والتقينا بثلاثة مدرسين، يعملـــون بهـــذا المعهد وهم من خريجي كليات الأزهر الشريف.

واتجهنا في طريق مزدوج إلي الجنوب قاصدين مدينة (شرم الشيخ) والتي بدت مع أول المساء مضاءة مزدانة، وشاهدنا بعض المساجد والمستشفيات، والمدينة شديدة الاختلاف من حيث العمارات والفنادق والشوارع وحركة التجارة عن غيرها من المدن، وكان دخولنا أولاً علي المعهد الأزهري، والتقينا بعدد من المدرسين، الذين كانوا علي علم بقدومنا، ودار الحديث في المجلس الذي انعقد بنا عن تطوير الدراسة في معاهد الأزهر، وتحسين وضع الإدارة والمدرسين، وضم مجلسنا مدير التدريب بمحافظة جنوب سيناء والأستاذ بخيت علي هلال شيخ المعهد الإعدادي والثانوي بمدينة شرم الشيخ والأستاذ السيد عبد القادر الأخصائي الاجتماعي بالمعهد الديني، وتحدث بعض الحاضرين عن توجيه مصروفات الدراسة في المعهد النموذجي، ذلك أن حصيلة ما تم جمعه مازال مرصوداً أو محجوزاً بدون إنفاق وتوجيه، وعليه ينبغي إنفاقه فيما حُصّل من أجله.

وطالب أحد الحضور بتطوير الأداء التعليمي والإداري، وتفعيل التواصـــل بين منطقة جنوب سيناء مع مشيخة الأزهر وقطاع المعاهد الأزهريـــة، وكـــذلك تطوير آليات التواصل بين المنطقة الأزهرية في جنوب سيناء والمعاهد الأزهرية في المدن والأودية، وطالب شيخ المعهد وبعض الحضور بجهاز تليفون وفـــاكس

لكل معهد؛ لسرعة التواصل مع جهات الإدارة في طور سيناء والقاهرة، كما طالبوا بوجوب العناية بالمعهد النموذجي في شرم الشيخ بصفة خاصة، ففيه طلاب مسلمون منتظمون في الدراسة من دولة روسيا، ولهؤلاء وأمثالهم بعد التخرج شأن كبير في أوطانهم.

وأفاد شيخ المعهد بأن عدد التلاميذ في المعهد الابتدائي والإعدادي بدون الثانوي أقل من عدد المدرسين، بينما يزيد عدد التلاميذ في المعهد النموذجي، فيصل إلي ما يقرب من ستين تلميذاً، وتركنا مدينة شرم الشيخ واتجهنا إلي مدينة طور سيناء عاصمة المحافظة مع منتصف الليل.

خامساً: محاضرات اليوم الثالث

لقد كانت المحاضرة الأولي في هذا اليوم عن أهمية تدريس مادة الإملاء، وبيان الأخطاء الشائعة فيها، والفوارق بين القواعد الثابتة وطريقة الرسم العثماني الكائن في المصحف الشريف، ونبهنا إلي ضرورة العناية بتدريس مادة الخط العربي؛ لاتصاله بطرق الكتابة وجمال الخط، ولا يكتفي بالنماذج التي تقدم للتلاميذ، لكي يكتبوها دون أن يكون ذلك مصحوباً بالحرص علي بيان الأخطاء ومعرفة تصويبها، ويتصل بذلك معرفة علامات الترقيم، والفوارق بين همزتي الوصل والقطع، وأن من أهم أسباب الضعف في هذه المادة انتشار العامية علي ألسنة الكثيرين من الدارسين؛ حتي وصلت إلي بعض المدرسين ورجال الإعلام والدعاة، ويتحتم أن يتعاون مدرسو المواد الأخرى في تصويب الأخطاء الإملائية، إذ لا يصح أن يُقَدِّم مدرس أحدي مواد اللغة العربية قاعدة إملائية، وينبه إليها، ثم يأتي مدرس لمادة أخري فيهدم ما بناه الأول، أو يعرض للأمر بصورة استخفاف لا تليق، وعلي السادة المدرسين أن يتحصنوا بمعارفهم اللغوية قبل تقديمها للطلاب في سائر المراحل المختلفة.

وكانت المحاضرة الثانية عن كتابة التقرير، وهو صورة من صور الكتابة الحديثة، التي لم يكن لها وجود بهذا المعني في القديم، والمقصود منه هو تقديم قدر من المعلومات الصحيحة، حول أمر من الأمور المختلفة، أو عرض مجموعة من المقدمات والنتائج عن دراسة معينة، وهذا التقرير يحتاج إليه شيخ المعهد، **وموجه** المادة العلمية، والمدرس الأول، وبعض الشخصيات، التي تسهم في العملية التعليمية، كالمحقق القانوني، والأخصائي الاجتماعي وغيرهما.

وقد صار إعداد التقرير مقترناً بدراسة المناهج والبحوث العلمية، وعلي أساس التقرير الصحيح والدقيق تُتخذ القرارات، التي تهم الفرد والمجتمع، ولذا ينبغي مراعاة الدقة في إعداد التقرير، خاصة التقرير النهائي، الذي يوضع بعد نهاية عمل، أو نشاط معين، مثل التقرير الذي يُعَد في نهاية دورة تدريبية، أو عن متابعة أحوال موظف تحت الاختبار.

وللتقارير أنواع كثيرة، تأتي توافقاً مع العديد من مجالات الحياة، كالتعليم والإدارة والمحاسبة وغيرها، ويجب الالتزام بالخطوات المقررة في إعداد التقارير، وأهمها وضع الإطار، أو الخطة التي تسهم في تحديد النقاط المهمة في التقرير، وتنظيم المعلومات المرتبطة بالموضوع، وترتيب الحيثيات التي تُعد كثيرة الأهمية في اتخاذ القرارات وبسط النتائج، ولابد أن يشتمل التقرير علي ثلاثة أركان هي المقدمة وصلب التقرير والخاتمة، هذه التي ينهض بها مُعِد التقرير، وذلك لحسم النتائج التي تم التوصل إليها، ولابد أن يشتمل كل تقرير علي مجموعة من النتائج، ويجب التعرف علي الأخطاء التي يمكن أن يقع كاتب التقرير فيها، وأخطرها التسرع في الاستنتاجات دون تقديم البيانات والمعلومات الكافية، ويتحتم التفريق بين المعلومة والرأي الشخصي إلي غير ذلك من مفردات

هذا الموضوع، التي أخضعناها للمناقشة مع السادة الحضور من الشيوخ والموجهين والمدرسين.

وقد دار حوار مفتوح في نهاية هذه المحاضرة استعرضنا فيها كثيراً من الآراء التي سوف نشير إليها في نهاية هذا العرض.

وكان ختام العمل في هذا اليوم متمثلاً لما تم التعرض له والحديث عنه مع بعض الأزهريين في منزل الإذاعي المعروف محمود عيسي، وقد تم تسجيل ما دار في هذه المحاضرات من تقديم للموضوعات، ونقاش للقضايا المتصلة بها، تمهيداً لبثها عبر موجات الإذاعات الإقليمية.

سادساً: أهم النتائج والتوصيات مما جاء في الدورة التدريبية بمنطقة جنوب سيناء وزيارتنا لعدد من المعاهد الأزهرية في بعض المدن والأودية.

(١) يتحتم مواصلة العمل بكافة الوسائل، لتطوير الدراسة بمعاهد الأزهر في المراحل الثلاثة (الابتدائية والإعدادية، والثانوية)، ولكي يتحقق ذلك لابد من التعرف علي الوضع الكائن في أرض الواقع، والاستماع إلي شيوخ المعاهد والموجهين والمدرسين، وقياس قدرات ومستوي التحصيل لدي التلاميذ، ومعرفة طبيعة البيئة ومتطلباتها، ومدي احتياجاتها إلي التعليم، خاصة التعليم الأزهري، وقد تتبعت ذلك في أثناء المحاضرات والندوات، والالتقاء بالمدرسين في كثير من المعاهد بمدن الطور وشرم الشيخ ووادي مجيرح والوادي المقدس، ولابد أن يعتمد التطوير علي حسن إعداد المدرس، ومراجعة المناهج المقدمة في الكتاب المقرر، والعناية بتفهم طبيعة التلاميذ في المناطق الصحراوية، خاصة، وحسن إعداد

المعاهد من ناحية الوسائل التعليمية، وسلامة المباني، والمتابعة الجيدة مع تطبيق مبدأ الثواب والعقاب.

(٢) لابد من مواصلة التدريب التربوي، والإداري، وتأكيد أهمية رسالة الأزهر في هذه المناطق، وقد اشتكي كثير من المدرسين والموجهين والشيوخ من صعوبة هذه المهمة بخصوص التأهيل التربوي وامتحانات الكادر، خاصة ممن وصلوا إلي سن الخامسة والخمسين، واقتربوا من الخروج إلي المعاش، وتضرروا من الانتقال من جنوب سيناء إلي الإسماعيلية؛ لدراسة مقررات (التأهيل التربوي) ويفضلون- إذا لزم الأمر- أن تكون الدراسة في دورات منتظمة داخل حدود محافظة جنوب سيناء.

(٣) ضرورة العناية بتحفيظ القرآن الكريم؛ لأن ذلك هو الفارق الوحيد في التعليم الابتدائي، والذي تختص به معاهد الأزهر، دون مدارس التربية والتعليم، وأن يقترن الحفظ بإرساء القيم الدينية من خلال القصة القرآنية، وطالب بعض الشيوخ بعقد أكثر من دورة تدريبية لمحفظي القرآن، قبل إتمام التعاقد معهم، وتدريس مادة التجويد، لسلامة الحفظ ودقة التلاوة، وأقرَّ بعض شيوخ المعاهد فتور العناية بتحفيظ القرآن في المرحلة الإبتدائية؛ ولا توجد إلا نسبة ضئيلة هي التي تحقق المستهدف، وأرجع بعض الحاضرين في دورة التدريب، السبب في ذلك إلي عدم وجود الحافز المادي، كما كان الشأن سابقاً(قبل إقرار الكادر)، لأن المستحق من عائد الكادر يناله الجميع. وتجب العناية بمدرسي الصف الأول الابتدائي، لأن هذا الصف هو الأساس في تكوين التلميذ، وأن التذبذب في مستوي

أساسية، يتم الامتحان فيها بدءاً من التعليم الابتدائي، ولا يقتصر الأمر علي تسليم الكتب دون أي اهتمام آخر، كما هو الشأن الحاصل الآن.

(٥) ضرورة العناية بالمكتبة في كل معهد بالمراحل الثلاثة، ويجب تزويدها بالمراجع والكتب، حسب متطلبات كل مرحلة، وأن تكون حصة المكتبة للمكتبة؛ حتي تنمو ثقافة التلميذ منذ صغره.

(٦) أقرّ المدرسون والموجهون بتأخر الكتب الدراسية المقررة، وأن الكثير منها لا يصل إلا في بداية النصف الثاني من العام الدراسي.

(٧) لابد أن تكون تغذية التلميذ وهي (علبة بسكوت) من أول العام الدراسي، وليس من نصفه.

(٨) تحتاج بعض المعاهد إلي إصلاح (نوافذ معهد الوادي المقدس بدون زجاج) مثلاً، كما يحتاج كل معهد إلي هاتف (تليفون وفاكس) فلا يوجد شئ من ذلك في معهد شرم الشيخ، مع أن بعض طلابه غير مصريين.

(٩) صعوبة تنقل الموجهين ولجان المتابعة في معاهد الأودية والمدن غير الرئيسية.

(١٠) كان المدرسون والموجهون والشيوخ أكثر اقتناعاً بضرورة رفع مستوي الطلاب في حفظ (القرآن الكريم) وكانوا يرددون مقولة الإمام الأكبر شيخ الأزهر في أنه لا تعنيه نسبة النجاح حتي لو كانت ١٠% وإنما المهم هو أن يكون النجاح لمن يستحق، وذلك بداية الإصلاح، وأكدوا مبايعتهم له، ورفض أي تطاول علي منزلته ومكانته داخل مصر وخارجها.

****

كتـــب للمؤلـــف

أولاً: في الأدب والنـقـد:

١- شعر الحماسة في العصر العباسي الثاني- مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٨٤م.

٢- ياقوت الحموي أديباً وناقداً- دار الطباعة المحمدية بالقاهرة ١٩٨٨م.

٣- امرؤ القيس بين القدماء والمحدثين- دار الطباعة المحمدية ١٩٨٩م.

٤- الغموض في شعر أبي تمام- دار الطباعة المحمدية ١٩٨٩م.

٥- فن الرواية في المملكة العربية السعودية بين النشأة والتطور- دار الطباعة المحمدية ١٩٨٩م.

٦- شعراء الطائف في الجاهلية والإسلام- دار الطباعة المحمدية ١٨٨٩م.

٧- من روائع الأدب العربي في العصرين العباسي الأول والأندلسي-دار الطباعة المحمدية ١٩٩٠م.

٨- من روائع الأدب العربي في العصرين الأموي والعباسي الأول- دار الطباعة المحمدية ١٩٩١م.

٩- أوزان الشعر دراسة في العروض والقافية- مطبعة الضوي بالزقازيق ١٩٩٤ م.

١٠- فن الرواية في المملكة العربية السعودية (بين النشأة والتطور)- من منشورات المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة ١٩٩٥ (الطبعة الثانية) .

١١- دراسات في الأدب الجاهلي- مكتب آيات بالزقازيق- ١٩٩٨م.

١٢- أطوار الأدب العربي في العصر الإسلامي- مكتب آيات بالزقازيق- ١٩٩٩م.

١٣- دراسات في الأدب الأندلسي- توزيع المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة ١٩٩٩.

١٤- تاريخ الأدب الجاهلي٢٠٠١م.

١٥- أدب البيئة بين الأصالة والمعاصرة عام ٢٠٠٥م.

١٦- دراسات في الأدب العربي الحديث عام ٢٠٠٧م.

١٧- أصوات- الأرض والحب والثورة طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب علم ٢٠١٠م.

كتـــب للمؤلـــف

أولاً: في الأدب والنـقـد:

١- شعر الحماسة في العصر العباسي الثاني- مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٨٤م.

٢- ياقوت الحموي أديباً وناقداً- دار الطباعة المحمدية بالقاهرة ١٩٨٨م.

٣- امرؤ القيس بين القدماء والمحدثين- دار الطباعة المحمدية ١٩٨٩م.

٤- الغموض في شعر أبي تمام- دار الطباعة المحمدية ١٩٨٩م.

٥- فن الرواية في المملكة العربية السعودية بين النشأة والتطور- دار الطباعة المحمدية ١٩٨٩م.

٦- شعراء الطائف في الجاهلية والإسلام- دار الطباعة المحمدية ١٨٨٩م.

٧- من روائع الأدب العربي في العصرين العباسي الأول والأندلسي-دار الطباعة المحمدية ١٩٩٠م.

٨- من روائع الأدب العربي في العصرين الأموي والعباسي الأول- دار الطباعة المحمدية ١٩٩١م.

٩- أوزان الشعر دراسة في العروض والقافية- مطبعة الضوي بالزقازيق ١٩٩٤ م.

١٠- فن الرواية في المملكة العربية السعودية (بين النشأة والتطور)- من منشورات المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة ١٩٩٥ (الطبعة الثانية) .

١١- دراسات في الأدب الجاهلي- مكتب آيات بالزقازيق- ١٩٩٨م.

١٢- أطوار الأدب العربي في العصر الإسلامي- مكتب آيات بالزقازيق- ١٩٩٩م.

١٣- دراسات في الأدب الأندلسي- توزيع المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة ١٩٩٩.

١٤- تاريخ الأدب الجاهلي٢٠٠١م.

١٥- أدب البيئة بين الأصالة والمعاصرة عام ٢٠٠٥م.

١٦- دراسات في الأدب العربي الحديث عام ٢٠٠٧م.

١٧- أصوات- الأرض والحب والثورة طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ٢٠١٠م.

١٨- دراسات أدبية - في عصر صدر الإسلام وبني أمية- عام ٢٠١٢م.

ثانياً: في الثقافة والعلم والتعلم:

١- مناهج البحث في الأدب واللغة والتربية- نشر مكتبة الآداب بالقاهرة ٢٠٠٠م.

٢- رحيق المعرفة- نشر مكتبة الآداب عام ٢٠٠١م.

٣- ألوان من الأدب والفكر والحياة عام ٢٠٠٧م.

٤- قضايا ثقافية ، طبع مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف عام ٢٠٠٩م.

٥- شخصيات وقضايا في العلم والتعلم والتربية - ٢٠١٢م.

ثالثاً: في الدراسات الإسلامية:

١- قطوف من السيرة والدعوة عام ٢٠٠٦م.

٢- الثروة في الإسلام - طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية سنة ٢٠٠٧م.

٣- أنوار اليقين - عام ٢٠٠٩م.

٤- سلامة الإنسان فى الإسلام - عام ٢٠١٢م.

٥- بصائر للناس - عام ٢٠١٢ م.

رابعاً: في الدراسة والتحقيق:

١- الاعمال الكاملة لأحمد عبدالمجيد الغزالي- الجزء الأول (الشعر).

٢. الاعمال الكاملة لأحمد عبدالمجيد الغزالي- الجزء الثاني (النثر).

٣. أصداء من زمن بعيد- ديوان شعر د/ شامل أباظة.

تطلب الكتب المذكورة من دور الطبع والنشر الآتية:

١ـ المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة ٩ درب الأتراك خلف الأزهر الشريف ت: ٠٢/٢٥١٢٠٨٤.

٢ـ مكتبة النهضة المصرية ٩ شارع عدلى بالقاهرة ت: ٠٢/٢٣٩٥٦٧٧٠

٣ـ مكتبة الآداب ٤٢ ميدان الأوبرا القاهرة ٢٣٩٠٠٨٦٨ / ٠٢

الفهرس الإجمالي للموضوعات

رقم الإيداع بدار الكتب

٧٧٩٠ / ٢٠١٤م

الترقيم الدولي

978-977-90-1596-5